

هاينريش بيل

ولع بقلب كريمة

روايات جادة وسيرة

12

الدار المصرية اللبنانية ترجمة ياسين طه حافظ

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ ش عبد الحالى ثروت - القاهرة

تليفون . ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٥٨٢٥ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى . 2 - 360 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناسر

الطبعة الأولى . رمضان ١٤١٨ هـ - يناير ١٩٩٨ م.

ولم يقل كلمة

AND NEVER SAID A WORD

ہاینرش بسل

نوبل / 1972

یاسین طہ حافظ

ترجمة

1



بعد العمل ، مضيت إلى « البنك » لصرف ذلك الشيك . كان أمام المحاسب « طابور » طويل من الناس . انتظرت نصف ساعة حاملاً ذلك الشيك في يدي ، أخيراً رأيت المحاسب يمرره إلى فتاة ترتدى بلوزة صفراء . التفتت الفتاة إلى ملف بطاقات الحساب ، وجدت بطاقتي ، أعادت الشيك إلى المحاسب قائلة :

- « صحيح » .

عدت يدا المحاسب النظيفتان الأوراق النقدية على وجه الرخامة أمامه . أعدت أنا حسابها واتخذت طريقى للخروج . ذهبت إلى مائدة صغيرة إلى جانب الباب لأضع النقود في ظرف ، ولأكتب ملاحظة لزوجتى . كان على المائدة أوراق إيداع قرنفلية . أخذت واحدة وكتبت على ظهرها بالقلم الرصاص :

« يجب أن أراك غداً ، سأتصل قبل الثانية » .

وضعت الملاحظة في ظرف . . ترددت . . أخرجت النقود مرة أخرى . . سحبت قطعة فئة عشرة ماركات منه ووضعتها في جيب سترتى . أخرجت ورقة الملاحظة ثانية ، وأضفت إليها هذه الكلمات :

« احتفظتُ بعشرة ماركات لنفسى ، سأعيدها لكِ غداً . قبلى الأطفال ... فريد » .

لكن الظرف لا يلتصق ، فذهبت إى رفٍّ خالٍ مكتوب عليه إيداعات .
الفتاة وراء الزجاج ، نهضت ورفعت زجاج النافذة . كانت نحيلة ، ببشرة
سمراء ، ترتدى سترة قرنفلية اللون ، مشدودة عند العنق بوردة صناعية .

سألتها : « أيمكننى أن أحصل على قطعة شريط لاصق ؟ »

نظرت إلى لحظة وترددت ، ثم قطعت شريطاً من لفّة لاصقٍ بُنِيَّة اللون ،
سلمته لى دون كلمة ، وأعادت إنزال الزجاج مرة ثانية ، فقلت ووجهى
لزجاج النافذة :
- « شكراً » .

عدت إلى المائدة . . ألصقت الظرف ، وأنزلت قُبْعَتى على جبهتى ،
وغادرت « البنك » .

كانت السماء غمطر حين خرجت ، وفى الشارع بضع أوراق يابسة تنجرف
على الأسفلت . وقفت فى مدخل « البنك » ، أنتظر . . السيارة رقم (١٢)
تستدير على المنعطف ، قفزتُ فيها ومضيتُ إلى ميدان « نوكوف » . كانت
السيارة مَلَأَى بالناس ، وملابسهم تقطر من البَلَل . كان المطر يزداد شدةً
حين قفزتُ نازلاً فى ميدان « نوكوف » ولم أدفع ثمن التذكرة . اندفعت تحت
مظلة محل أكالات خفيفة ، تقدمتُ وطلبتُ سجقة مقلية وكوباً من مرق
البقر ، وطلبتُ عشر سجاير ، وصرفتُ الماركات العَشر .

تناولت قُضْمَةً من السجق . . نظرت فى المرآة التى احتلت كل حائط
الكشك . فى البداية ما عرفت نفسى ، وقد رأيت ذلك الوجه المضنى تحت

القُبَّعة الحائلة اللون ، وانتبهت فجأة إلى أنى أبدو مثل واحد من أولئك الباعة المتجولين الذين كانوا يأتون إلى باب أمى ولا يبرحون . كان اليأس القاتم فى تلك الوجوه يشخص فى الضوء المعتم لواجهة الصالة . كنت أفتح لهم الباب وأنا إذا ذاك ولد صغير . وحين تجىء أمى - وقد كنت أدعوها بإلحاح وعينى على حاملة المعاطف - تجىء بأسرع ما تستطيع من المطبخ ، وهى تنشف يديها بصدريتها فيشع ضوء غريب على تلك الوجوه والأشكال اليائسة . كانوا يحاولون بيع كسر الصابون ، أو ملمع الأرضيات أو مقصات ، أو أربطة أحذية . . تلوح على تلك الوجوه الرمادية اليائسة سعادة لدى رؤية أمى . لكن لهذه السعادة شىء ما يكدرها . كانت امرأة طيبة ، فهى لا تطرد أحداً عن بابها ، تعطى الشحاذين خبزاً إن كنا نملك بعضاً منه ، ونقوداً إن كان لنا شىء .

تقدم لهم فى الأقل كوباً من القهوة ، وإذا لم يتبق لنا شىءٌ فى الدار تقدم لهم ماءً بارداً فى قدح نظيف . كان حول جرس الباب زحمة إشارات ونداءات متسولين ، تتاح لكل شحاذ فرصة طيبة لبيع شىء ، حتى لا يبقى فى البيت ما يكفى لشراء رباط حذاء . لا يثير الباعة ارتياب والدتى ، ولا تستطيع مقاومة أوجه أولئك المعذنين ، فنروح توقّع للآخرين على أثمان أشياء تظل ديوناً عليها ، كما توقع لهم وثائق تأمين وكفالات . أتذكر وأنا ولد صغير أرقد فى فراشى فى الليل أنى كنت أسمع والدى يعود إلى البيت ، ولحظة يدخل غرفة الطعام ، يبدأ الشجار ، شجار مخيف لا تقول فيه والدتى كلمة واحدة . كانت امرأة هادئة . أحد الرجال اعتاد أن يأتى إلى مكاننا مرتدياً قُبَّعة حائلة اللون ، مثل هذه التى ألبسها الآن ، كان اسمه « ديتش » ، وكان كاهناً لم يجرد من سلطته ، كما اكتشفت ذلك بعدئذ ، وكان يبيع كسر

الصابون . الآن ، وأنا أتناول السجق ، وهو ساخن جدًا لدرجة أنه أحرق
لثتي الحساسة ، اكتشفت في المرآة الممتدة على طل الجدار أنني صرْتُ أبدو
مثل ذلك الديتشي بقبعتي ووجهي المُجْهَد ، واليأس في عيني . لكن قريباً
من وجهي في المرآة رأيتُ وُجوه رجال آخرين على المقاعد الأمامية وأفواهها
تنتفح واسعة لتلتهم سجقاً . رأيت لثاتٍ معتمة خلف أسنان صفراء يعلّق
بها فتاتٌ وردىٌ من لحم السجق ، يتساقط منها في تلك الفتحات السود .
رأيت قبعات جيدة ورثة ، وشعوراً مبللة لآخرين بلا قبعات ، وذلك الوجه
الوردى وجه النادلّة التي تقدم على خدمتهم ، والتي تمضي بينهم وتعود .
وفي ابتسامة بهيجة تصطاد بشوكة خشبية سنجقة من بحيرة الزيت ، وتضع
قليلاً من الخردل على صحن ورقى . هي أيضاً تُسَلِّم سجاير وعصير
ليمون ، وتتناول نقوداً بتلك الأصابع الوردية . هذا . . والمطر لا يزال يهطل
على سقف المحل .

في وجهي أيضاً أرى ذلك المشهد للشراة وأنا ألتهم السجق ، وحين
أفتح فمي فيكشف عن بلعوم قاتم وراء أسنان مُصْفَرّة ، أرى ذلك المشهد
فيفزعني بين وجوه الآخرين . رءوسنا كانت مسطرة مثل الدُّمى . . وجوه
تلوح خاوية في البخار الدافئ المتصاعد من المقلاة .

في نوبة اشمئزازي تلك ، اندفعتُ خارجاً مرة أخرى ، مبرعاً خلال
المطر في شارع « موزار » . تحت مظلات المخازن وقف الناس منتظرين .
وعند الوصول إلى ورشة « فاجنر » كان على شقّ طريقي عبر الزحام إلى الباب
الذي فتحته بعسر ، واسترحتُ أخيراً حينما رحت أمشي نازلاً على درجات
السلم ، وقد ارتفعت بعدها لتستقبلني رائحة الجلود . كانت هنالك رائحة
أحذية عتيقة ، ورائحة جلود جديدة ، ورائحة شمع الإسكافي وكنت أسمع
مكنة خياطة الجلود قديمة الطراز .

اجتزت امرأتين تنتظران على مصطبة ، فتحت الباب الزجاجي ، وسرني
أنى أرى زيارتي تجلب ابتسامة إلى وجه «فاجنر» . لقد عرفته مدة خمس
وثلاثين سنة .

اعتدنا العيش فى الطابق الأعلى ، فوق محله الحالى ، فى مكان ما فى
العراء ، فوق السقف الأسمنتى لورشته . هنالك كنا نعيش . وأذكر أنى
حملتُ له يوماً نعلْى أمى ولم أتحاوز حينها الخامسة . والآن ، مرة أخرى أرى
صورة المسيح المصلوب معلقة على الجدار وراء مقعده ، وإلى جانبها صورة
القديس كريستيان ، ذلك الإسكافي شيخٌ وديع بلحية رمادية يحملها فى
يديه ، يدين ليستا خشتين كثيراً بالنسبة ليدى إسكافي .

صافحتُ « فاجنر » ، ولأنه يحمل مسامير فى فمه ، فقد اكتفى بهز رأسه
باتجاه المقعد الآخر دون كلمات . جلستُ وأخرجت الظرف من جيبى ودفع
« فاجنر » تبغهُ وورق سجائره عبر المائدة ، لكن سيجارتى لا تزال مشتعلة .

قلت له : « كلا ، شكراً » وقدمت الظرف إليه .

وأضفت : « لعله ... » .

أزاح المسامير من فمه ، مرَّ إصبعه ماسحاً شفثيه ليتأكد من عدم
التصاق مسمار عليهما ، وقال : « رزمة أخرى لزوجتك - حسن ، حسن ! »

أخذ الظرف وهز رأسه قائلاً : « سأهتم به ، سأرسل ابنى الكبير إلى
هناك حينها يعود من الاعتراف - ونظر إلى الوقت - خلال نصف ساعة » .

قلت : « يجب أن تصلها اليوم نقود فى داخله » .

أجابنى : أعرف .

صافحته وودعته ، وأنا أصعد السلم خطرلى ثانية : كان على أن أطلب منه بعض النقود . ترددت لحظة ، ثم صعدت آخر دَرْجَةٍ ورحت أشق طريقى بمرفقى خلال الناس .

مضت على مغادرتى السيارة خمس دقائق ولا تزال السماء تمطر فى شارع «بنكام» أسرعت قدماً بين «الجمَلُونَات» العالية التى تُبَتِّت لحماية المباني الغوطية ، التى بدت مثل تحف أثرية . ومن خلال أُطُر النافذة المسودة ، تمكنت من رؤية السماء المثقلة بالسحب . بناية واحدة من تلك البنايات كانت مشغولة ، مشيت مسرعاً تحت سقف مدخلها ضغطت الجرس ، وانتظرت .

استطعت أن أقرأ فى عيني الفتاة البنتين اللطيفتين ذلك العطف نفسه الذى كنت أشعر به أنا نحو ذلك النمط من الناس الذين صرت الآن أشبههم . أخذت سترتى وقبعتى . نفضتهما خارجاً قرب الباب .

قالت : « يا إلهى ، حتماً تحملت المطر ! »

هزرتُ رأسى ومضيت إلى المرأة ، وأجريت كفى فى شعرى .

سألتها : « هل السيدة « بيزم » موجودة ؟ » .

- « كلا ليست ... »

- أسأل إنْ هى تذكرت أنَّ غداً هو الأول من الشهر . . ؟ .

- كلا .

أجابتنى الفتاة وأدخلتنى غرفة « الصالون » . حركت المنضدة قريباً من الموقد الحجرى ، ونظرت إلى الساعة الجدارية التى مضت عليها مائة

وخمسون سنة تعلن الوقت لعائلة « بيزم » . الغرفة مزدحمة بأثاث قديم والنوافذ ذات زجاج غوطى أصيل مُؤَطَّر بالرصاص .

جاءتنى الفتاة بكوب من القهوة ، ساحة « الفونس » وراءها من حمالة بنطلونه - بيزم الصغير الذى تعهدت بتعليمه قواعد حساب الكسور الولد أحمر الخدين ، يهوى اللعب بالبلوط فى الحديقة الكبيرة - يجمعها بشوق ، يجمعها حتى من البنايات المجاورة التى لا تزال فارعة ، فى الأسابيع القليلة الماضية ، صرت أرى ، حين تكون النافذة مفتوحة ، سلاسل طويلة من البلوط تتدلى بين الأشجار .

ضممتُ كوبَ القهوة بيدى لأشعر ببعض الدفء ، وببطء أعيد قواعد الكسور لذلك الوجه المفعم بالعافية ، وأعلم أن ما أفعله غير ذى جدوى . إنه طفل محبوب ، ولكنه غبى مثل والديه وإخوانه وإخواته ، فى الدار شخص واحد ذكى : الفتاة .

السيد « بيزم » يتاجر بالجلود والأحشاء ، رجل محبوب ، حينما التقى به أحياناً ويبادلنى الحديث ، أحس إحساساً مضحكاً ، ذلك أنه يحسدنى على عملى . لدى انطباع أنه طول حياته يعانى من حقيقة أنه يُتَوَقَّعُ منه أكثر مما يستطيع أن يقدم : إدارة عمل كبير تتطلب من الفظاظة قدر ما تتطلب من الذكاء ، و هو يفتقد الاثنين . عندما نلتقى يسألنى عن تفاصيل عملى بعاطفة تجعلنى أظن أنه يفضل أن يقضى كل حياته مغلقة عليه غرفة بدالة مثلى . يريد أن يعرف كيف أدير لوحة الأرقام ، كيف أدخل نداءات المسافات البعيدة ، يسألنى عن رطانة حرفتنا . وفكرة أنى أستطيع أن أتنبَّه على كل حديث ، هذه الفكرة منحته ابتهاج طفل ،

اندهش قائلاً : « ممتع » وظل يعيد : كم ذلك ممتع ! .

تَقْدَمَ عقربا الساعة ببطء . كان الولد يعيد على القواعد ، أمليتُ عليه
تمارين ، وجلست أدخن حتى يتم حلها . كانت الحالة هادئة في الخارج .
هنا في قلب المدينة صمتٌ مثل صمت القرى الصغيرة في الشُّهوب التي
ابتعد عنها الرعاة ، فليس فيها بعدهم غير عجائز عليلات : الكسور تقسم
على بعضها بضربها مقلوبة . فجأة ، وَجَّهَ الطفلُ إلى وجهي عينين ثابتتين
وقال :-

- . كليمنتر نال B . a في اللاتينية .

لا أدري إن كان لاحظَ كم أثارني . فتنويبه سحب وَجْهَ ابني وألقاه
أمامي ، ذلك الوجه الشاحب لصبي في الثالثة عشرة . وتذكرت أنه يجلس
إلى جانب الفونس .

قلت بجهد : « ذلك لطيف وماذا عنك ؟ »

قال : « d » .

وتركزتُ عيناهُ المليئتان بالشك فوق وجهي ، كما لو كان يبحث عن
شيء ، وشعرت في الوقت نفسه بأني ممتلئ باللامبالاة ، فهم جميعاً يحدقون
في وجهي الآن . تجسدت - كاملةً قريبةً من وجهي - وجوه زوجتي وأطفالي ،
وجوه كبيرة عملاقة كما لو كان وجهي يُضيئُها . كان عليّ أن أغطي عينيَّ
وأنا أتلفظ :

« استمر ... كيف نضرب الكسور ببعضها ؟ »

وأعاد القاعدة بصوت خفيض ، ناظرًا إلى ، لكنني لم أسمعه ، فقد لاح
أطفالي يجرون في الحلقة المفرغة التي تبدأ بحمل الحقيبة المدرسية على الظهر

وتنتهى فى مكانٍ مّا فى مكتب دائرة - وكيت ، زوجتى ، تراقب أطفالنا يخرجون فى الصباح حاملين حقائبهم المدرسية على ظهورهم . . أعدت قواعد الحساب العشرى بوجه الطفل ، بعضها ارتد من وجه الطفل عائداً إلى ، ومرت الساعة ، وإن كانت بطيئة ، وربحتُ ماركين ونصفاً وخمسين فينيكاً .

حددت للصبيّ واجبه البيتى للمدرس القادم ، شربتُ بقية ، القهوة ودخلت إلى الصلاة . جففت الفتاة سترتى وقبعتى فى المطبخ ، ومنحتنى ابتسامة وهى تعيننى على ارتداء سترتى .

خطوت خارجاً إلى الشارع ، استعدتُ وجه الفتاة الناشف ، طيب الشمائل ، وفكرت : أيمكن أن أطلب منها نقوداً ! ترددتُ لحظة ، قَلْبْتُ ياقة سترتى ، إذ كانت السماء لا تزال تمطر ، وأسرعت إلى موقف السيارات بجوار كنيسة « أحزان مريم السبعة » .

بعد عشر دقائق ، كنت أجلس فى القسم الجنوبى من المدينة ، وفى مطبخ تفوح منه رائحة الخل ، وفتاة شاحبة الوجه ذات عينين واسعتين بنيتين كانت تستظهر قائمة من الكلمات اللاتينية . ولحظةً فتحتُ الباب إلى الغرفة المجاورة أطلّ وجه الفتاة بعينين واسعتين بنيتين : أتعبى نفسك يا صبية ، فأنت تعلمين كم هو عسير إرسالك إلى مدرسة ، والدروس تكلف كثيراً .

الطفلة أجهدت نفسها ، وأنا أجهدتُ نفسى ، وقد مضت الساعة كلها علينا ونحن نهمس لبعضنا بقوائم من الكلمات اللاتينية ، بجمل وقواعد نحوية ، وأنا على يقين بأن كل ذلك بلا جدوى . . فى الثالثة وعشر دقائق

خرجت إلينا المرأة النحيلة من الغرفة المجاورة تضيع برائحة الخل ، ضفرت شعر الطفلة ثم نظرت إلى ، وسألت :

- «هل تعتقد بأنها ستنجح فيها؟ في الاختبار الأخير حصلت على (a.c) وغداً اختبارهم الثانى » .

زررت سترتى ، وأخرجت قبعتى الرطبة من جيبى ، وقلت لها بهدوء :
«سوف تنجح فيها » . ووضعت يدي على ضفيرة الطفلة الذهبية ، وقالت المرأة :

- « ستنجح فيها ، إنها كل ما أملك . . زوجى قُتل في فينستا :

تذكرت في تلك اللحظة صورة محطة القطار القذرة في « فينستا » وهى مَلَأَى بالجرارات الصدئة . . نظرت إلى المرأة واستجمعت هى فجأة شجاعته وقالت ما أرادت أن تقوله كله :

- « هل يضيرك أن تنتظر النقود حتى ... » .

ووافقت حتى قبل أن تكمل جملتها . منحتنى الطفلة ابتسامة .

حين خرجت ، كان المطر قد توقف ، والشمس الآن مشرقة ، وبضعة أوراق صفراء كبيرة تجرفها الريح من الأشجار إلى الأسفلت الرطب .

أردت حقيقةً أن أذهب إلى البيت ، إلى « المجمع السكنى » حيث أعيش شهرى الأخير ، لكنى بقيت أسرعجل إنجاز الأمور ، أودى مهام وأنا أعلم أنها لن تفضى إلى شىء : كان ممكناً أن أطلب من « فاجنر » نقوداً ، وتيسر لى أن أطلب من عاملة آل بيزم أو المرأة التى تضيع برائحة الخل ، وكنت واثقاً أنها سيعطينى شيئاً ، لكنى بدلاً من التوجه إليها ذهبتُ إلى موقف

الترام ، ركبتُ الترامَ رقم (١٦) وتركت نفسي تهتز بين ركابٍ مُبللين حتى «نيكنهايم» وأنا أحس بأن السجق الساخن الذى تناولته بعد الظهر قد بدأ يُصيبني بالغثيان .

فى « نيكنهايم » سرتُ بين شجيرات المتنزه المهمة حتى وصلت إلى « فيلا » « بولكر » ضغطت الجرسَ وأدخلتني خادمته إلى الصالة ، حين دخلتُ غرفته قطع « بولكر » شريطاً من جريدة ليجعل منها مؤشراً فى كتابه ، أطبق كتابه بقوة والتفت إلى بابتسامة باهتة ، هو أيضاً قد شاخ ، لقد عاش سنوات مع هذه المرأة « دورا » ، وصار ما بينهما أثقل عبئاً من أى زواج يراقبُ كُلُّ منهما الآخر بشدة ، جَفَّتْ تعابيرهما ، إنهما يتناديان بـ « حبيبى » و« بوسى » ويتشاجران على النقود وهما متعانقان .

فى عودتها إلى الغرفة ، قَطَعَتْ « دورا » أيضاً شريطاً من الجريدة ، ووضعت مؤشراً فى كتابها ، وَصَبَّتْ لى كوباً من الشاي . . على المائدة بينهما بعضُ الحلوى وعلبة سجائر ودورق شاي .

قال بولكر : « حَسَنَ أَنْ أراك مرة أخرى ، هل من سيجارة ؟ »

أجبتُه : « أجل ، من فضلك » .

دَخْنَا بصمت . . « دورا » جالسة جافية الوجه عني ، ولكما التفت لأنظر إليها اكتسَى وجهها مظهرًا حجريًا يذوب فى ابتسام حلما تلتقى عيناى بعينيها . لم يقل أحدهما كلمة ، ولم أقل . . نَفَضْتُ سيجارتي فجأة ، وقلت وسط ذلك الصمت :

« هل أستطيع اقتراض بعض النقود ، لعل ... »

لكن « بوكلر » قاطعنى بضحكة قائلاً : « إذن تستطيع اقتراض الشيء نفسه الذى نحن دائماً فى حاجة إليه ، يسرنى أن أساعدك ، ولكن النقود كما تعرف ... »

نظرتُ إلى « دورا » وذاب فى الحال مظهرها الحجرى فى ابتسامة لها غضون عميقة حول فمها ، وتبدو أنها تمتص دخان سيجارتها بعمق أكثر من المعتاد .

قلت : « آسف ، ولكنك تعلم أنها . . »

أجاب : « أعلم ، لا حاجة للاعتذار ، كل واحد يمكن أن يجد نفسه فى حرج »

« لن أضيع وقتك » . أجبتُه ونهضت .

قال لى : « أنت لا تضيع وقتنا أبداً » .

وأستطيع أن أقول ، من الحميمة الفياضة فى صوته ، أنه كان يعنى ما يقول « دورا » نهضت أيضاً ، أعادتني مِنْ كَتَفَيَّ ، واستطعت أن أقرأ فى عينيها الخوف من أن أغادر المكان .

أدهشنى أنها كانا فَرَحَيْنِ برؤيتي حقاً . قدمت لى دورا « علبة السجائر ، صببت لى كوباً ثانياً من الشاي . وجلستُ ملقياً قبعتى على مقعد . لكننا بقينا صامتين ، نتبادل بين آونة وأخرى بضع كلمات . ومتى ما نظرت إلى وجه « دورا » الحجرى ذاب فى ابتسامة منها ، على أن أؤكد أنها ابتسامة مخلصه . لأننى حينها نهضت أخيراً وأخذت قبعتى من فوق المقعد ، أدركت أنها كانا خائفين من أن يعودا وحيدين .

إنهما كانا خائفين من الكتب والسجائر والشاي . هما كانا مرعوبين من المساء ، من الضجر الانهائي الذي جلباه على نفسيهما ، والذي هو حصيلة زواجهما الممل .

بعد نصف ساعة كنتُ واقفاً في قسم آخر من المدينة ، عند باب زميل مدرسة قديم ويدي تضغط الجرس . لم أره منذ أكثر من سنة ، والآن ، وأنا أزيح الستار قليلاً وراء النافذة الصغيرة في الباب الأمامي رأيتُ ذلك اليأس على وجهه الممتلئ ، كثير اللحم . فتح الباب ، وقد تهيأ له وقت أثناء ذلك ليرتدى وجهاً آخر ، وإذا نحن نسير معاً في الممر ، وَصَلَ إلَيَّ البخار المتصاعد من غُرفة الحمام ، وصوت يقول :

- « من ؟ »

جلستُ معه نصف ساعة في الغرفة ذات أثاث ضارب إلى الخضرة يضوع برائحة « الفتالين » . تحدثنا عن هذا وذاك ، دَخْنَا ، وحين بدأ يستذكر أشياء عن المدرسة ، توهج وجهه قليلاً ، في حين أدركني الضجر ، ومع دخان سيجارتي ، نفخت طلباً في وجهه :

- « هي يمكنك إقراضى بعض النقود ؟ »

لم يدهشه ذلك ، لكنه بدأ يتحدث عن الدفع للإذاعة ، وخزانات المطبخ ، والأريكة ، وعن سترة شتوية لزوجته ، ثم مُغَيَّرَ الموضوع ليبدأ الكلام عن المدرس مرة أخرى . أصغيت إليه وانتابني شعور غريب ، كأنه يتحدث عن شيء حدث قبل ألف سنة . صِرْنَا في حديث غامض مع البواب ، نرمى إسفنجات على السبورة ، رأيتنا ندخن في المرافق ، كما لو أن

ذلك في عصور ما قبل التاريخ . كان ذلك غريباً جداً وبعيداً ، بحيث
أرعبني .

فنهضت قائلاً : « آسف ... » واستدرت لأغادرهم .

تجهّمت تعابير وجهه مرة أخرى ونحن نمشي عائدين في الممر ، ومرة
أخرى انطلق زعيق زوجته من داخل الحمام تطلب شيئاً لم أميّزه ، وردّ هو
على الصياح بشيء مثل :

« اقطعها . . هل تستطيعين ؟ »

وأغلقتُ الباب ورائي . وحين نظرتُ إلى الوراء من بين السلام المتسخة
تمكنت من رؤيته يزبح الستار من النافذة الصغيرة ، ويراقبني وأنا أغادر
المكان .

سرتُ ببطء في البلدة . وبدأت السماء تمطر مرة أخرى بلطف . . هنالك
فاحت رائحة التفسخ والرطوبة ، وقد أوقدت المصابيح الزيتية تواء . في نُزُلٍ
في الطريق . تناولتُ « شنابن » ، ولاحظتُ رجلاً واقفاً عند صندوق
الموسيقى ، ظل يلقي بقطع نقدية ليصغي إلى نغم يودّ سماعه . نفثتُ دخان
سيجارتني عبر المنضدة ، حدقتُ بالوجه الجليل لربة النُّزُلِ ، التي نظرت إليّ
كواحد ملعون ، دفعتُ ثمن شرابي وخرجتُ إلى الطريق .

من أكوام ركام البنايات المقصوفة بالقنابل يتحدّر ماء المطر إلى جانب
الممشى في جداول طينية مُرَقَّشة باللّوئين : الأصفر والبني . وبينما أسير تحت
السقالات ، كانت تتساقط على سترتي منها قطرات طباشيرية .

جلستُ في كنيسة « الدّمنيكان » وحاولت أن أصلي ، كانت الكنيسة
مظلمة ، ونقاط صغيرة من رجال ونساء وأطفال يقفون في منطقة الاعتراف .

وفي مقدمة المذبح شمعتان تتقدان . كان المصباح الأحمر الثابت يتوهج مثلما كانت المصابيح الصغيرة في منطقة الاعتراف . شعرتُ بالبرد ، فقد بقيت حوالى ساعة في الكنيسة ، سمعتُ الهمهمات الخفيفة للمعترفين ، راقبتُ الناس يتحركون إلى الأمام حينما يقتحمهم أحد ليدخل إلى صحن الكنيسة ، مغطياً وجهه بيديه . مرةً رأيتُ الملفات الحمر المتوهجة للمسخن الكهربائي ، كان ذلك حين فتح أحد القساوسة باب غرفة الاعتراف ، ونظر إلى ماحوله ، ليرى كمًا من الناس لا يزالون ينتظرون .

بدا عليه أنه أُحبطَ من رؤية ذلك العدد الكبير ، أكثر من دسته من الناس ينتظرون . عاد ودخل إلى مكان الاعتراف . يمكننى سماع المسخن الكهربائي يُطفأ ، وتتصاعد ثانية همهمات المعترفين . بدت لى مرة أخرى وجوه كل أولئك الذين ذهبت لأراهم بعد ظهر ذلك اليوم ، ابتداءً بالفتاة التى أعطتنى قطعة الشريط اللصق فى المصرف ، إلى المرأة ذات الوجه الأحمر القاتم فى كشك الأكلات الخفيفة ، ووجهى وفمى المغفور ، وفُتات السجق يتساقط فى حفرتة والقبة « حائلة اللون تعلو وجهى . . رأيت وجه «فاجنر» ، والوجه اللطيف الناشف لخدمة بيزم . والصغير « الفونس بيزم » الذى همست له بقواعد الحساب ، والفتاة فى المطبخ التى تفوح منها رائحة الخل ، ورأيت محطة القطار فى فينستا ، قدرة ملأى بالجرارات الصدئة ، تلك المحطة التى قُتِلَ فيها أبوها ، رأيت أمها بفمها الدقيق وعينيها السوداوين الواسعتين . رأيت « بوكلر » زميل الدراسة ، والوجه الآخر للرجل الذى كان واقفاً عند صندوق الموسيقى فى النزل .

سَرى إلى البرد ، وقفتُ ، وأخذت بعضاً من الماء المقدس من وعاء فى الممر ، رسمت الصليب ، ومضيت خارجاً إلى شارع « بونن » ، وحين

دخلت « حانة بتزرنر » وجلست أمام مائدة صغيرة قرب لعبة الكرة أدركتُ
أنى طيلة بعد ظهر ذلك النهار ، ومن اللحظة التى أخرجت فيها العشر
الماركات من الظرف ، ما فكرت بشيء غير « حانة بتزرنر » الصغيرة .

ألقيت بقبعتى على المشجب وناديت :

ـ « شنابز كبير ، من فضلك » .

وزررتُ سترتى ، ورحتُ أخرج بضع قطع من جيبي . ألقيتُ قطعة فى
شق لعبة الكرة ، وضغطت الزر محرّكاً الكرات الفضية الصغيرة فى مجراها ،
ومستخدماً يدي اليمنى فى رفع الشنابز الذى جلبه لى بتزرنر ، قاذفاً الكرة إلى
اللوح المنحدر ، وأصغيت إلى النغمة التى تطلقها الكرة وهى تلامس
المصدّات . وحين بحثتُ بجديّة فى جيبي وجدتُ قطعة ذات خمسة ماركات
كدت أنساها : لقد أعطانى إياها الصديق الذى أستضيفنى فى غرفة
البدالة .

انحنيت على اللعبة أراقب دحرجة الكرات الفضية وأصغى إلى نغماتها .
وسمتعت « بتزرنر » يقول لرجل آخر فى البار قريباً جداً منه :

ـ « سيظل هناك حتى يتخلص من آخر بنس لديه » .

عددتُ النقود التى أرسلها لى « فريد » مرة ثانية وثالثة : أوراق مصرفية
قائمة الخضرة ، خفيفة الخضرة وزرقاء ، مطبوعة عليها رؤوس فلاحات
متوّجات بسنابل القمح ، ونساء مُفعمات بالصحة يرمزن إلى التجارة أو
الزراعة ، ووراء جُبّة بطل ما يختفى رجل يمسك عجلة ، لعله يمثل
الحرف ، إلى جانبه عذراء رثة تضم أنموذج المصرف إلى صدرها ، وعند
قدميها لفّة ورق وآلات معمارية . فى وسط الورقة المصرفية الخضراء امرأة غير

جذابة ، تمسك وسط ميزان يمينها ، اجتازتني النظرة الآتية من عينيها الجامدتين . أفكار قبيحة توطر هذه الأوراق المصرفية الثمينة ، الزوايا مطبوعة عليها أرقام تمثل قيمتها . أوراق بلوط وسنابل قمح ، أوراق عنب ومطارق متقاطعة منقوشة على قطع النقود المعدنية . كل قطعة تحمل على ظهرها النسر، رمز الإنذار ، بجناحيه الممتدين ، يكاد يطير ويهجم منقضاً .

كان الأطفال يراقبوننى وأنا أفرز الأوراق المصرفية بين يدي ، أصففها . وأجمع القطع المعدنية : الدخل الشهري لزوجى الذى هو موظف بدالة فى إدارة أبرشية : ثلاثمائة وعشرون ماركاً وثلاثة وثمانون فيكاً . عزلت ورقة مصرفية للإيجار ، واحدة للكهرباء والغاز ، وواحدة للتأمين الصحى ، حسبت النقود التى أنا مدينة بها للخباز ، وحسبت ماتبقى : مائتان وأربعون ماركاً . فريد قدم ورقة مصرفية قائلاً : إنه يحتفظ بعشرة ماركات سوف يعيدها غداً . سيشرب بها .

الأطفال يراقبوننى . وجوههم وديعة هادئة . لكنى أحمل مفاجأة لهم : سوف يسمح لهم اليوم باللعب فى الممر . فالسيدان فرانك غادر المكان بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع ، ولحضور اجتماع عصبة النساء الكاثوليكيات وعائلة « سيلبستانين » التى تعيش تحت سوف تغادر المكان لمدة أسبوعين بمناسبة العطلة ، أما بالنسبة لآل « هوبفز » الذين استأجروا الغرفة المجاورة لنا ، والتى لا يفصلها عن غرفتنا سوى لوح « البلاستر » فلا حاجة للاستئذان منهم . لهذا سيسمح للأولاد باللعب فى الممر ، وذلك امتياز لا يستهان به .

ـ « هل النقود من والدنا ؟ » .

أجبتهم : « نعم »

- « أهو لا يزال مريضاً ؟ » .

- « نعم ، يمكنكم اللعب في الممر اليوم ، ولكن لا تكسروا شيئاً ،
وانتبهوا لورق الجدران » .

وغمرنى ابتهاج ، إذ رأيت وجوههم تتألق ولازتياحى منهم وأنا أبدأ أعمال
السبت .

لا تزال رائحة الأطعمة المختزنة عالقة بالممر ، وقد ملأت السيدة فرانك
حتى الآن ثلاثمائة من جرارها ، رائحة الخل الساخن ، التى تكفى وحدها
لإثارة صفراء فريد ، ورائحة الفاكهة والخضار المطبوخة ، الأبواب مقفلة ،
وقبعة السيد فرانك القديمة هى كل ما تبقى على حمالة المعاطف ، يلبسها
حينما ينزل إلى السرداب . الورق الجديد وصل إلى حد بابنا ، والصبغ الجديد
إلى منتصف نافذة الباب ، راسماً المدخل إلى شقتنا : هى غرفة واحدة أقمنا
فيها حاجزاً خشبياً وفترنا به مهجعاً ينام فيه طفلنا ، ونخزن فيه بعض
سلعنا . آل فرانك - من ناحية أخرى - لهم أربع غرف : مطبخ ، غرفة
صالون ، غرفة نوم ، وغرفة مكتب تستقبل فيه السيدة فرانك روادها . لا
أعرف عدد أفراد الجمعية ، ولا عدد مجلس الإدارة ، فلم أنتم لنوادياها ، كل
الذى أعرفه أن سلطات الكنيسة قد أقرت بحاجتها لهذه الغرفة ، الغرفة
التي ربما لا تسعدنا ، ولكنها تضم إمكانية استمرار حياتنا الزوجية فيها .

لا تزال السيدة « فرانك » امرأة جميلة وهى فى الستين ، الألق الغريب
فى عينيها تسحر به أى إنسان ، ويملائنى أنا بالخوف هاتان العينان
السوداوان الصلبتان ، شعرها المصفف بعناية والمصبوغ ببراعة ، صوتها

العميق الذى يترنم فليلاً ، الذى يصبح عالياً فقط عندما تحدثنى ، طراز ثيابها وحقيقة أنها تستقبل أعضاء الجمعية المقدسة كل صباح ، وتقبل خاتم المطران كل شهر ، وهو يستقبل نسوة الأبرشية البارزات - كل هذه الأشياء تجلعهما شخصاً لا أمل لى من محاربته . نحن نعلم ذلك من تجربتنا ، فقد حاولنا أن نواجهها سنوياً ، وقد استسلمنا الآن .

الأطفال يلعبون فى الممر : اعتادوا الهدوء فهم الآن ، وإن سُمحَ لهم ، لا يحدثون صخباً . يندر أن أسمعهم : لقد ربطوا صناديق من الورق المقوى فارغة ليصنعوا منها قطاراً طوله طول الممر ، وهو الآن يتحرك بحرص إلى الوراء وإلى الأمام . لقد شادوا محطات مملوءة علماً فارغة وعصياً ، وأنا متأكدة من أنهم سيظلون منشغلين بهذا القطار حتى وقت الغداء . الرضيع لا يزال نائماً .

أحصبت النقود مرة أخرى . هذه الأوراق المصرفية الثمينة الحقيمة ، ترعبنى رائحتها الثقيلة ذات العفن الخاص : فى مخيلتى ، أضفت لمجموعها عشرة ماركات اقترضها فريد . سوف يصرفها على الشرب ، فقد غادرنا قبل شهرين ، وهو يقضى ليلته مع أصدقاء فى هذا المأوى أو ذاك ، لم يعد يحتمل الأحوال الصعبة فى شقتنا ، وحضور السيدة فرانك وآل هوبفز المرعبين جوارنا . فى هذا الوقت قدمنا طلباً للجنة الإسكان التى كانت تنشئ عمارة متطورة فى طرف المدينة ، رفضوا طلبنا ، لأن فريد يسكر ، ولأن الاستشهاد الذى زودنى به القس لم يكن مشجعاً . إنه مستاء من عدم مشاركتى فى الأبرشية . على كل حال ، رئيسة لجنة الإسكان هى السيدة فرانك ، التى نتيجة لهذا القرار ، رسخت سمعتها امرأة صلبة ضد أى مؤثر،

فهى إذا ما ضمنت لنا كسب الشقة الجديدة فستخلو غرفتنا ، التى تفضل أن تجعلها غرفة طعام لها ، وهكذا هى ردتنا إلى ما يضيرها .

أما أنا فقد استولى على رعب يتعذر وصفه ، فأن أكون هدفاً لمثل تلك الكراهة ، ذلك أمرٌ يملأنى رعباً . وانكملت من المشاركة فى جسد المسيح ، فكان نتيجة ذلك أن صارت السيدة فرانك تزداد تهديداً لنا يوماً بعد يوم . ألق عينيها صار أقسى وأقسى ، وأنا صرت أخاف سماع القداس المقدس ، وإن كانت وداعة القداسات واحدة من أواخر مباحجى ، فحيث أصلى أتحسس السلام اللانهائى الذى يبعثه حضور الإله فى المكان ، لكن السيدة فرانك هناك تظهر أنواعاً من المشاعر تخيفنى أكثر مما تخيفنى كراهيتها ، ففي عيد الميلاد جاءت تدعونى للاشتراك فى احتفال صغير فى غرفة الضيوف ، ورأيتنا نسير فى الممر كما فى أعماق مرآة : أولاً كليمنز وكارلا ، ثم فريد ، وأنا أتبعهم حاملة الرضيع .

كنا نسير فى أعماق مرآة ، ورأيتنا ظهراً هنالك فقراء .

فى غرفة الضيوف التى ظلت على حالها ثلاثين سنة . شعرت كأنى غريبة ، كأنى فى عالم آخر ، سَمَكَةٌ خارج الماء : فليس لنا ما نفعله بين أثاث كهذا ، بين عدة لوحاتٍ ، شعرنا بأن علينا ألا نجلس لموائد مغطاة بالدمقس ، وزينات شجرة الميلاد التى ادخرتها السيدة فرانك من زمن قبل الحرب ، أجفلت قلبى رعباً تلك الزينات الملتصقات - الزرق والذهبية - ذلك الشعر الملائكى ، والأوجه الزجاجية للملائكة الدُّمى ، ويسوع الطفل مصنوع من الصابون وموضوع فى مهد من خشب الورد ، مريم ويوسف مصنوعان من طين ، مصبوغ وملون ، يشعان بعدوبة تحت لفافة جبس فرنسية تعلن : « السلام للبشرية » - هذا الأثاث الذى يضيع من أجله كل

أسبوع ولمدة ثمانى ساعات عرق امرأة عضو فى اتحاد الأمهات ، يذفع لها خمسين فينيكاً للساعة . . كل هذه النظافة العقيم تفرعننى . السيد فرانك يجلس فى زاوية يدخن غليونه . هيكله العظمى صار يمتلىء ، وأنا أسمع خطوه الوطىء وهو يصعد السلم ، مشيته الثقيلة ونفسه المجهدة ، يجتاز غرفتى ويدخل أعماق الممر .

الأطفال خائفون من ذلك الأثاث الذى لم يعتادوا رؤيته ، فهم خجلون جداً منه ، وصامتون صمتاً أبكائى . صبحون من حلوى أُعدت لكل منهم ، وكانت هناك هدايا : جوارب ووصفٌ خنازير من طين ، هى منذ ثلاثين سنة من معالم عيد الميلاد عند عائلة فرانك .

كان فريد مُقَطَّبَ الجبين ، يبدو أنه آسفٌ على قبول الدعوة كان واقفاً متكئاً على قضبان النافذة . . سحب سيجارةً من جيبه بلطف ثم أولعها .

السيدة فرانك ملأت « ملأت الأقداح بالنيذ ودفعت للأطفال «كاسات» من الخزف ملأى بعصير الليمون . الكاسات الخزفية مرسومة عليها مشاهد حكاية خرافية عن الذئب والمعيذ السبع الصغيرات .

شربنا . أفرغ فريد كأسه برشفة واحدة ، رفعه متأملاً بيدٍ واحدة وقد اتضح عليه ازدراؤه لمذاق النيذ . فى لحظات كتلك ، أقدره ، لأن وجهه يعبر عن مشاعره ، فلا يحتاج إلى كلمات . شريحتان من لحم الخنزير وقدرح من النيذ وخمس دقائق من كلام العواطف ، ذلك لا يخفى حقيقة أن شقتنا صغيرة جداً . هذه الزيارة الفاضحة انتهت بوداع فاتر . أكاد أقرأ فى عيني السيدة فرانك كل ما ستقوله لأصدقائها عنها : فوق ما ابتلوا به من شقاء ولعنات عيش لا تحصى فقد أضافوا لأنفسهم الجمود والفظاظة . وتروح تضيف لنفسها طبقتين أخريين فوق إكليل استشهادها متعدد الطبقات .

أما السيد فرانك ، فنادرًا ما يقول شيئاً ، لكنه حين يعلم أن زوجته خارج البيت ، يحوم حول بابنا ويضع علبة « شكولاته » على المنضدة ، وأحياناً أسمعهم يكلم الأطفال في الممر . هو يُوقفهم ويهمهم ببضع كلمات . ويخبرني الأطفال بأنه يربّت رؤوسهم ويقول لهم « كلمات حلوة » .

السيدة فرانك ليست كذلك ، فهي كثيرة الحركة ، ومهذّارة ، وخلو من الرقة . انحدرت من عائلة تاجرة قديمة في المدينة ، وظلت تغيّر مواد تجارتها من جيل إلى جيل ، وتتقدم إلى السلع الأعلى : فمن الزيت ، إلى الملح ، إلى الدقيق ، إلى السمك ، والقماش ، ومنها تقدموا نحو النيذ ، ثم مضوا إلى السياسة ، وقد غطسوا من هناك إلى الحكومة الفعلية ، وأنا أظن أحياناً أنهم الآن يتاجرون بأعلى السلع قيمة : الدين .

في المناسبات النوادر ، تبدى السيدة فرانك بعض اللطف : أولها ، حين تتحدث عن النقود ، فهي تلفظ الكلمة برقة تفزعني ، تقوها بالطريقة التي يلفظ بها الناس كلمات : حياة ، حب ، إله ، بتهذيب وبنبرة خشية في أصواتهم . الألق في عينيها يُعتم قليلاً وقسمات وجهها تصير أفتى حين تتحدث عن الذهب وعن جرار مقتنياتها ، وكلاهما كنز ، فلا تسمح بانتهاكهما . يستولى علىّ الخوف أحياناً حينما أكون في السرداب لآتي منه بفحم أو بطاطا ، فيحدث أحياناً أن أسمعها تفرغ الجرار بغية حساب مدّخراتها فيها : تهمهم في الأرقام بنغمة خفيضة مثل نغمة طقيس ديني . ويذكرني صوتها بصوت راهبة تصلي - وغالباً ما أترك مكيتي هاربة إلى أعلى لأحتضن أطفالاً ، أحس أن علىّ حمايتهم من شيء ما . ويحدّق الأطفال فيّ « عينا ولدي الذي بدأ يترعرع ، وعينا ابنتي اللطيفتان السوداوان . إنهما يحدقان فيّ ، يفهمان ولا يفهمان - ويرددان وهما يشاركانني الأدعية التي أشرع

بتدريدها . رتابة الابتهاال التى لا تُملُّ ، وعبارات الصلاة الربانية تتهاوى
واهنةً من شفاهنا ...

لكنها الساعة الثالثة الآن ، وقد ارتحلت عنا مخاوف الأحد ، فقد تفجر
الضجيج من الساحة الخلفية ، ويمكننى سماع أصوات تعلن عن عصر
سبت بهيج ، وبدأ قلبى بالتجمد داخل جسدى ، مرة أخرى حسبتُ
النقود، نظرت إلى الصور الميتة على الأوراق النقدية ، وأخيراً قررت الشروع
بصرفها .

الأطفال يضحكون خارجاً فى الممر ، استيقظ الرضيع ، وعلى أن أمضى
إلى أشغالى ، وحين رفعتُ بصرى من المنضدة التى كنت محنية عليها ، حيث
كانت تطوّف أفكارى ، وقع نظرى على جدران غرفتنا التى علقت عليها
صور مطبوعة رخيصة : وجوه رينوار الحلوة - بدت إلى غريبة لا أستطيع أن
أفهم كيف كنت أحبها قبل نصف ساعة . أنزلت الصور ، مزقتها أنصافاً
بيدين متوترتين ، ورميت المزق فى السلة التى سارعت بإنزالها . مر بصرى
على جدراننا ، لم تلمس عيناى رحمة إلا فى الصليب فوق الباب ، وفى رسم
لرسام لا أعرفه ، حركة خطوطه وألوانه المتناثرة لم تعن لى شيئاً لكن ما
أكتشفته فجأة هو أن أستطيع أن التمس شيئاً فى تلك الرسوم دون أن
أفهمها .

حين غادرت المحطة ، ابتداءً الفجر ينبلج ، والشوارع لا تزال خالية .
هرعوا حذرين يجتازون مجموعة من البنايات التى أصلحت واجهاتها
بلطخات غير منتظمة من الجص . كانت باردة ، وعدد من سائقى
التاكسى واقفون يرتجفون فى ساحة المحطة ، أيديهم مدفونة عميقاً فى جيوب
معاطفهم . وللحظة استدار إلى أولئك السائقون الأربعة أو الخمسة

بوجوههم الشاحبة تحت قبعاتهم مستدقة الرؤوس ، تحركوا مثل رجل واحد ، ممثل دُمى على خيط ، في لحظة واحدة ، ثم تراجعت الوجوه إلى موضعها الأولى ، استداروا إلى باب المغادرة في المحطة .

ليس من أحد ، في الشوارع في تلك الساعة ، وحين استدرتُ بثقلٍ حوالى ، رأيتُ عقربَ ساعة المحطة الكبيرة يزحف إلى التاسعة : إنها السادسة إلا ربعاً . انعطفتُ في الشارع متجهاً إلى اليمين متجاوزاً إحدى البنايات ، أنظر بتمعن في واجهات المخازن : في مكانٍ ما ، مقهى أو نُزلٍ لزامٌ عليه أن يظل مفتوحاً ، أو أنه أحد تلك الأكشاك التى - برغم كراحتى لها - أفضلها على غرف الانتظار فقهوتها في مثل هذه الساعة فائرة ، وحساء لحمها البقرى المسخن كثيراً ما تفوح له رائحة المباني المكتظة . . رفعتُ «ياقة» سترتى ، طويتُ زواياها على بعضها ، أزحت بالفرشاة الأوساخ العالقة في بنطلونى ومعطفى .

شربت في الليلة الماضية أكثر مما اعتدت ، وقرابة الواحدة صباحاً ذهبت إلى المحطة لأرى «ماكس» . الذى «يمنحنى» أحياناً مكاناً أنام فيه . ماكس يعمل في وزن الحقائق ، هنالك مدفأة ماء ساخن كبيرة مثبتة وسط إطار خشبى ، وفي الغرفة أيضاً مصطبة ثابتة . لهذا يقصده العمال من المستوى الأدنى للاستراحة عنده : الحمالون ، العاملون في غرف الرزم ، وعاملو المصعد . الإطار الخشبى يترك لى ملجأً لكى أزحف وراءه وأنزل إلى الأرضية حيث يتوفر مكان أوسع ، مكان مظلم ودافئ أشعر بأمان حين أنام فيه ، فقلبى هنالك مطمئن ، والخمر تجرى ساخنة في عروقى ، وضجيج القطارات يدخل ويغادر المحطة ، بطاقات الحقائق تلطم رأسى مع حفيف أصوات المصاعد ، أصواتها في الظلام تجعله أكثر ظلمة - تخدرنى بسرعة

فأنام ، أيضاً ، أنا أبكى هناك أحياناً حينما أفكر في كيت والأطفال . أبكى وأعلم أن دموع السكران لا حساب لها ولا وزن - وأن هنالك شيئاً أدعوه وخزات ضمير ، لكنها وخزات فحسب . اعتدت الشرب حتى قبل الحرب ، لكن الناس - على ما يبدو - قد نسوا ذلك ، فسلوكى المنحط هذا يُنظر له باعتبار خاص ، فيمكنهم أن يقولون عني بأني قاتل في الحرب .

نظفت نفسى قدر استطاعتي ، وأنا أنظر في المرآة المعلقة قرب نافذة المقهى الصغيرة ، وقد عكست المرآة هيئتي الرثة وأنا في ذلك الفراغ مرة ، وأخرى مثل ظل خيالي أجوف ، وحولى الكيك ذو الكريم والشكولاتة التي تلتمع على طول الخط إلى جانبي . هكذا رأيت نفسى هناك ، شكلاً ضئيلاً ضائعاً يتدحرج بين المعجنات ، يحاول مضطرباً أن يصفف شعره ويعدل «بنطلونه» .

مررت ببائع سجائر ، ومحلات بيع زهور ، ومخازن ملابس « المانيكانات » فيها يحدقن في وجهى بتفاؤل زائف . تفرّج الشارع إلى اليمين ، فصار طريقى كله أكواخاً خشبية . كانت في المنعطف لافتة ضخمة تقول :

مرحباً بالدوائيين ! .

أكواخ شيّدت من كسر ، تبرز من بين واجهات مدمّرة ، محروقة - لكن تلك الأكواخ كانت مخازن سجائر ، ومخازن ألبسة ، ومحلات بيع صحف . وحين وصلت أخيراً إلى محل الأكلات الخفيفة ، كان ذلك المحل مغلقاً .

حركت قبضة الباب ، استدرت فرأيت في الأخير ضوءاً ، عبرت الشارع تاليه ، فبدا أن ذلك الضوء يأتى من كنيسة ، وكانت نافذتها الغوطية العالية سيئة الترميم .

حين توغلت إلى وسط مبنى من حجر ، لاحت لي نافذة صغيرة صفراء ، واضح أنها الغرفة حمام ، زجاجاتها الصغيرة الأربع أضيئت بضوء أصفر شاحب توقفت هناك وتفكرت لحظة ربما لا تكون ، ربما كان هنالك دفء . خطوطٌ إليها خطوات متردة ، بدا الباب سالماً . . باب مغلف بالجلد ، دافئ داخل الكنيسة ، حركت قُبعتي قليلاً زحفت ببطء إلى الأمام بين المقاعد الطويلة ، فرأيت شموعاً تشتعل في جناح الكنيسة المرمم . مضيتُ في سيرى ، اكتشفتُ أن البرد هناك أشد مما هو في الخارج . كان هواءً باردًا ، وتيارات هواء تأتي من كل الجوانب ، لم ترمم جدران بعض الأمكنة بالحجارة ، بل بالواح « فايبر » راحت تنفصل عنها طبقات ، وتقف أغلفة عليها . في بعض ألواح « الفايبر » ثقب تنضح ماءً . توقفتُ مترددًا إلى جانب عمود .

كان قس شاب ، بشابه البيضاء واقفٌ بين نافذتين عند مذبح حجرى ، بين شمعتين ، كان يصلى ويداه مرفوعتان . ومع أنى رأيت ظهر القس فحسب ، فقد كنت متأكدًا أنه يشعر بالبرد . بدا لبرهة كما لو أن القس وحيد مع كتاب الترتيل المفتوح . إن يديه الشاحبتين مرفوعتان وظهره مرتجف ، لكننى ميّزتُ خلف الشموع المرتعشة في الأعلى ، رأس فتاة محنياً بعيدًا إلى الأمام ، حتى أن شعرها المسترسل انقسم على ظهرها جديلتين . إلى جانبها انحنى صبي يتلفت من جهة إلى أخرى ، وبالرغم من عتامة الضوء تمكنت من أن أميز في هيئة وجهه أجفاناً منتفخة وفمً أبله فاغرًا ، أن أرى الأجفان المحمرة والوجنات المنفوخة والفم البارز الغريب . في لحظات رؤيتى تلك ، كان على وجه الطفل تعبير احتقار فيه دهشة وتحدّ.

التفت القس ، وجهه فلاح شاحب مضنى ، قبل أن يُخفض يديه

المرفوعتين ، انزلت عيناه إلى العمود ، حيث أجلس ، فبسطها ثانية ، وهمهم بكلمات . بعدها استدار ، انحنى على المذبح الحجري ، وفجأة التوى حوله لحد ما ، وبورع يكاد يكون مضحكاً منح بركاته للفتاة والولد الأبله .

غريب أنى لم أشعر بأننى داخل الكنيسة ، وإن كنتُ فعلاً فيها . استدار القس إلى المذبح ، ارتدى قلنسوته ، حمل كأس القربان وأطفأ الشمعة التى على يمينه . مشى بتؤدة إلى المذبح الرئيسى ، ثنى ركبتيه قليلاً واختفى فى اكتئاب الكنيسة . لم أعد أراه ، وتعذر على سماع صرير مفاصل الباب .

بعد دقيقة ، رأيت الفتاة فى الضوء : وجه لطيف وورعٌ بسيط . ركعت ، ثم عجلت خطاها لتطفىء الشمعة الأخرى . وقفت فى ذلك الضوء الأصفر فاستطعت أن أراها ، كانت جميلة حقاً ، رقيقة وطويلة وذات ملامح ناعمة ، لاحق فى شد شفتيها حينما تنفخ على الشمعة ، ثم هبط الظلام عليها وعلى الولد . ولم أرها بعد ذلك إلا بعد أن لاحت ثانية فى الضوء الرمادى ، فى النافذة المدمرة فوق . مرةً أخرى أثرت فى الطريقة التى مسكت بها رأسها ، أمالت عنقها وهى تمرّ بى ، منحنتى نظرةً هادئةً ومتطلعة وهى تغادر الكنيسة جميلة كانت ، وتبعتها عند الباب ركعت ثانية وفتحت الباب وسحبت الأبله وراءها .

تبعتها . سارت فى الاتجاه المعاكس ، باتجاه المحطة ، وخلال شارع مهجور ، لا أكواخ تحده ولا ركام . لاحظتها تنظر إلى وراء عدة مرات ، كانت رقيقة ، نحيفة إلى حد ما ، بدت لا تزيد على الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . وما اضطربت مشيتها وهى تجرّ الولد على الطريق .

لا تزال هناك بنايات ، وصادف أن رأيت كوخاً ، هنالك خطوط ترام تتجمع في ذلك المكان ، ورأيتُ قسماً من مدينة لم أزره من قبل . لابد من أنه محطة ترام . أسمع صرير العجلات وراء حائط أحمر سيء الترميم . أرى في ذلك الشفق إضاءاتٍ تعشى البصر ، تبعثها ماكينات اللحام ، وأسمع هسيس أسطوانات الأوكسجين .

حدقت طويلاً في ذلك الجدار حتى فاتنى أن الفتاة قد توقفت ، فأنا الآن جوارها تماماً ، ثم رأيتها تقف أمام أحد الأكواخ ، تبحث في حزمة مفاتيح . كان أبله ينظر إلى المدى الرمادي للسماء . مرة أخرى نظرت الفتاة إلى الوراء ، إلى ، وترددت لحظة وأنا أجتازها حتى رأيت أن الكوخ الذي بدأت تفتح بابه ، هو مطعم أكالات خفيفة .

فُتِحَ الباب ، وفي الداخل في الظلام الرمادي أرى مقاعد ومناضد ، ولمعانا كامداً لماكينة قهوة ، وتأتى من خلال الباب رائحة فطائر البطاطا المحلاة . استطعت أن أرى في العتمة ، وخلف زجاج ملوث كرات من اللحم مكومة فوق طبقين بعض لحم الضلوع البارد ، ودورقاً كبيراً أخضر ممتلئاً خياراً غاطساً في الخل .

حين توقفت الفتاة ، نظرت إلى ، تحركت مغاليق الباب الحديدية وحدقت أنا أيضاً في عينيها .

قلت : « معذرة ، هل تفتحين المحل ؟ » .

أجابتنى : « نعم »

ومشت عنى حاملة آخر الأقفال إلى الداخل ، وسمعتها تنزله . ومع أنها رفعت الأقفال ، فقد عادت ثانية ونظرت إلى ، فسألتها :

« أيجق لى الدخول الآن ؟ »

قالت : « طبعاً ، لكنها لا تزال باردة فى الداخل »

« آه ، لا يهمنى ذلك » أجبتها ودخلت .

كانت الرائحة فى الداخل لا تُطاق ، أخرجت سجائرى وأشعلت واحدة ، فتحت الكهرباء ، فأدهشنى كم كان كل شىء نظيفاً فى الضوء .

قالت : « جو مضحك فى سبتمبر . فعند الظهر ستكون الأجواء حارة مرة أخرى ، لكنها لأن باردة جداً .

أجبتها : « أجل مضحك ، إن أجواء الصباح باردة » .

قال : « خلال ثانية واحدة سأوقد النار »

كان صوتها واضحاً ، رفيعاً بعض الشىء ، ولاحظت أنها متحيرة .

هزرت رأسى قليلاً ، تطلعت إلى الحائط عن المنضدة ، وتطلعت داخل الغرفة : تتكون الجدران من ألواح خشب عارية ، مغطاة بإعلانات سجائر ملونة ، وهناك رجال مهذبون بسوالمف رمادية يقدمون علبة سجائر لسيدات يرتدين فساتين واسعة الفتحات ، يتسمن بإغراء ويحملن فى اليد الأخرى زجاجة « شمبانيا » - رعاة بقر على ظهور جياد ، ملامح شر على وجوههم ، يد تمسك اللجام ، وأخرى تمسك السجائر ، يسوقون سحابة دخان زرقاء حجمها غير عادى ، فهى تمتد مثل لافتة حريرية إلى أفق المرج .

الولد الأبله جاثم قرب الموقد ، ينشج قليلاً من البرد . فى فمه مصاصة ، وفى يده عود خشبى ، يمتص بجنون قطعة السكر الحمراء المزوقة التى عليه ، وخطان من السائل ربيعان يجريا على جانبيه فمه .

قالت الفتاة برقة وهي تنحني بعطف عليه وتمسح زوايا فمه بمنديلها :
«برنارد» .

ثم رفعت الغطاء عن الموقد وأمسكت بجريدة رمتها ، و وضعت بعض
الفحم في أعلى الموقد ثم حملت عود ثقاب مشتعل إلى الموقد الصدىء .

قالت لى : « اجلس ، هل تود؟ »

قلت : « شكراً » ولم أجلس .

كنت أشعر بالبرد وأردت أن أظل واقفاً قريباً من الموقد ، وإن اتجه نظرى
إلى الولد الأبله ومصدر الروائح الطعام الرخيص ، كما أن فكرة قهوة وخبز
وزبد ملأتنى بدفء مبهج . ورحت أنظر إلى أسفل عنق الفتاة الجليدى ،
إلى الجوارب الخشنة على ساقها ، وانتبهت لحركات رأسها اللطيفة حينما
انحنى لتتابع سير النار .

فى البداية كان هنالك شىء من الدخان ، ثم بدأت أسمع قرقرة ،
وابتداً اللهب بهدوء وخفت آخر الدخان .

كأت طيلة هذه المدة تحرك النار فى فوهة الموقد . أسمع حركات
أصابعها ، وأحياناً تحنى أكثر لتنفخ فيه ، وكلما فعلت مثل ذلك رأيت ظاهر
عنقها .

فجأة نهضت على قدميها ، ابتسمت لى ونظرت إلى ما وراء المنضدة
استدارت إلى الخنفيه ، غسلت يديها ، وأوصلت الكهرباء لمكنة القهوة .
تقدمت إلى الموقد أكثر ، رفعت الغطاء ، فرأيت اللهب يوقد قطع
الفحم . بدأ الدفء فعلاً ومكنة القهوة ابتدأت عملها ، وأحسست بشهيتى
تزداد . وقت الشرب أحس بشهية كبيرة للقهوة والإفطار - لكننى نظرت بقرف

إلى السجق البارد وجلده المتغضن فى إناء السلطة . رفعت الفتاة صندوقاً معدنياً لِلْقَنَانِي الفارغة وخرجت ، ملأنى وجودى وحيداً مع الولد الأبله باستياء غريب . الطفل أهملنى تماماً ، أثارت أعصابى طريقته وهو جاثم هناك يمتص بارتياح وشره عود السكر المقرز .

رميتُ سيجارتى ، كنت متهاياً ، حين فتحت الباب ، وبدلاً من الفتاة ظهر القس الذى أنهى خطبته تَوّاً : وجهه الفلاحى المدور الشاحب ، تظلمه الآن قبعة سوداء نظيفة .

قال : « صباح الخير »

وألقت الحُبة ظلاً ثقيلاً على وجهه حينما رأى المكان وراء المنضدة خالياً . تذكرت الآن أن الكنيسة التى كنت فيها هى كنيسة الأبرشية ، « كنيسة أحزان مريم السبعة » ، وأنى ملّم إماماً جيداً بأعمال القس ، كانت درجاته متوسطة ، أدعيته شعبية تفتقد الدرامية ، وصوته جشِب يابس . لم يتميز خلال الحرب ، لم يكن بطلاً ، ولا مقاتلاً فى المقاومة ، ولم تزين صدره ميدالية ، ولم يُتَوَّج بتاج الشهادة السَّيْنِيّ ، بل هو نال عقوبة تأديبية بحرقه قرار منع التجول ، فَلَطَّخَ سجله بها . لكن هذا كله لم يصل فى سوئه إلى ما وصلت إليه قضيته الغريبة مع امرأة ، والتى وان اعتبرت قضية أفلاطونية ، فقد نالت درجة من النفح الروحى هبطت بمراتبه الكهنوتية . إن قس أحزان مريم السبعة واحد من أولئك الذين وسمتهم الكنيسة بأنهم قسّس مادون الدرجة (ج) والمنحدرين إلى الدرجة (د) .

كان إخفاق القس المذلّ واضحاً جداً لدرجة أنه أربكنى . أشعلتُ سيجارة أخرى ، وقلت ثانية : « صباح الخير » .

وحاولت النظر إلى ذلك الوجه عديم الملامح . كلما رأيت القسس ،
بقناعتهم البريئة ، أو بفقدانهم البريء للقناعة ، في ذلك الوقت يتتابنى
مزيج من الغضب والرثاء ، مثل ذلك الذى أشعر به نحو أطفالى .

كان القس يحرك قطعاً من فئة ماركين على واجهة المنضدة الزجاجية حينما
فتحت الفتاة الباب ، ودخلت ... تدفق دم خفيف من عنقه صاعداً إلى
وجهه .

قال لحظتها :

« آه ، أردت بعض السجائر » .

راقبته عن كثب وهو يقترب بأصابعه القصار البيض يجتاز - باتجاه
السجائر ، التقط علبة حمراء ، رمى بقطعة النقود على المنضدة وقال : « مع
السلامة وهو يغادر الكشك متعجلاً .

تابعته الفتاة بنظراتها ، وقد أنزلت السلة التى كانت تحملها ، وشعرت بأن
لعابى يسيل وأنا أمام تلك اللفات الذهبية الطازجة .

ابتلعت ذلك اللعاب الدافئ ، أطفأت سيجارتى ورحت أبحث عن
مكان أجلس فيه . المدفأة الحديدية تبعث دفئاً لذيذاً ، لا يزال هناك ما يثير
دخان الفحم ، وكنت أشعر بغشيان خفيف يتحرك حامضاً فى معدتى .

فى الخارج كانت عربات الترام تقرقع حول المنحنىات وهى تغادر
المحطة ، العربات البيض المتسخة وصلت معاً - اثنتين اثنتين ، وثلاثات -
وابتعدت مرتجة صاخبة ، ينطلق صريرها من نقاط احتدام مثل عُقْدِ خيوط
تنحل وتختفى فى قنوات أبعد .

الماء يغلى فى مكنة القهوة ، الولد الأبله ماض فى امتصاص عود حلواه
الذى لم يبق عليه غير طبقة وردية من السكر .

سألتى الفتاة من وراء المنضدة :

« قهوة ؟ أترغب فى شىء من القهوة ؟ » .

أجبتها فى الحال :

« نعم ، من فضلك » .

وكأن نغمة صوتى أثرت فيها ، أدارت وجهها الهادىء الجميل إلى
وأحنت رأسها مبتسمة وهى تدفع الكوب والصحن تحت رغوة المكنة . بهدوء
فتحت علبة القهوة . وحين أخذت ملعقة منها هبت على نفحة من الفستق
« الأرضى » ، وترددت لحظة قبل أن تسالنى :

« كم ؟ كم من القهوة تود ؟ » .

وبسرعة أخرجت نقودى من جيبى ، سوّيتُ القطع الورقية منها ،
وبسرعة كومتُ القطع المعدنية ، حسبتها جميعاً وقلت :

« ثلاثة ، أريد ثلاثة أكواب » . أجابتنى :

« ثلاثة ؟ » .

وابتسمت مرة أخرى وأشارت برأسها :

« إذن سأعطيك دورقاً ، إنه أرخص » .

راقبتها وهى تضع أربع ملاعق من البن فى « المجرّ » المعدنى الصغير ،
دفعته ، أبعدت الكوب ، ووضعت الدورق مكانه . وبهدوء عدّلت القفل
ففتحت المكنة ، وبدأ الغليان . هسّ البحار عابراً وجهها ، ورأيت السائل

البنى الغامق ينساب إلى الدورق ، وصار قلبي يخفق بسرعة أكثر قليلاً مما كان .

أحياناً أفكر في الموت ، وفي لحظة العبور من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ، وأحاول أن أتخيل ما سيظل معي في الحياة الثانية : وجه زوجتي الضامر ، أذن القس البيضاء ، في الاعتراف ، بضع جلسات هادئة في الكنائس المعتمدة مملوءة بتراتيل الطقوس ، وجلد أطفالى القرمزى الساخن وفي هذه اللحظة وأنا أراقب الفتاة تعدل قفل مكنة القهوة انتبهت إلى أنها أيضاً ستكون معي هناك . فتحت أزرار ستري ، رميت قبعتي على كرسي فارغ وسألت :

ـ « أيمكننى تناول بعض اللفائف ، أهى طازجة ؟ »

أجابت : « طبعاً ، كم واحدة تريد ؟ » .

قلت : « أربع ، وعليها شىء من الزبد » .

ـ « أوه ، أونس ، أو ما يقارب ؟ » .

تناولت اللفائف من السلة ، وضعتها في الصحن ، وبدأت تقطع بسكين قطعة من الزبد :

ـ ليس لدى ميزان ، أيمكن أن تكون أكثر قليلاً ؟ »

قلت : « بالتأكيد » .

وكان واضحاً أنها وضعت إلى جانب اللفائف أكثر من « أونسين » ، لأن القطعة كانت هى الكبرى بين الأرباع الأربعة ، التى قُسمت العلة إليها .
وبعناية ، أزاحت الورق عن الزبد وجاءت تحمل الصينية إلى .

رفعت الصينية عالياً ، قريباً من وجهي ، لأنه أرادت أن تمد الشرشف بيدها الأخرى المتحررة ، فرحت أساعدها على نفثه ، وللحظة رحت أشم شذى يديها ، شذى يديها كان زكياً .

قالت : « هذا ما أردت » .

قلت : « شكراً » .

صببتُ لنفسي كوباً من القهوة ، أضفت لها سكرًا ، حركتها وشربت . كانت القهوة ساخنة وطيبة جدًا . زوجتي وحدها تصنع قهوة مثل هذه ، لكى نادراً ما أنال قهوة في البيت ، ولا أدري كم مضى على من زمن منذ تناولت مثل هذه القهوة الجيدة . ارتشفت عدة رشقات شعرت بعدها في الحال بعودة روحي .

صحت : « مدهشة ، قهوتك مدهشة ! » .

ابتسمت ، وأشارت لي برأسها ، وأدركت فجأة كم أحببت النظر إليها . حضورها ملأني بالرضا والوجود المريح .

« لأول مرة يقول لي شخص إن قهوتي بمثل هذه الجودة » .

قلت : « نعم ، إنها كذلك » .

بعد ذلك سمعت قرقرة القناني الفارغة في الإناء المعدني ، في الخارج . بائع الحليب جاء بقناني ملأى ، ويهدوء عديتها بأناملها البيض : حليب ، شوكولاته ، لبن ، قشطة ، بدأت الحرارة تزداد في الكشك ، ولا يزال الولد الأبله يجلس هناك يمسك بعود السكر العاري في فمه ، يتلفظ أصواتاً تتفق ومناسباتها . يطلقها خطأً من كلمات تبدأ بـ « ز » فتبدو كأنها تبعث نغماً من

« زوزو - زازا - زُوزُو » إيقاع وحشى وسرى يثقل هذه البربرة . وإذا ما التفتت الفتاة إلى الأبله انتشرت على وجهه جهامة . دخل بعض مُصلحي الترامات . أزاحوا النظارات الواقية عن عيونهم ، جلسوا ، شربوا حليباً خلال قصبات فى القناني ، تبينت سمات المدنية مرسومة على صدورهم . فى الخارج ، كانت الأشياء نابضة بالحياة ، خطوط الترام اختفت الآن ، وعربات بيض مسودة ترسل صريرها وهى تمر على فراغات منتظمة فى الخطوط الطويلة .

فكرت فى « كيت » زوجتى وبأنى سأكون معها ذلك المساء ، لكن علىّ أولاً أن أهتّىء بعض النقود وأن أجد غرفة . ليس سهلاً أن أحصل على نقود ، وتمنيت أن أجد من يقدمها لى . لكن فى مدينة مثل مدينتنا ، مدينة الثلاثمائة ألف نسمة ، ليس سهلاً أن تجد فيها إنساناً يعطيك نقوداً فقط ، لأنك تطلب ذلك منه . أعرف أناساً قليلين من السهل سؤلهم ، وقررت أن أقصدهم ، ويمكنى فى الوقت نفسه أن أتطلع إلى الفنادق وأحاول إيجاد غرفة .

أنهيت قهوتى ، وقد قاربت السابعة . رائحة التبغ ملأت خياشيمى . معوّق عجوز ، خربّ ، هالك ، غير حليق ، جاءنى مبتسماً . جلس أمام المدفأة ، راح يشرب قهوة ويُطعم الأبله شطائر جُبْن كات ملفوفة بجريدة .

جلست الفتاة هادئة قرب الواجهة ويدها حمالة صحون ، كانت تتسلم النقود وتعيد الباقي ، تبسم وتهز رأسها ، وهى تضغط على مكنة النقود ، تجفف القناني بقطعة قماش بعد أن تخرجها من الماء الساخن .

كل شىء تفعله يبدو يسيراً ، وبدون جهد ، وإن ألحّ عليها بعض « الزبائن » أحياناً ، لقد تزاخوا حول المنضدة . صبت حليباً ساخناً ، شراب

كاكاو باردًا وشراب كاكاو ساخنًا ، تركبت البخار يتصاعد من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطع مخلل من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطع مخلل من «برطمان» زجاجي قاتم - وفجأة فرغ الكوخ «الكشك» . وظل شاب واحد بدين ممتلىء الوجه أمام المنضدة ، يحمل قطعة مخلل في إحدى يديه ، وقطعة ضلع باردة في الأخرى ، . وبسرعة أفرغ كلتا يديه . أولع سيجارة ، وببطء أخرج بعض النقود من جيب بدلتة الجديدة التي لم تتغصن إلا قليلاً . عرفت واثقاً أن وراءه يوماً من الراحة ، وأدركت أن الأحد بدأ تَوًّا في المدينة ، وهنا تذكرت كم كان صعباً اقتراض نقود يوم الأحد .

بعدها خرج شطائر الشاب ، تاركاً العجوز الملتحي مرتجفاً يضع في فم الأبله قطعاً من شطائر الجبن ، وبينما كان بصوتٍ خفيف يقلد أصوات الطفل « زوزو - زازا - زوزو » وإن كانت بربرة العجوز لا يملأها ذلك الإيقاع الوحشي المؤثر . استقرت عيناى على الأبله وهو يمضغ قطع خُبزه . وانحنت الفتاة على جدار الكوخ تراقبهما . كانت تشرب حليباً ساخنًا ببطء من قدح فخارى كبير ، وتقضم ملء فمها شريحة خبز جافة . كل شيء هادىء الآن وآمنٌ . وأحسست أنا بانفعال يتصاعد فى .

ناديتُ بشيء من الحزم :

- رجاء . . قائمة الحساب « ونهضت .

شعرت بشيء شبيه بالحيرة حينما رمقنى العجوز المعوّق بنظرة باردة فاحصة . الأبله هو الآخر التفت إلى ، لكن نظرتة الواسعة الزرقاء انحرفت وتجاوزتنى . فى ذلك الصمت قالت الفتاة :

- « يكفى هذا يا أبى ، أظن برنارد أخذ كفايته » .

وأخذتِ الورقة النقدية من يدي وأسقطتها فى صندوق سجائر تحت المنضدة : وبيطء عدت الباقي على زجاجة المنضدة . وحين دفعت بقطعة النقد على الزجاجة إليها ، أخذتها وهممت :
- « شكراً » .

ورفعتِ القدحَ الفخاريَّ الكبير إلى شفيتها لتشرب منه بعض الحليب . كانت جميلة حتى فى رحابة النهار ، وترددت لحظة قبل أن أغادرها . لقد بقيت هناك بضع ساعات جالساً فقط وأنتظر . أدت ظهري إلى ثلاثتهم ، وتوقفت ثم سحبت نفسى وأنا أتمتم :
- « مع السلامة » .

وخرجتُ عَجَلًا .

خارج الباب شابان ، كل منهما يرتدى قميصاً أبيض ، كانا يفتحان لافتة ويثبتانها على عمودين خشبيين . الأزهار متناثرة فى الشارع . انتظرت دقيقة حتى نُشِرَت اللافتة تماماً ، واستطعت أن أقرأ الكتابة : حروف حُر على قاعدة بيضاء :

مرحى لراعى كنيستنا !

أشعلت سيجارة ، واستدريت متاثلاً نحو المدينة لأقترض نقوداً وأجد غرفة لقضاء الليل .



حين ذهبْتُ إلى الحنفية لأملأ الدلو ، لم أطق رؤية وجهي في المرآة . أنا امرأة يابسة ، جاءت لتعرف مرارة الحياة . لا يزال شعري كثيفاً ، وآثار الشيب في سالفى ، هذا الشيب الذى يعطى شعري الجميل مظهرًا فضيًّا ، هو عامة الحزن من أجل طفليَّ اللذين أوصانى مَنْ اعترف أبى أمامه ، بأن علىَّ أن أصلى من أجلهما . هما فى عُمر فرانز الآن ، وبدءا يجلسان فى الفراش ليحاولا الكلام معي . لم يلعبا يوماً فى مروج مزهرة ، لكنى أراهما أحياناً فى مرعى مزهر ، فيختلط الحزن بشيء من الرضا - الرضا بأن هذين الطفلين فائضان عن حاجة الحياة ، مع ذلك رأيت أن لى بطفلين آخرين ، تصور - مخلوقين ينموان ، يتغيران سنة بعد سنة ، وتقريباً شهراً بعد شهر وأنها يمران بها مرَّ به الطفلان السابقان . يتراءى لعينيَّ الطفلان الآخران ، هما واقفان فى المرآة وراء وجهي ، ويلوحان لى ، حكمة أدركتها دون أن آخذ بها . هذه الابتسامة التواقة فى عيني الطفلين اللذين يلوحان لى فى المرآة ، شفق فضى - أرى فى عينيها صبراً - صبراً لا حدود له ، وأنا ، أنا لست امرأة صبوراً ، وأرفض التخلي عن المعركة التى أخوضها ، والتى كانا ينصحاننى بالأبدأها .

استغرق ملء الدلو وقتاً طويلاً ، وها قد بدأت فرقة الامتلاء تعلو

وتعلو، بشيء من الإنذار ، إنها السرعة التى أسمع فيها امتلاء الميدان أخرى على عظام وجنتى البارزة قليلاً، هزلت كثيراً ، شحوب وجهى صار الآن اصفراراً ، وأتساءل إن كان علىّ تغيير صبغ شفتى هذا المساء ، قد أستعملُ أحمر شفاه أكثر إشراقاً .

كم من آلاف المرات يجب أن تقوم يداى بهذه الحركات ! دونما نظر إلى الدلو ، كنت أسمعه قد امتلأ . أغلقت الخنفيه وأمسكت يداى بسرعة قبضة الدلو . أحسست بعضلات ذراعىّ تتوتر وأنا أنزل الدلو الثقيل متارجحاً إلى الأرض .

وضعت أذننى على باب « جزء » البيت الذى اقتسمناه بقواطع من خشب ، أنصت لأتأكد من أن فرانز لا يزال نائماً .

بعدها بدأت معركتى ، معركتى ضد القذارة . لا أدري كيف أنقذ الأمل مما يميته ، أجّلت الهجوم قليلاً ، مشطتُ شعري بدون النظر إلى المرأة . نظفتُ صحون الإفطار ، وأشعلت نصف السيجارة المتروكة على الدولاب بين كتاب الصلاة ودورق القهوة . استيقظ الجيران فى الغرفة المجاورة ، أستطيع سماع هسيس اشتعال الغاز بوضوح أسمع قهقهات الصباح الباكر، وتلك الأصوات الكريهة التى تتفجر فى بعض الأحاديث . ربما هو لا يزال فى فراشه ، تمتاته غير مفهومة ، أستطيع تمييز الكلمات حينما تبتعد .

« الأحد الماضى أردتُ أشتري بعد المطاطيات ... متى يدفعون لنا ؟ ... »

يبدو أنه راح يقرأ إعلانات السينما ، سيذهبون إلى « بار » . وبدأت آسف قليلاً على أن لى موعداً مع فريد ، فستكون الغرفة المجاورة هادئة هذا

المساء . لكن « فريد » الآن في طريقه ربما ليحصل على غرفة وبعض النقود ،
وقد فات الأوان لإلغاء موعدها . وأنا استنفدت سجائري .

لحظة حركتُ الدولار ، تدحرجت على من الحائط قطع من البلاستر
الجصى ، قطع تهاوت بين أرجل الدولار وانتشرت على الأرض ، يوم
طباشيرى جاف وناعم ، يبدأ بالتفتت . أحياناً ينزلق لوح كامل إلى أسفل
وتتوالى قرعته بسرعة ، وحين أحرك الدولار يهوى بعاصفة مُحمّدة ،

في حين تنبشنى سحابة طباشيرية بأن يوم معركة استثنائية قد طلع على
فجره ، استقر الغبار على كل شيء في الغرفة ، طحين ناعم لطيف يضطرنى
لأن أمرّ على كل شيء أنظفه مرتين ، وأنه ليلتمّ تحت قدمى ، وأسمع عبر
الجدار البسيط لذلك المسكن المجزأ الطفل يسعل ، يحاول التخلص من
ذلك الغبار المفزع في حنجرتة . تصاعد اليأس في داخلى ، صار المأجسدياً ،
حنجرتى أطبقت على غبار غضبٍ حاولت ابتلاعه . أخذته ، لكنّ مزيجاً
من غبار ودموع وخيبة انزلق إلى معدتى ، لقد بدأت الآن المعركة فعلاً .
وجهى يلتّم من ألم ، كنستُ النثار بعد أن فتحت النافذة ، بعدها مسحت
بمنفضتى الغبار عن أوجه الأشياء . أخيراً غطّست ممسحة الأرض في الماء ،
وما إن حاولت تنظيف أول مساحة مربعة وأغسل ممسحة الأرض حتى
بدأت سحابة بيضاء تنتشر في الماء . بعد المساحة المربعة الثالثة ، صار الماء
كثيفاً ، وحين أفرغت الدلو ترسب ثقل طباشيرى مقرف ، أزحته بيدي ،
وغسلت الدلو ، كان علىّ أن أملأ الدلو مرة أخرى .

أنظر إلى وجهى في المرآة ، عيناى لمحتا شيئاً ، أستطيع رؤيتهما ، طفلى :
ريجينى و روبرت . . توأم ولدتها كى أتحمل فقط رؤيتهما يموتان . إنَّ يَدَى
فريد هما اللتان قطعتا الحبل السرى وغليتا الأدوات ، واستقرتا على جبهتى

حين كنت أصرخ من الألم . لقد ترك المدفأة موقدةً ، لف سيجارتين لكلينا ، وكان هارباً من الخدمة ، وكنت أشعر بمزيد من الحب له حين أدركتُ قَدْرَ كُزْهِهِ للقانون . رفعتني بذارعيه . . حملني إلى السرداب ، وكان إلى جانبي حين وضعتهما لأول مرة على صدرى ، هنالك ، تحت في السرداب البارد الذى لا يتغير هواؤه ، إلى جانب ضوء شمعة خافت « كليمنز » جالس على كرسيه الصغير ينظر في كتاب مصور والقنابل تتفجر فوق بنايتنا .

تلك الأصداء الكبيرة تذكرنى الآن بمعركتى ضد القذارة والشار المتهاوى ، فما إن ذهبت مرة أخرى يتأرجح الدلو في يدي نازلة إلى الأرض ، حتى رأيت الأمكنة التى غسلتها قد جفت وكشفت عن طبقة طباشيرية بيضاء وبقع كريهة أعرف أنها لا تزاح . هذه اللاجدوى الباهتة تقتل انتباهاتى الحية ، تدمر قُواى ، والتشجيع الذى يمدنى به الماء النظيف فى الدلو الذى أحمله ، قد هبط الآن إلى حده الأدنى .

مرة أخرى ، أخرى أحمل الدلو الفارغ لأضعه تحت ماء الحنفية ضعيف الجريان . وتقع أيضاً عيناى على المساحة البيضاء غير المضاءة فى خلقيّة المرأة ، ورأى جَسَدِي طفلى تغطيهما لسعات البعوض الوارمة ، مشخن جسدهما من عض القمل فيعترينى إيلام فى معدتى وأنا أفكر فى جيش الهوام المشحون إلى الحرب . . بلايين القمل والبعوض والقراد تتحرك حالماً تندلع الحرب ، تتبع الأمر الصامت الذى يقول لها :

هنالك طعام يمكن الحصول عليه .

أوه . . إننى أدرى ! أدرى ولا أظننى يوماً سأنسى أننى كنتُ أدرى أن الموت يأتى إلى طفليّ من القمل ، فقد باعوا لنا علاجاً عديم الجدوى من

مصنع يديره ابن عم وزير الصحة ، فى حين حُظِرَ العلاج الجيد ، الفعّال .
أدرى ، ولا أظننى أنسى ، لأننى أراهما ، هناك فى المرأة ، أحمرين من
الحشرات ، قبيحين ، محمومين ويبيكيان ، جسداهما الصغيران متورمان من
زرق الإبر اللامُجْدِيّة . وفتحت الحنفية بدون أن أرفع الدلو ، فاليوم هو
الأحد ، وسوف أجد راحة نفسى ، فى هذه المعركة ضد القذارة التى هيجتها
الحرب .

وأرى وجه فريد شائخاً جافاً ، أتلفته حياة لا طائل وراءها ، ودائماً لا
طائل وراءها . حياة ستظل لا طائل وراءها . فهى خلو من الحب ، لا تثير
أية محبة فى وجه رجل استسلم فى سن مبكرة إلى اللامبالاة بإزاء أى شىء مما
يجهد الناس للحصول عليه . أراه كثيراً ، وأكثر من أى وقت ، وإن لم يعد
يعيش معنا . ابتسم فى المرأة ، تدهشنى رؤية ابتسامتى أنا التى لا أعرف
عنها شيئاً ، أصغى لقرقرة الماء فى الدلو ترتفع ، ترتفع أكثر . أخفق فى
استعادة نظرتى من المرأة لأحيلها إلى وجهى . وجهى الحقيقى الذى أعرفه
غير مبتسم . وراء وجهى أرى نساء - نساءً صُفْراً ينجزن غسيلهن جنب
أنهار موحلة ، أسمع غناءهن - أرى نساءً سُوداً يحفرن فى أرض لفحتها
الشمس ، أسمع قرع طبول لا معنى لها ، ولكنها آسرة ، من رجال عاطلين
أراهم فى خلفية المرأة . أرى نساءً سُمرًا يطحنن حبوباً فى رَحَى حجرية ،
يحملن رُضْعاً على ظهورهن على حين يقبع الرجال بغباء حول النار يدخنون
غلايينهم - وإخواتى البيض فى حجرهن ، فى لندن ونيويورك وبرلين ، فى
تلك الأزقة المظلمة ، فى شوارع باريس الخلفية ، وجوههن مألومة ، يصغين
مرعوبات لصراخ مخمورين . وأرى بعيداً فى المرأة ، أرى جيش الجحيم
يتقدم ، تحرك غامض بلا نشيد للهوام ، إنه يتقدم حاملاً الموت لطفلى .

لكن الدلو قد امتلأ منذ حين ، ومع أنه الأحد ويجب أن أغتسل ، فأنا اليوم على أن أقاتل القذارة . منذ سنين وأنا أقاتل القذارة في هذه الغرفة الصغيرة ، أنا أملأ الدلاء وأعصر الثياب ، أسكب الماء القذر في البالوعة ، وافترض أنى سأكسب معركتى ، فأرانى ثانية أقشع قدراً من التلف الطباشيرى ، وأزيح بقدر ما أضاف البناءون مبهتهجين من ملاط على جدران هذه الغرفة قبل ستين سنة . كلما رحت أملأ الدلو تنظر عيناى فى المرأة ، وحين ترتدان من الخلف تفعان أمام هى يابستين بلا حياة ، تراقبان اللعبة اللامرئية ، ثم أرى على وجهى ابتسامة قد تكون سقطت من وجوه أطفالى على وجهى وبقيت عليه . أو هى فى جهى تعبير عن قرار قاس ، عن كراهة وقسوة يملأننى بالكبرياء أكثر ممن يندراننى ، إنها قسوة وجه لا ينسى .

لكن اليوم هو الأحد ، وأنا ماضية لأكون مع فريد . الرضيع نائم .

وكليمنز خرج إلى الموكب مع كارلا ، ومن الفناء أستطيع سماع أصداء طقوس ثلاث كنائس يخرقها جميعاً غناء خشن لزنجى .

إن غناء ذلك الزنجى كان الشيء الوحيد الذى يلامس قلبى :

« ... وهو أبداً لم يقل كلمة »

لعل فريداً سيسكب بعض النقود ويسنذهب عندئذ للرقص ، سأشتري قلمَ حمرة جديداً ، أشتريه ديناً من سيدة مالكة فى الطابق الأسفل . وسيكون لطيفاً إن أخذنى فريد للرقص . أستطيع أن أبقي هنا أسمع صراخ الزنجى الخشن الجميل ، أسمعه خلال اثنتين من صلوات الماء ، وأستطيع أن أحس بالكراهية تكبر فى قلبى للأصوات الأخرى التى تتقطر قوتها فى داخلى مثل تحلل بطيء :

« لقد سمروه على الصليب ، سمروه على الصليب » .

نعم هو الأحد ، غرفتنا مملأى برائحة « الروست » . إن هذه الرائحة
تبكىني ، تبكىني على فرح الأطفال بها ، والذين نادراً ما ينالون لهما :

« ... لم يقل كلمة » يغني الزنجي .

« ... ولم يقل كلمة » .

3

4050
1100

عدت إلى محطة القطار ، أخذت بعض القطع النقدية الصغيرة من محاسب « مطعم الأكلات الخفيفة » ، وقررت أن أسلك أسهل الطرق إلى الخارج ، فقد كان اليوم يوم أحد ، كنت شديد التعب وشديد التعاسة ، لا طاقة لي على الذهاب ورؤية كل أولئك الناس الذين أستطيع أن أفترض منهم نقوداً ، لذلك فكرت أن أتصل هاتفياً بالذين عندهم هواتف ، في الهاتف أحاول أحياناً أن أشبع صوتي بتلك النغمة التي تؤكد الثقة بصاحبها ، والتي تتضح في وجه المقابل وتضغط على سحاب فتح المحفظة . كانت مقصورة الهاتف في المحطة خالية ، دخلت وأدرت أرقام هواتف عدة فنادق ، وأخرجت دفتر ملاحظاتي لأرى أرقام هواتف ناس يمكن أن أطلب منهم مالاً ، كان في جيبى كثير من القطع النقدية الصغيرة ، وترددت قليلاً ، تطلعت إلى ورقة جدول التعليقات المتهرئة ، على جدران المقصورة تعليقات استعمال الهاتف وعليها الكثير من الخربشة ، أسقطت أول قطعتين من النقود في الفتحة .

كلما حاولت الاتصال بأحد ، ضغط على همّ طلب النقود ، حتى تحول ذلك إلى كابوس ، فلم آسف على أنى كنت مخموراً . أدرت رقم الرجل الأكثر احتمالاً أن يقرضنى شيئاً ، لكن رفضه سيجعل كل شيء في أسوأ

حال . فالأشد إخراجاً بعده سؤال الآخرين . وهكذا تركت القطعتين الآخرين تستقران في جوف الجهاز ، ضغطت على الذراع مرة أخرى وانتظرت قليلاً . كان العرق يتجمع على جبهتي ، مما جعل قميصي يلتصق على ظهر عنقي ، وأدركت في ذلك الوقت كم عولت كثيراً على اقتراض النقود ، خارج مقصورة الهاتف ، رأيت ظل رجل بدا منتظراً ، كنت أوشك على ضغط الزر الآخر لأخرج نقودي مرة أخرى ، ففرغت المقصورة الثانية واختفى الظل الذي كان وراء باب مقصورتى . مازلت متردداً . فوق رأسي ترعد القطارات داخله خارجة ، ومن بعيد أستطيع سماع صوت مذياع المحطة . مسحت العرق وقلت لنفسى :

لن أستطيع في وقت قصير أن أنال النقود التي أحتاج إليها لأكون مع « كيت » .

كنت شديد الخجل وأنا أدعو الله ليَهَبْ لي أحداً أطلب منها النقود بيسر . جمعت نفسي وأدريت الرقم مرة أخرى ، وأبعدت يدي اليسرى عن الذراع ، فما عدت قادراً على ضغطها مرة أخرى ، حين أدريت الرقم الأخير . مرّت لحظة صمت تبعها أزيز ، واستطعتُ تمييز مكتبة سيرجى ، حيث يرن الهاتف الآن ، أستطيع رؤية كل كتبه - النقوش المثيرة على الجدران ، النوافذ الملطخة الزجاج تطلّ على القديس كاسيوس ، تذكرت اللافتة التي رأيتها قبل قليل :

« مرحى لراعى كنيستنا »

وأدركت طبعاً أنه يوم الموكب ، وأن سيرجى ربما لا يكون في البيت . كنت أنضح عرقاً ، أكثر غزارة من أى وقت مرّ بي ، ربما أخفقت في سماع صوت سيرجى أول مرة ، لأنه قال جَزِعاً :

- « هلو ، مَن المتكلم ؟ » .

ومن نغمة صوته ذابت كل شجاعتي ، وأكثرها تسرب عبر رأسي في
ثانية واحدة . لكني ، إذا سأله مالا فسيكون قادراً عندئذ على التمييز بين
مستخدمه وبينى أنا المقترض ، فقلت بأعلى ما يمكن :

- « إنه بوكنر » .

ومسحت العرق البادريدي اليسرى وأصغيتُ بدقة لصوت سيرجي ،
ولن أنسى ارتياحي حين سمعت صوته يتخذ نغمة ودية .

قال : « أوه ، هذا أنت ! لماذا تتكلم مضطرباً ؟ »

قلت : « كنت أخشى أن » .

ظل صامتاً ، وكنت أسمع رعد القطارات ، وصوت مذياع المحطة فوق
رأسي ، وكنت أرى امرأة وراء باب المقصورة . تلمست منديلي .

كان قدراً رطباً . صوت سيرجي صدمني بين عيني حين قال :

- « حسن ، كم تريد ؟ » .

كنت أسمع خلال الهاتف أجراس كنيسة بيفاني الجميلة الباكبة كأنها
ربطوا رنينها الداوي بساعة الهاتف . بصوت خفيض قلت :

- « خمسين » .

- « كم ؟ » .

- قلت : « خمسين »

ولا زلت مضطرباً من الضربة التي لم يقصدها ، لكن هكذا هي الأمور ،

حين يسمعنى شخص ، يرانى ويعرف فى الحال أنى سأطلب منه مالا .
سألنى . « كم الساعة الآن ؟ »

وفتحت باب مقصورة الهاتف ، نظرت أولاً إلى وجه امرأة عجوز مكفهر
كانت واقفة هناك هزيت رأسها حين أخرجت رأسى ، تم - فوق لافتة اتحاد
الدوائين - رأيت ساعة المحطة ، وأجبت فى الساعة :

- « السابعة والنصف » .

صمت سيرجى ثانية ، سمعت رنين جرس الكنيسة الناحب ، ثم قال :
- « تعالى حوالى العاشرة » .

خشيت من أن يقطع المكالمة فقلت عجلأ :

- « هلو ، سيدى ، هلو ؟ »

« نعم ، ماذا ؟ »

« أستطيع أن أعتمد . . . » .

« يمكنك . . وداعاً » .

وسمعتة يضع الساعة ، وضعت سماعتى ، وفتحت باب المقصورة .

قررت أن أوفر ثمن المكالمات وسرت متمهلاً فى المدينة أبحث عن غرفة .
كان صعباً العثور على غرفة بسبب الاحتفال الكبير ، فهناك الكثير من
الزوار فى المدينة ، ومجرى السياح الأجانب لم يتوقف . المؤتمر جلب أخيراً
مثقفين من جميع أنحاء البلاد . صارت المناسبة معروفة للجراحين وهواة
الطوباع والمنظمات الخيرية ، فهم يجتمعون كل سنة فى ظل الكاتدرائية ، لقد

ملأوا الفنادق ، رفعوا الأسعار ، وأسرفوا في صرف حساباتهم الكبيرة ، والآن هم الدوائيون ، الذين يجتمعون

يستعرضون في كل مكان ، يحملون أعلاماً حمراً صغيرة وشارات تنظيماتهم على صدور سترهم ، لا يبدو لبرد الصباح الباكر تأثير في حالتهم الروحية . يتبادلون كلام الباعة البهيج في السبارات وفي الترام ، ويندفعون إلى لقاءات جميعات وانتخابات هيئات ، ويبدو أنهم قرروا إشغال كل فندق من الفنادق متوسطة الأسعار ، ولأسبوع على الأقل ، كان هناك فعلاً الكثير من الدوائيين ، وكثير من هؤلاء تصحبهم زوجاتهم لمناسبة نهاية الأسبوع ، مما شكل صعوبة في الحصول على غرف ذات سريرين ، كما أن التجمع أقام معرضاً . وهناك لافتات تدعو الناس لزيارة هذا المعرض الفخم للمنتجات المهجّنة . . مجاميع من العقائديين يظهرون بين حين وآخر في مركز المدينة بمسيرة تتجه إلى موقع التجمع ، قس محاط بمشاعل باروكية وهاجة ، ومنشدون بأرواب حُر ، ورجال ونساء في أناقة يوم الأحد .

منتج معجون أسنان استأجر منطاداً ذا محرك يلقي بمظلات بيض . المظلات طفت ببطء باتجاه الأرض ، حاملة صناديق من معجون الأسنان فوق المدينة ، وعلى السّد كان مدفع ضخّم يفجّر بالونات تحمل ماركات منافسة ، عجائب أكبر أعلنت ، وكان هناك كلام بأن « خدعة » إعلانية عن منتج بضائع مطاطية كبير خربتها الكنيسة .

حين بدأت الاتصال بسيرجي في الساعة العاشرة لم أكن قد وجدت غرفة بعد ، وكان رأسى يثر بأعذار مالكات النزل ، والأجوبة القاطعة للنوادل ذوى العيون الغائمة من سهر .

المنطاد ذو المحرك اختفى فجأة ، والمدفع الذى كان يُطلق من فوق

السد ، لم يعد يُسمع ، وحين سمعت ترانيم الأدعية تأتي من القسم الجنوبي للمدينة ، علمت بأن الاجتماع يوشك على البدء الآن .

العاملة بمنزل سيرجى استقبلتنى فى المكتبة . قبل أن أجلس ، دخل سيرجى عبر غرفة النوم ، ورأيت فى اللحظة نفسها نقوداً فى يده .

رأيت قطعة ورقية خضراء ، وواحدة زرقاء ، وفى الأخرى بعض قطع معدنية ، حدقت فى الأرض ، منتظراً ظله يسقط علىّ ، ثم رفعت بصرى ، وقد دفعه تعبير وجهى إلى القول :

ـ « تعال ، ليست الأمور بهذا السوء » .

لم أعترض عليه .

ـ قال : « ها هى ذى »

مددت يدى مبسوطة إليه ، وضع القطعتين الورقتين فى يدى اليمنى ، وكوم القطع المعدنية فوقها قائلاً :

ـ « خمسة وثلاثون ، هذا أقصى ما أستطيع ! »

قلت : « أه ، شكراً » .

نظرت إليه وحاولت أن أبتسم ، لكن نشيجاً لم أسيطر عليه انبثق منى كمن يتجشأ . لاشك أن ما بدا علىّ حَيْرُهُ . نفص رداءه بُعناية . يداه مقلمتا الأظافر جيداً ، وخداه الحليقان ، كل ذلك جعلنى أمام رثاثة شقتنا ، والبؤس الذى نتنفسه طيلة عشر سنوات مثل غبار أبيض لانحس به ولا نلمس له طعماً ـ ذلك اللامرئى ، الذى لا وصف له . لكننا نعرفه غبار التعاسة الأصيل الذى استقر فى رئتى ، فى قلبى ، فى دماغى ، ذلك الذى

تسلط على دمي وتركز في جسدي ، ذلك الذي جعلني الآن متقطع النفس ،
أسعل قبل أن أستطيع انتشاق الهواء .

قلت بجهد : « حسن إذن ، وداعاً وشكراً جزيلاً » .

ـ « تحياتي لزوجتك »

ـ « شكراً » .

تصافحنا ، وسرْتُ نحو الباب ، حينما التفت ، رأيتَه قد رفع يده مباركاً .
ورأيتَه واقفاً قبل أن أغلق الباب : يدها تتدليان واهنتين إلى جانبيه ، ووجهه
في حُمرَة الشمندر . كانت باردة في الخارج فقلَّبتُ ياقة سترتي . سمعت تَوّاً
صوت الصلوات ، أصوات « الترمبونات » وأصوات النساء يُغَنِّين ، وقد
تلتهن وأخفت أصواتهن أصوات كورس الذكور . هبَّات الريح قربت الغناء
أكثر ، سياقات موسيقية مزجتها ريح الخرائب بالغبار . كل مرة ترشق
الريح الغبار على وجهي ، وتصدمني عاطفية الغناء . لكن الغبار توقف
فجأة ، وعلى بعد ياردات وجدتُ نفسي في الشارع وحيداً حيث اعتاد
الموكب أن يمر . لم يكن هنالك الكثير من الناس على المماشي ، فتوقفت
منتظراً .

راعى الأبرشية ، وقد تجلبت باللون الأحمر للشهداء ، سار وحيداً بين
حاملي القربان المقدس وفرقة المنشدين - وجوه المنشدين المتوردة بدت منتفخة
وشبه بلهاء ، كأنهم لا يزالون يصغون إلى الترتيل الذي توقفوا عنه .

راعى الأبرشية كان رشيقياً ، طويل القامة ، شعره الأبيض الكثيف خرج
من تحت قبعته التي يلائم حجمها رأسه تماماً . لقد كان مُشْتَدّاً ، ويدها
مُشَيَّتَيْن ، أستطيع القول إنه لم يكن يصلي ، وإن كانت يدها مشيتين ، وعينه

تنظران محدقتين إلى أمام . الصليب الذهبى على صدره يتأرجح تأرجحاً لطيفاً وعلى إيقاع مدى خطواته .

كانت للراعى مشية فخمة ، متهايلة ، وعند كل خطوة يحرك قدمه ذات الخف المراكشى الأحمر ، إنها مثل خُطى نوع لطيف من الإوز . كان الراعى ضابطاً عسكرياً . وجهه نورانى حسن التصوير ، يصلح كثيراً لغلاف مجلة دينية .

أعضاء التجمع الكاتدرائى يتبعونه تاركين مسافة صغيرة تفصلهم عنه . من هؤلاء اثنان فقط حظيا بوجهين نيرين ، كل الآخرى كانوا صارمين جُهمًا ، إمّا شاحبون جدًّا أو شديدو الحمرة ، وعلى وجوههم تعبير سخط غير محدد السبب .

كانت « الظِّلَّة » الباروكية كثيرة الأحزمة يحملها أربعة رجال يرتدون ثياباً سوداء شبه رسمية ، ويسير تحت الظلة أسقف الأبرشية حاملاً وعاء القربان المقدس . تتعذر على رؤية مركز التجمع ، بسبب سعته ، ولقد ركعت ورسمت إشارة الصليب وانتابنى إحساس خاطف بأنى منافق ، حتى تذكرت أن الله كان بريئاً ، وليس رياءً أن أركع أمامه . وكل الناس على الأرصفة تقريباً ركعوا إلّا واحداً طويل القامة ، يرتدى جاكِتاً من المخمل المضلع ، وقبعه ظل واقفاً لم يحرك قبعته أو يخرج يديه من جيبه . أفرحنى أنه لم يدخن . جاره أخيراً رجل أبيض الشعر ، همس له بشيء ، وبهزة كتف رفع قبعته وحملها بيده أمامه ، لكنه لم يركع .

فجأة شعرت بأنى حزين جدًّا . وتابعت عيناى حاملى أوعية القربان المقدس وهم يبدأون الحركة فى الشارع الشاسع . كان هنالك الركوع

والاستقامة ونفض السراويل من الأتربة ، كل ذلك يتحرك مثل موجة .
بعد حاملي أوعية القرايين جاءت مجموعة من عشرين رجلاً ثياب سوداء .
كانت الثياب كلها نظيفة ، حسنة الخياطة ، إلا بالنسبة لرجلين ، فلم تكن
ثيابها ملائمة لهما ، علمت لحظتها أنها عاملان . لابد أن يكون أمراً حرجاً
أن يسيرا بين رجال آخرين ثيابهم ملائمة لأصحابها تماماً ، فهذا يعنى أن
أولئك يرتدون ثيابهم الخاصة ، واضح أن العاملين قد استعارا ثوبيهما
السوداوين ، فمعروف جداً أن لراعى الأبرشية وعى اجتماعى عال وقد أصرَّ
على أن يكون بعض العمال بين حاملي الظلة .

مرت مجموعة من الرهبان ، كان منظرهم مؤثراً ، رداؤهم الكهنوتى الأسود
فوق صدرياتهم «الكريم» ، بقع الشعر المحلوقة بدقة تعلو رؤوسهم المحنية
كل ذلك كان مؤثراً جداً ، ولم يكن على الرهبان طى أيديهم ، فقد كان
يمكنهم إخفاؤها فى أكمامهم الطويلة . . تحركت المجموعة إلى الأمام ،
الرؤوس المحنية فى حالة استغراق ، صامته تماماً ، ليسوا مسرعين جداً ،
ليسوا بطاءً ، هم يمشون وفق اتساق روحى ، الياقات العريضة ، الأرواب
الطويلة ، والتناسق الجميل بين الأسود والأبيض ، كل ذلك أضفى عليهم
شيئاً هو الشباب والنباهة معاً ، ولابد أن المشهد جعلنى أتمنى أن أكون
واحداً بين صفوفهم ، لكنى أعرف بعضهم وأعلم أنهم فى ثياب القسس
ليسوا أفضل من الآخرين .

الأكاديميون يصل عددهم إلى المائة ، بدوا نابهن جداً ، بعضهم فى
الأقل يبدون كذلك . بعض الوجوه تحمل سحنة النباهة ، كان أكثرهم فى
ثياب سوداء ، لكن بعضهم كان يرتدى ثياباً اعتيادية ، رمادية غامقة .

أعقبهم قسس من مختلف أبرشيات المدينة ، إلى جانبهم مشاعل باروكية كبيرة ، ورأيت جنبها كم من الصعب على قس مدنى امتلاك شكل جيد فى تلك الأردية الكهنوتية الباروكية ، بعض الفسس لم يكونوا محظوظين جداً إلى حد امتلاك مظهر نورانى ، بعضهم كان ثقيلاً ويبدو غلبظاً غاماً .

ومعظم الناس فى الشارع بدؤا فاقدى العافية ، منضايقين ، بل مُخرجين .

أفراد من جموع الطلبة يرتدون قبعات ملونة بهيجة ، وأولئك الذين يسرون فى الوسط ، كل واحد يحمل علماً ملوناً بهيجاً يرتخى إلى أسفل حريراً ثقيلاً كانت هناك سبعة أو ثمانية تشكيلات من الطلبة ، كل واحد يتكون من ثلاثة صفوف ، والمجموعة كلها تبدو ملونة مفرحة ، ومن أجمل ما رأيت ، وجوه الطلبة تبدو ساكنة جداً ، وكلهم يحدقون أماماً لا يطرف لهم جفن ، ينظرون إلى هدف بعبد جداً ، وفاتن جداً ، ولا يبدو أى منهم عارفاً أنهم يبدون بذلك مضحكين ، أحدهم يرتدى قبة زرقاء وحمراء وخضراء - ينضح وجهه عرقاً ، وإن لم يكن الجو حاراً ، لكنه لا يبدو مضحكاً كثيراً قدر ما يبدو فاقداً سعادته . أتصور أن هناك شيئاً ، قاعة شرف مثلاً ، وأنه سيُطرد منها بسبب مواصلته نضح ذلك العرق الغزير خلال المسيرة ، وأن هذا قد يعنى نهاية مسار حياته ، إنه فعلاً يعطى انطباعاً عن رجل خسر فرصته فى الحياة ، وكل الآخرين الذين لا ينضحون عرقاً ، يبدون كأنهم لن يعطوه بعد فرصة أخرى .

مرت مجموعة كبيرة من أطفال المدارس ينشدون بسرعة شديدة وبشئء من عدم الانتظام ، وإن غناءهم كان يشبه إنشاد مدفع ، فالكلمات التى ينشدها رؤساء المجموعة يرددها الآخرون عالياً وراءهم ، بعد ثلاث ثوان ،

بضعة معلمين شباب في ثياب سوداء ، حديدة ورَجُلًا ديني كل واحدٍ منهما يرتدى مَدْرَعَةً ذات نطاق ، كانوا يركضون في محاولة لحفظ الترامن في الإنشاد وهم يهزون أذرعهم محاولين تنظيم السرعة والإشارة إلى قواعد الهارموني لأولئك البعيدين عنهم ، ولم يكن لكل ذلك جدوى . فجأة دار رأسي ، فلم أعد أرى الناس في المسيرة ولا المراقبين . فالقطاع الذي أنا فيه قد انكمش كما لو أنه قد ضُغِطَ ، وخلال ضباب كان ينحول رماديًا ، رأيتها هما فقط ، طفلي ، كليمنت وكalara ، الولد شاحب جدًا في بدلته الزرقاء يحمل مفايل صرته الشارة الخضراء لعضو الكنيسة الأول ، ويحمل شمعه . وجهه العزيز ، الوجه الطهولي الوديع ، كان شاحباً وابتي ، التي تحمل لون سعري الأسود ، واسندارة وجهي وتكوبنها الرقيق ، كانت تبتسم قليلاً ، وإن كنت بعيداً عنهما ، فقد رأيتها بوضوح تام ، رأيت ذلك الجزء من حبانى ، مثل جرة من حياة رجل غريب مات ودفنت حياته معه . وفي طفلي وهما سبران قدماً بهدوء حاملين شموعهما عبر حقل الرؤية الضيق المتاح لى - رأيت ما كنت أظن دائماً أنى أعرفه ، إنا فقراء .

كان يحملنى مد الجموع التى تتالت فى أعقاب الموكب ، والتى قررت حضور المراسم الأخيرة فى الكاتدرائية .

فكرت لحظة فى الإفلات إلى الجانب الآخر . لكنى كنت متعباً لا أتبين طريفي ، تركت نفسى يجرفها المدّ ببطء إلى الخارج ، كان الناس مقرفين ، أنفر منهم ، وقدر ما أتذكر كنت دائماً أضدّ عن العقاب الجسدى ويؤلمنى أن يُضْرَبَ إنسان أمامى ، وأمنع ذلك متى ما كانت لى القدرة على منعه ، حتى بين أسرى الحرب . سبب لى ذلك كثيراً من المتاعب والمخاطر ، فما كنت أستطيع احتمال رؤية الأسرى يجلدون ، لكن لم أكن أستطيع فعل شىء .

بإزاء ما أشمئز منه ، حتى إذا هممت أن أفعل شيئاً ، ولم أكن أستطيع احتمال بقائي صامتاً أراقب إنساناً يُضرب أو يُقسى عليه . وكنت أتدخل ، لا لأنى أشعر بالرتاء له ، أو بالحب له فى الأقل ، ولكن ببساطة ، لأنى لا أحتمل ذلك ، لكنى خلال الأشهر الأخيرة صرت غالباً ما أحس برغبة لتوجيه ضربة لأحد ما فى وجهه ، حتى صرت أضرب أطفالى ، إذ تثيرنى ضوضاؤهم بعد عودتى متعباً من العمل . صرت أضربهم بقوة ، وأدرك أنهم يعانون الظلم من خلالى ، لكنى كنت أفقد السيطرة على نفسى .

دائماً ما تسيطر علىَّ رغبة مفاجئة فى ضرب أحد ما فى وجهه : المرأة الناحلة التى تسير الآن إلى جانبى فى الزحام ، هى قريبة جداً منى ، حتى لأشم عطرها الحامض المبتذل . وجهها ملوم القسمات من كراهة ، وتنهر زوجها الذى يتقدمنا ، وإنه ليشبهها هيئة ، ضيق الكتفين ، يرتدى قبعة خضراء من لباد :

هَيَّا عَجِّلِي ، التحقى بى ، ستأخر عن اللقاء !

شقت طريقى بعيداً إلى اليمين ، واستطعت أن أخلص نفسى من المجرى ، توقفت أمام واجهة مخزن ، وتركت مجرى الناس يجتازنى . تحسست النقود التى فى جيبى ، حسبت الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنية بدون أن أخرجها من جيبى ، وتأكدت من عدم فقدان شىء منها .

رغبت فى كوب من القهوة لكن تذكرت أن علىَّ أن أحرص على النقود .

فجأة خلا الشارع ، فلم أعد أرى الآن إلا القذارة : الأزهار المسحوقة ، التراب المخلوط بالحص ، واللافتة المعلقة منحرفة بين أعمدة الترام . بالأسود والأبيض ، كتبوا عليها السطور الأول من التريمة :

الثناء عليك أيها الرب ،

أمننا المقدسة ، باركي ندورنا .

وبعض اللافتات تحمل رموزاً : حملان ، وكثوسا ، سعفات نخيل ،
قلوباً ومراسى سفن .

أشعلت سيجارة ومشيتُ باتجاه الطرف الشمالى للمدينة . من بعد كانت
تصلنى أناشيد الموكب ، لا تزال تُسمع ، لكن بعد دقائق عمّ الهدوء ،
فعلمت أن الموكب وصل إلى الكاتدرائية ، التى تخلو عادة صباح الأحد .
وجدت نفسى بين مجموعة من المتعلمين الشباب الذين بدأوا يناقشون فيلماً .
كانوا يرتدون معاطف مطرية وقبعات وقد شكوا مجموعة حول فتاة جميلة ذات
بلوزة خضراء براقة وبنطلون قصير مما يرتديه الجنود الأمريكان :

« . . . عبارة مؤثرة . . . »

« . . . ولكن الوسيلة . . . »

« . . . كافكا . . . »

لم أستطع إبعاد طفلى عن ذهنى . فكأنى أراها وعيناي مُطبقتان .
طفلاى ، الولد ذو الثلاث عشرة سنة ، والفتاة ذات الحادية عشرة . مخلوقان
شاحبان ، مقدّر عليهما أن يمرا تحت طاحونة العذاب الكبير . إنها يجبان
الغناء ، لكنى كنت أمنعهما عنه فى البيت .

روحاهما العاليتان تجاوزتا قدرة أعصابى ، علت ضوضاؤهما فانهلتُ
عليهما بالضرب ، أنا ، ذلك الشخص الذى ما كان قادراً يوماً على احتمال
مشهد عقوبة جسدية ، ضربتهما على وجهيهما ، على ظهريهما ، لأننى أردتهما
هادئتين ، أردت سلاماً وهدوءاً فى الأمسيات حين أعود من العمل .

صوت الإنشاد يعلو في الكاتدرائية ، الريح تأتي إلى بأمواج من الموسيقى الدينية ، وأنا أمشي مجتازاً محطة القطار . رأيت مجموعة رجال في ثياب بيض ينقلون اللافتات ذات الرموز الدينية من أعمدة الأعلام ، ويعلقون مكانها أخرى جديدة تقول :

« اتحاد الدوائيين الألمان ، زوروا المعرض ! » .

« نماذج كثيرة مجاناً »

« أبن أكون بغير دوائى بهتم بأمرى ؟ » .

مبطئاً بدون انبناه توجهتُ إلى كنيسة أحزان مريم السبعة ، اجتزت الباب الرئيسى وبدون أن أرفع بصرى انتهيت إلى محل الأكلات الخفيفة ، حيث تناولت إفطارى . كأن خطواتى كانت محسوبة ذلك الصباح ، كأن إيقاعاً سرّياً كان يتحكم فى عضلات ساقى ، أجبرنى على التوقف والنظر إلى أعلى ، فإذا بى عنده - نظرت إلى اليمين خلال فتحة فى السنارة ، فرأيت الطبق وسرائح اللحم ، رأيت بوسنرات السجاير الخضراء الكبيرة . وصلت إلى الباب ، فتحتها ، دخلت ، أنا فى الداخل تماماً ، وأدركت أنها غير موجودة هناك ، الأبله غير موجود أيضاً . فى الزاوية ، جلس مصلح الترام ، يرشف حساده وإلى المائدة المجاورة له ، جلس سد وسيدة أمامهما علبتا شطائر ورقينان وكوبان من القهوة ، ووراء المائدة كان المحارب القديم المعوق . نهض ونظر إلى ، بدا أنه عرفنى . زاويتا فمه ترتعشان قليلاً . مصلح الترام والزوجان نظروا إلى أيضاً . قال لى المحارب المعوق :

- « ما الذى أستطيع أن أقدمه لك ؟ » .

همهمت :

- « سجائر . خمس - العلبة الحمراء » .

وجهدت لأعثر على قطعة النقود في جيبى ، وضعتها بعناية على المائدة
الزجاجية . أخرج المحارب السجائر وناولنى إياها ، قلت :
- « شكراً »

وانتظرت .

نظرت متريثاً حوالى . لا يزالون يحدقون بى . . مصلح الترام يحمل
ملعقته إلى وسط المسافة بين فمه والصحن - أستطيع رؤية قطرات الحساء
الصفراء تتساقط من ملعقته . . الزوجان توقفاً عن مضغ الأكل ، الزوج
وفمه مفتوح ، والزوجة وفمها مطبق ، ثم نظرت إلى المحارب ، كان يبتسم ،
ومن تحت بشرة وجهه الداكنة غير الحليقة استحضر وجهها .

كانت الغرفة هادئة جداً ، وفى الصمت سألتنى :

« هل تبحث عن أحد ؟ »

هزرت رأسى ، التفت باتجاه الباب ، تريثت لحظة وأحسست بعيون
الآخرين على ظهري قبل أن أغادر . كلن الشارع لا يزال خالياً حين خطوات
خارجاً إليه .

جاء مخموراً يترنح آتياً من النفق المظلم المؤدى إلى ما وراء محطة القطار .
كانت مشيته المتمايلة الخرقاء فى اتجاهى ، وحين اقترب رأيت علم الدوائيين
الصغير على طية سترته . تهاوى أمامى ، قطع زر سترتى وقاء البيرة الحامضة
فى وجهى ، تمتم :

- « أين أكون من غير دوائى يهتم بأمرى ؟ » .

أجبتة بلطف :

« لا مكان لى بدون دوائى ، أنا بلا مكان » .

فقال باحتقار :

« هكذا أنت إذن . فاغرب عن وجهى »

ومضى يترنح .

مشيت متثدًا فى النفق ، كان كل شىء خارج المحطة هادئًا . الأرج المر-
الحلو لحبات الكوكا الأرضية ، ورائحة الكرامل تنتشر فى جو المنطقة كلها ،
مصنع شكولاتة كبير يحتل ثلاثة قطاعات من المدينة ويعطى لهذا القسم من
المدينة منظرًا كثيبًا لا علاقة له بمنتجاته الشهية ، هنا يعيش الفقراء ،
الفنادق القليلة فى هذه المنطقة رخيصة ، ومكتب السياحة يتجنب إرسال
الزوار إلى هذه المنطقة لكى لا تثيرهم شدة فقرها ، الشوارع الضيقة ممتلئة
بروائح طبخ قطع « الروست » الكبيرة . أطفال يقفون وفى أفواههم
مصاصاتهم ، وكنت ألمح من خلال النوافذ رجالاً مطويى الأكمام يلعبون
الورق ، وعلى حائط مبنى مهدم مسودّ من نار ، رأيت علامة سوداء كبيرة
تمثل يداً سوداء تشير ، وتحت اليد السوداء كانت هذه الكلمات :

البيت الهولندى

غرف ، طبخ منزلى ، رقص أيام الأحد .

تابعت اتجاه اليد السوداء ، وجدت يداً سوداء أخرى فى زاوية اللوحة :

ب ، هـ ، عبر الشارع

وحين رفعت بصرى ونظرت إلى المبنى المقابل ، إلى الطابق الأحمر الملطخ

بدخان مصنع الشكولاتة الأسود، عرفت أن الدوائيين لم يتغلغلوا إلى هذا الطرف من المدينة .

يدهشنى بدون شك ما يسيطر علىّ من شعور كلما سمعت صوت فريد في الهاتف : صوته خشن ، مجهود إلى حد ما ، وله تأثير يجعله مثل صوت غريب يقصد إثارتى ، هكذا سمعته يتكلم خلال الحرب - من أوديسا ، من سيياستبول ، من حانات لا عدد لها حين اعتاد السكر . وكم خفق قلبى وأنا أرفع سماعة الهاتف وأسمعه عبر الخط يضغط على زر « الدفع » وتسقط قطع النقود ليكمل الاتصال ، همهمة التبادل الصامت ، مثلما يتكلم : سعاله ، الرقة التى فى صوته كلها تتسرب إلىّ من الهاتف .

حين انحدرت إلى الطابق الأسفل كانت صاحبة التُّزلّ جالسة فى الزاوية المعتادة من أريكتها ، مُحاطة بالأثاث الرث ، كان مكتبها مغطى بكارتونات الصابون ، وبصناديق موانع الحمل ، وصناديق خشب صغيرة تحفظ فيها مواد تجميل غالية الأثمان . كانت الغرفة مفعمة برائحة شعر النساء الذى اكتوى من حرارة أجهزة التصفيف ، تتسرب من « الخانات » المنفردة فى واجهة الغرفة العليا ، ورائحة فظيعة حادة ، لكل ذلك الشعر المحروق يوم السبت . كانت السيدة « ردود » شعشاء ، غير ممشطة الشعر ، أمامها رواية استعارتها من مكتبة ، مفتوحة لا تقرأ فيها طالما هى مشغولة بمراقبتى وقد رفعت سماعة الهاتف إلى أذنى ، بعدها ، ودون أن تنظر إلى طريقها وصلت إلى الزاوية خلف الأريكة ، تناولت قنينة الشنايز وملأت قدحها دون أن تبعد عينيها المتعبتين عنى .

قلت : « هلو ، فريد » .

قال : « كيت ، حصلت على غرفة وبعض النقود ، متى تأتين ؟ » .

- « فى الخامسة ، أريد أن أصنع كيكة للأطفال . هل سنذهب للرقص؟ » .

- « بالتأكيد، إذا رغبت فيه ، هنالك حفلة رقص فى الفندق » .

- « فى البيت الهولندى »

- « أين ذلك ؟ » .

- « شمال المحطة - تسيرين فى شارع المحطة ، ثم تنعطفين وسترين علامة ، يدا سوداء تشير . اتبعى الإصبع المؤشر . . كيف الأولاد ؟ »

- « بخير » .

« اشتريت لهم بعض الشكولاتة ، وسنشتري لهم بعض البالونات ، وأود أن أصرف شيئاً لينالوا شيئاً من الآيس كريم أيضاً ، سأعطيك شيئاً من النقود لهم ، أخبرهم أننى آسف على ضربى لهم . كنت مخطئاً » .

« لا أقدر أن أقول لهم ذلك ، يا فريد » .

- « لم لا ؟ »

- « لأنهم سيكون » .

- « فليكوا ، يجب أن يعرفوا بأنى آسف ، ذلك شىء مهم جداً بالنسبة لى ، أرجوك لا تنسى » .

لم أعرف حينها بماذا أجيبه . لاحظتُ صاحبة النُّزْلِ تملأ قدحها النانى وعلى وجهها ملامح الخيرة ، ترفع الكأس إلى شفيتها ، تترك الشنايز يتدحرج ببطء على لسانها ، ورأيت تعبير امتعاض بسيط فى وجهها حينها يجتاز الشنايز بلعومها .

قال فريد : « كيت ؟ » .

- « نعم ؟ »

- « أخبرى الأولاد بكل شىء ، رجاءً لا تنسى ، وأخبريهم عن الشكولاتة ، والبالونات ، والآيس كريم .

عدينى بذلك .

قلت : « لا أستطيع ، هم اليوم سعداء جداً ، فقد سُمِحَ لهم بأن يستعرضون فى الموكب . لا أريد أن أذكرهم بالضرب ، سأخبرهم فيما بعد ، فى وقت ما نتحدث فيه عنك . »

- « هل تتكلمون عنى ؟ » .

- « نعم ، هم يسألوننى أين أنت ، وأقول لهم إنك مريض . »

- « مريض ؟ » .

- « نعم أنت مريض . »

ظل صامتاً ، واستطعتُ أن أسمع نَفْسَه فى سِاعة الهاتف .

قامت صاحبة النُّزل وهزت رأسها بعزم .

« قد تكونين محفة ، قد أكون مريضاً فعلاً . إذن ، أراك فى الخامسة . الإشارة باليد السوداء فى منعطف شارع المحطة . لدى ما يكفى من النفود ، وسنذهب للرفض . . وداعاً يا حبيبتي . »

- « وداعاً »

وببطء أنزلت سِاعة الهاتف إلى مكانها ، ورأيت صاحبة المنزل تضع قدحاً آخر على المنضدة ، وتقول لى :

- « تعالى يا فتاتى ، تناولى شراباً » .

تسنى لى أشعر بالجرأة ، أفضيتُ لها بشكواى من أحوال غرفتنا ، لكنها كانت كلما شكوتَ تصدّنى ، تسكب لى شراباً وتترك لحكمة عينيها المتعبتين أن تؤثرا فى ، أكثر من ذلك ، هى تعرف كيف تقنعنى بأن إصلاح الغرفة يكلف أكثر من إيجار ثلاث سنوات لها . إنها هى التى علمتنى شرب الشنايز . أولاً وجدت البراندى موجعاً ، وطلبت اللىكور .

قالت : « لىكور ؟ مَنْ على الأرض يشرب لىكور ؟ »

من ذلك الوقت عرفت أنها على حق : فهذا النوع من البراندى جيد .

« هَلُمّى ، الآن ، أيتها الفتاة ، اشربى » .

جلست قبالتها ، نظرتُ إلى بتحدٍ لسّكّير ، واجتازت نظرتى أنا كل وجهها لتقع على صناديق كارتون ممزقة عليها هذه الكلمات :

« بضاعة . . انظر إلى علامة الصقر التجارية »

قالت : « هذه لك » .

ورفعت قدحى ، قلت :

« أنت أيضاً . . »

وتركتُ البراندى اللاذع يجرى فى ، وفى تلك اللحظة فهمت ، فهمت الرجال السكّيرين ، فهمت فريداً ، وكل الآخرين الذين يدمنون الشرب .

وهى تملأ قدحاً آخر بسرعة ، فاجأتنى :

- « أيتها الطفلة المسكينة ، لا تأتى إلى هذا المكان ثانية لتبثى الشكوى .

فلا علاج للفقر . ابعشى الأولاد إلى هذا اليوم ، يمكنهم أن يلعبوا هنا . هل أنت ذاهبة ؟ » .

قلت : « نعم أنا ذاهبة ، لكنى طلبت من رجل شاب أن يظل مع الأطفال » .

- « طول الليل ؟ » .

- « نعم ، طول الليل » . ألمّ واهن تصاعد إلى وجهها ، فأتسع مثل إسفنجة صفراء ، لدقيقة ، والتّم مرة أخرى :

« أوه ، فهمت ، خذى لهم إذن بعض الصناديق الفارغة » .

قلت : « شكراً » .

كان زوجها سمسار أملاك ، ترك ثلاث بنايات ومحلّ تجميل شعر ، ومجموعة صناديق ملأى :

- « يمكنك أخذ صندوق آخر » .

- « أوه ، لا ، شكراً » .

ما إن لامست يداها الراعشتان القنينة حتى تشبثت بها ، ثم امتلأت حركاتها برقة أخافتنى ، أعادت ملء قدحى ، قلت :

- « أرجوك ، لا أريد مزيداً » .

قالت : « أذن سأشربه أنا » .

ونظرت إلى بحدة مضيقة عينيها ، وسألتنى :

« أحبلى أنت يا صغيرتى ؟ »

فزعت ، فأنا أحياناً أفكر بأنى حامل فعلاً ، لكنى غير متأكدة حتى الآن . وهزرت رأسى .

« مسكينة أيتها الطفلة ، سيكون ذلك مزعجاً لك ، طفل آخر . . » .

قلت بدون تأكيد : « لست أدرى » .

« يجب أن تغيرى لون صبغ شفّيتك » .

وأعطتنى قلم حمرة آخر ذا لون حاد ، نهضت يتموج جسدها الثقيل داخل رداء ملون ، شقت طريقها بين كرسى وأريكة ومكتبة :

« تعالى معى » .

تبعتها فى المخزن : رائحة الشعر الذى ألحّ عليه الكيُوثُ السبرى « المعطر يعلّقُ فى الجو ثقيلًا مثل سحابة وفى الغرفة مسدلة الستائر ، نصف المضاءة ، استطعت أن أرى ماكينات تجعيد الشعر بارزة ، والمجفّفات ، لنيكلها لمعّ واهن فى الضوء الرصاصى لعصر يوم الأحد .

« نعالى ، أدخلى ! »

وراحت تبحث فى درج مملوء بلفائف شعرٍ ، تتناثر حواليتها أفلام حمرة وعلب تجميل ملونة .

التقطت قلم حمرة وناولتنى إياه قائلة :

- « جرّبى هذا » .

أدرت الغطاء المعدنى لذلك القلم ، فرأيت الأحمر الغامق ، وقد برز ملتفًا مثل دودة صلبة ، سألتها .

- « الغامق ؟ » .

- « نعم هذا الغامق ، هيّا ضعى بعضاً منه .

المرايا هنا مختلفة تماماً ، تمنعك من رؤية ما فى الخلف ، هى تحمل وجهك إلى أمام تماماً وقريباً من وجه المرأة ، تجعله أكثر جمالاً مما هو عليه - فتحت شفتى ، انحنيت إلى أمام ، وبعناية أمررت عليها الأحمر الغامق ، لكن عينيّ ما اعتادتتا مثل هذى المرايا ، كانت عيناى تتسعان ، ونظرنى المحدّقة تحاول الانزلاق عابرة وجهى . لكنى نظرى فى هذه المرأة يغادر سطح المرأة إلى الأبد ، يرتد إلى نفسى ووجهى ، شعرت بدوار ، وارتعشت قليلاً ، إذ أحسست بيد صاحبة المحل على كتفى ورأيت وجهها المخمور وشعرها الأشعث ورائى ، فى المرأة همست لى :

« اجعلى نفسك حلوة لحبيبك ، يا حمامتى الصغيرة ، اجعلى نفسك حلوة له ، لكن لا ندعيه يجبلك ، ذلك هو الشىء الصحيح يا صغيرتى ، أليس كذلك ؟ ، ذلك هو المنجى » .

خطوت إلى وراء مبنعدة من المرأة ، وأدّرتُ قلم الحمرة لأدخله فى أنبوبته ، وقلت :

- « نعم ذلك هو الشىء الصحيح . لكنى لا أملك أية نقود لهذا القلم ؟ » .

- « أوه لا نبالى ، يمكن الانتظار - يمكنك الدفع فيما بعد » .

- « نعم فيما بعد » .

أجبتها ومازلت أنظر فى المرأة ، أنزلق فيها كما أنزلق فوق جليد ؛ غطيت عينيّ بيديّ ، وأخبراً خطوت إلى وراء ، وضعتُ بعض صناديق الكارتون

الفارغة على ذراعى الممدودة ، وضَعْتُ قلم الحمرة فى جيب صدرى
وفتحت لى الباب .

قلت لها : « شكرًا ، مع السلامة » .

قالت : « مع السلامة » .

لا أفهم كيف يثور فريد بسبب ضجيج الأولاد ؟ إنهم هادئون ، خاصة ،
حين أقف بجوار الأريكة أو المنضدة ، أنصت لهم ، أجدهم ساكتين غالباً ،
حتى أنهم ألتفت فجأة لأتأكد من أنهم لا يزالون هناك ، هم يبنون دوراً من
صناديق الكارتون ، يتهامسون معاً ، وحين التفت يفرعهم الخوف فى عيني
ويدفعهم للسؤال :

« ما الأمر يا أمنا ؟ ما الأمر ؟ » .

فأجيبهم : « لا شىء ، لا شىء » .

وأستدير عنهم لأدحرج عجيتى ، أخشى من تركهم وحدهم بعد ذلك ،
اعتدت أن أتركهم وحدهم عصرًا فقط ، مع فريد مرة واحدة قبل كل ليل .
الرضيع نائم ، وأريد أن أغادر قبل أن يستقيظ .

فى الغرفة المجاورة أنين مرعب ، المغازلات والضربات المخيفة التى
تصحب مضاجعتهم ، هدأت الآن . إنها نائمان نومة قبل الذهاب إلى
السينما ، بدأت أننا يجب أن نشترى مذياعاً ، لأدفع بصوته هذا الأنين الذى
يصدر عنها الآن ، صيحات الكلام العالية غير الاعتيادية التى بدأت حال
بدأ ذلك الفعل الشنيع ، هى التى ملأتنى بالقرف - بالرعب ، بالرعب
وحده - تلك الأحاديث غير الاعتيادية شقت طريقها إلى الخارج وتلاشت

فيه . أسأل نفسي إن كان الأولاد لم يبدأوا بعد في فهم ما يجري . على أية حال كانوا يسمعون ذلك ، وملاحم تشبه تلك الحيوانات المرتجفة التي تتحسس الموت . سأحاول ارسالهم إلى الشارع إن أمكن ذلك . لكن أوقات العصر المبكرة في أيام الأحد مثقلة عادة بالكآبة التي تكسف حتى الأطفال . وجنتاى بدأتا تتقدان حين سماعى ذلك الشؤم وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين سماعى ذلك الشؤم ، وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين بدأت الأصوات الأولى ، لكن ابتداء التعذيب واستمرت الضربات المتقطعة على السرير ، وأصوات المضجع ، والصرخات التي تشبه تلك التي يطلقها لاعبو الأكروبات وهم يتأرجحون تحت القبة الكبيرة ويغيرون أراجيحهم وسط الهواء . لكن صوتى تشقق ، وبحث سُدَى عن نغمات بقيت في رأسى ، فما استعدت واحدة منها . مرت لحظات ، لحظات لا نهاية لها ، في الكآبة الرصاصية لما بعد ظهر الأحد . سمعتها يشعلان سيجارتين ، وامتلاً الصمت الذى أعقب ذلك بالاشمئزاز . ألقيت العجينة التي كانت في يدي على المنضدة ، دحرجتها إلى وراء وإلى أمام ، مُحدِّثة قَدْر ما أستطيع من ضوضاء ، ألقيت العجينة ثانية ورحت أفكر بملايين من أجيال الفقراء الذين عاشوا دون أن يمتلكوا حتى غرفة يتضاجعون فيها - ودحرجت العجينة ، طويت حافاتها، وضغطت الفاكهة في العجين .

كانت الغرفة مظلمة في آخر الممر الطويل نظرت إلى النافذة ، وقعت عيناى على حجارة الحائط الداكنة ، حمراء ، مزينة بتصميم بُنى غامق كان في الأصل أصفر ومن طابق مرصوف بصياغة - المفتاح الإغريقى . أنظر متجاوزة الحائط الذى يحجب حقل رؤيتى ، فتقع عيناى على رصيفى

المحطة الفارغين الآن . كانت هناك امرأة تجلس على مصطبة ونحمل طفلاً ، والفتاة - من الكشك لطيف الشراب - وقفت خارج الباب تتلمل بمئزرتها البيضاء ، تحركها أعلى وأسفل فخذها . كانت الكاتدرائية وراء المحطة ، والأعلام مثبتة عليها . أحسست بالإحباط من مشهد الناس المزدحمين حول المذبح الذى يلى المحطة الخالية أخرجني صمت الزحام خارج الكاتدرائية . ثم رأيت راعى الأبرشية فى ردائه الأحمر يقف قرب المذبح ، وفى اللحظة نفسها سمعت صوته ينطلق واضحاً وعالياً من مكبرات الصوت عبر المحطة الخالية .

غالباً ما كنت أسمع راعى الأبرشية ، وتثقل روحى تراتبله - أنا لا أعرف ما هو أسوأ من غرفة النوم ، لكن الآن بعد سماع صوت راعى الأبرشية يأنى عبر مكبرات الصوت ، وفعت على الضفة التى كنت أبحث عنها طبل هذا الوقت . لقد عرفت الآن أنها صفة بسيطة ، وأنها كانت على طرف لسانى ودائماً ما تنزلق عنه . إن الراعى يستخدم فى لهجته تلك الظلال التى نجعل صوته شعبيًا ، وإن لم يكن راعى الأبرشية شعبيًا . مفردات تراتبله مسنمة دائماً من قوائم كلمات الافتتاح فى الكنب الدينية ، تلك التى افنفت حبويتها خلال الأربعين سنة الماضية ، كلمات صارت كليشيات ، أنصاف حقائق . الحقيقة لا تضجر ، لكنى راعى الأبرشية له القدرة على جعلها مضجرة .

« فليكن السيد ، إلهنا فى حياتنا اليومية - نشيد له برجا فى قلوبنا ... و » .

أصغيت دفائق لهذا الصوت الذى يأتى عبر بالرصيف الخالى ، وأنا أرى فى الوقت نفسه ذلك الشكل ذا الرداء الأحمر يقف هناك إلى جانب مكبر الصوت الذى نكلم بصوت نتضخم اللهجة فيه لأقصى اختلافها ، وفجأة

جاءتنى الكلمة ، الكلمة التى بقيت طويلاً أبحث عنها ، وهى بسيطة جداً ، إلى حَدٍّ أنها لا تخطر لى على بال ، تلك هى : إن الرعى كان «غيبًا» . عاد بصرى إلى ما فوق المحطة ، حيث لا تزال الفتاة تتلمل من صدريتها البيضاء والمرأة على المصطبة تطعم رضيعها من القنينة . جالت نظرتى على صياغة المفتاح الإغريقى ذى اللون البنئى الغامق فوق حجارة الحائط ، واجتازت إطار النافذة الكابية ، عائدة إلى غرفتى . أغلقت بعدها النافذة من فوق السرير وبدأت أدخن .

لم أعد الآن أسمع شيئاً . لا صوت بعد فى المبنى ، جدران غرفتى مغطاة بورق مظلل بالأحمر ، لكن الرسوم الخضر التى تشبه أشكال القلوب قد تلاشت ، فهى الآن تغطى ورق الحائط مثل خربشات بقلم الرصاص محوّة ، وانتظامات غير متوقعة ، والثابتة الخفيفة من أشياء الغرفة بشعة ، مثل كل الثوابت : قدح بشكل بيضة مملوء بتعرقات رخامية ، فيه مصباح قوة خمسة عشر واطاً . وخزانة الملابس الضيقة لَوْنُهَا الصَّدَأُ . واضح أنها لم تُستعمل ، ولاهى معرضة لذلك . الناس الذين يشغلون هذه الغرفة ليسوا من النوع الذين يفتحون حقائبهم ، إن كانت لهم أية حقائب ، هكذا الأمر . ليس من جاكبتات يعلقونها على مشاجب الملابس ، ولا قمصان ترصّف بعيداً ، والمشجبان اللذان أراهما فى الخزانة المفتوحة كانا ضعيفين ، وزنُ سترتى كاف لكسرهما ، فهنا يمكن أن نعلق سترتك على كرسى ، ترمى سروالك عليه دون اهتمام بطبّه ، هذا إذا ما خلعتة أصلاً - وانظر إلى أدنى : هذه الأنثى شاحبة ، وربما محمرة الخدين ، ثيابها مرمية على الكرسى الآخر . الخزانة لا ضرورة لها ، فوجودها رمزى ، مثل المشاجب التى لم يستعملها أحد . المغسلة ليست أكثر من منضدة مطبخ اعتيادية يغطس فيها حوض

غسيل ، وإن كان حوض الغسيل هذا لم يغطس . كان مطليًا ، وفي أماكن منه كسور . صحن الصابون من الصيني الرخيص عليه إعلان عن مصنع إسفنج .

لابد أن قدح فرش الأسنان قد انكسر ، وما استُبدل بغيره . ليس من واحد على أية حال . ولابد من أحد قد شعر بضرورة توفير صور للجدران ، وهل أكثر ملائمة من صور مطبوعة للموناليزا ، والتي بدت كما لو كانت يوماً ملحقة في مجلة شعبية .

الأسيرة جديدة لا تزال توضع برائحة الخشب الجديد، وهي خفيضة قائمة اللون . شرشف الفراش القطنى لم يُرْحَنى . نمت طيلة الوقت الذى مرَّ بكامل ثيابى ، أنتظر زوجتى التى قد تجلب معها شرشفنا الخاص . كانت البطانيات من صوف ، ذات لون أخضر مزرق ، مستهلكة لحد ما ، والرسوم التى عليها - وهى دبة تلعب كرة - قد تحولت بشرًا يلعبون كرة ، لا تُميَّزُ بعدُ وجوه الدبة هى تشبه الآن كاريكاتيرًا لرياضيين برقاب ثيران ، تقذف فقاعات صابون إلى وراء وإلى أمام . دَقَّ الجرسُ : الثانية عشرة .

نهضتُ لآتى بصحن الصابونة من المغسلة ، وبدأت أدخن . بدا مزعجاً أنى لا أستطيع الكلام عن حالى لأحد ، لا أستطيع شرح الموقف الحقيقى لأحد ، لكنى محتاج للنقود . محتاج للغرفة لأنام مع زوجتى فحسب . نحن نعيش فى مدينة واحدة ، لكننا منذ شهرين نلتقى لقاءات متقطعة فى غرف الفنادق . أحياناً ، حين يكون الجو دافئاً نلتقى فى الحدائق ، فى ممرات البنايات المدمرة ، فى قلب المدينة ، وحيثما نكون آمنين لا يكتشفنا أحد . شقنا جد صغيرة ، هذا كل ما فى الأمر . إضافة إلى ذلك ، الحائط الذى

يفصلنا عن جيراننا خفيف جداً . وشقة أوسع تقتضى مالاً ، تحتاج إلى ما يُعرف بالعزم ، ونحن لا نملك عزمًا ولا مالاً.

حتى زوجتي ليست لها طاقة على شيء .

آخر مرة نمنا معاً كانت في حديقة عامة في الضواحي ، كان ذلك مساء وكانت تصل إلى أنوفنا من الحقول رائحة جزّ الكرات ، وعلى الأفق تقذف المداخن كتلاً من دخانٍ في السماء المحمرة . هبطت الظلمة علينا سريعاً ، وصارت السماء الحمراء قرمزية ، ثم سوداء ولم نعد نرى ضربات الفرشاة الجريئة للمداخن نافثات السواد - شذى الكراث صار أقوى ، صار ممترجاً بحدة البصل . بعيداً وراء تجويف رملي ، تتقد أضواء ، وقريباً ، في الطريق إلينا ، رجل على دراجة : شعاع ضوء يرتعش على طول الطريق كثير المطبات يقطع الضوء مثلاً مظلماً في السماء مفتوحاً من جهته اليسرى . كان هنالك صرير ليراعٍ سائبة .

ضربات واقية الطين تتلاشى بعيداً بإيقاع يكاد يكون منتظماً . لو بقيت أنظر لرأيت ، بعيداً في الممر ، جداراً أكثر عتمة من ظلمة السماء . ومن وراء الجدار تأتي وقوقات إوز، وصوت امرأة متعب تدعوهم للإطعامهم .

كل ما كنت أراه من كيت على الأرض المعتمة وجهها الأبيض والارتعاش الأزرق الغريب لعينيها حين تفتحهما . كان ذراعها أبيضين أيضاً وعارين . بكت بمرارة ، وحين قبلتها ذقت طعم دموعها . شعرت حينها بدوار ، كانت قبة السماء تميد بي قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء . وراحت كيت تبكي بمرارة أكثر ، لم أشهد لها كذلك من قبل .

نفضنا الأوساخ عن ثيابنا ، وعلى مهل سرنا إلى موقف الرقم (٩) . ومن

بُعْدِ سمعنا الترام يستدبر على العقدة الكهربائية ، رأبنا الشرارات تنطلق من السلك فوقها .

قالت : « بدأت نبرد ؟ » .

قلت : « نعم » .

« أين ستنام الليلة ؟ » .

« في المجمعات السكنية » .

وانحدرنا في زقاق دمرته المعارك يوصلنا إلى الترام .

جلسنا في حانة . طَلَبَ كُلُّ مِنَّا شيئاً من البراندى ، وضعنا قطعة نقد في « مكنة - البنبول » ، ولاحظنا كرات صغيرة تتهاوى في الحوض الخشبي ، ونأخذها واحدة بعد أخرى . إنها تتدحرج حول النوابض الحديدية لترتطم بموصلات معدنية ، فتصدر أزيزاً زجاجياً ناعماً . كيت وصاحبة الحانة كانتا تراقباننى ، وحين مضيت في اللعب ، ويدى على شعر كيت ، شبكت صاحبة الحانة ذراعيها وأضاءت وجهها الثقيل ابتسامة ارتياح .

مضيت في اللعب ، وكيت تتابعنى ، دخل رجل في الحانة ، انزلق إلى مقعد من مقاعد البار ، وضع محفظته على مقعد ورائه ، وطلب شنايز . كان وجه الرجل ملطّخاً ، ويداه بُنِّيَتين ، والضوء الأزرق في عينيه بدا أخف مما هو عليه . نظر إلى بدى التى ما زالت على شعر كيت ، ثم إلى ، وطلب كأس شنايز آخر . بعد ذلك بقليل وقف إلى جانبي وراح يلعب بالمكنة الأخرى ، والتى بدت بدائية جداً تشبه مكنة محاسب : كرة . شق ، سطح معزول بلون محمرّ يظهر ثلاثة أعداد كبيرة في صف واحد . وضع الرجل قطعة

نقد ، سحب العتلة ، ارتجت الكرات في الأعلى وضجت - ثم ، وفي فترات -
جاءت ثلاث قرقرعات وظهرت الأرقام ٦ ، ٤ ، ١ على ذلك السطح .

قال الرجل . « لا شيء » .

وأسقط قطعة نقد أخرى ، تسارعت الأقراص ، ضربت ومرت ،
ضربت ضربات أخرى - لحظة صمت ، وفجأة جاءت قطع النفود تتصادم
خارجة من فوهة المكنة . قال الرجل :

- « أربعة » .

وابنسم إلى وقال :

- « هذا أفضل » .

نظرت إلى كيت ، أخذتها ويدي في شعرها ، فقالت :

- « يجب أن أذهب » .

في الخارج كان الترام يستدير حول المنحنى ، يصرّ حول عفدة الأسلاك ،
فدفعت ثمن كأسى البراندى وأخذت كيت إلى موقف الحافلة . قبلنها ،
وقد دخلت ، ووقعت هي يدها على خدي ، ولوّحت لي بيدها حتى لم أعد
أراها .

حين عدتُ إلى الحانة كان الرجل ذو الوجه الأسود لا يزال واقفاً إلى
جانب العتلة . طلبت براندى وأشعلت سبجارة ، ورحنت أراقبه . فكرت :
بإمكانى تمييز الإيقاع حين تبدأ الأقراص تدور ، شعرت بالقلق حين جاء
صوت التوقف قبل أوانه ، حسب تقديري ، واستطعت أن أسمع الرجل
يربرب :

« لا شىء - لا شىء - اثنان - لاشىء - لاشىء » .

لم يكن وجه صاحبة الحانة مبتسماً حتى خرج الرجل من الحانة لا عناء ، فتغيرت بعده . وبدأت أسحب العتلة . لا أنسى أبداً لحظة ضغطت العتلة إلى أسفل لأول مرة ، فدارت الأقراص بسرعة بدت خيالية - وكيف كانت ثلاث قرععات فى فترات مختلفة ، أصغيت بعدها لضجيج تساقط النقود :

لم يخرج شىء ! .

بقيت هناك نصف ساعة تقريباً أشرب شنايز ، وأحرك العتلة ، أصغى إلى الدوران الجنونى للأقراص والقرعة اليبسة . وحين غادرت الحانة لم أكن أملك فلساً فى جيبى . فكان على أن أقطع كل الطريق مشياً إلى شارع «أختر» حيث المجمعات السكنية ، ثلاثة أرباع الساعة أقطعها الأقدام تقريباً .

منذ ذلك الوقت صرت أقصد الحانات التى أجد فيها ذاك النوع من المكينات ، أصغى إلى إيقاع الأقراص الساحر ، أنتظر القرععات ، وأتلقى صدمة كلما توقفت الأقراص ولم يخرج شىء .

إيقاع لقاءاتنا هو الذى لم نكتشفه بعد . المفاجآت تتحكم فى درجته . يمكن أن يحدث لقاءنا فى المساء ، قبل أن أبدأ البحث عن مكان أقضى فيه الليل ، غالباً ما أذهب إلى بنايتنا وأدعو كيت لتتزلزل - أقرع الجرس فى الممر المؤدى إلى الشقة بحيث لا يعرف الأولاد أنى قريب منهم . الشىء الغريب أنهم بدأوا يحبوننى و يفتقدوننى ، و يتحدثون عنى ، بالرغم من أنى كنت أضدمُ بذلك المظهر الغريب الذى يلوح على وجهى إذا ما ألقىت نظرة على

نفسى فى المرأة : شعر غير حلىق ووجه شاحب ، سابح فى العرق . يداى
تغطيا أذنى لكى لا أسمع صراخ الولد الذى انهلتُ عليه ضرباً لأنه كان
يغنى . .

مرة اكتشفتنى كارلا وكليمنز ، عصر يوم سبت ، وقد كنت أنتظر كيت
فى الأسفل ، فى مدخل البناية . فزعتُ لرؤية وجهيهما يتوقدان عند رؤيتى .
اندفعا إلىَّ ، تعلّقَا بى ، تساءلا إن كنتُ على مايرام ، وصعدت معهما إلى
أعلى . ولكن ما إن دخلت غرفتنا حتى تسلّط علىّ الرعب مرة أخرى - رائحة
الفقر المفزعة - حتى ابتسامة رضيعنا ، الذى بدا يعرفنى ، وسرور زوجتى :
ما كان لأى منهما قوة على إزاحة الهياج الكريه الذى تصاعد فىّ حالما بدأ
الأطفال يرقصون ويغنون . غادرتهم قبل أن يفلت منى ما لا أستطيع رده .

لكن غالباً ، ومتى ما كنت جالساً فى البار تلوح أوجههم حلوة بين
أقداح البيرة والقنانى التى أمامى ، كما لم تفارقنى حتى الآن صُورهم هذا
الصباح وهم فى المسيرة . .

قفزت من السرير عند بدء إشارات ترتيبلة الختام خارج الكاتدرائية .
فتحت النافذة ورأيت الشكل الأحمر لراعى الأبرشية يمشى خلال الجموع .
فى النافذة أدنى منى ، رأيتُ شعراً أسود لامرأة على ثوبها بعض قشور ،
بدا رأسها وكأنه كان نائماً على النافذة . التفتت إلىّ فجأة ، فكان وجه
صاحبة البيت ، فكان الوجه الزيتى النحيف ، نادى :

« إذا أردت أن تأكل فالأفضل أن تعجّل » .

وأنا أنزل السلم ، بدأت مدفعية شركة معاجين الأسنان بإطلاق قذائفها
على السّد مرة أخرى .

نضجت « الكيكة » جيّداً ، وأنا أخرجها من الفرن فاحت رائحة النضج الحلوة في الغرفة . كان الأطفال كلهم مبسمين . أرسلت « كليمنز » لـ جلب بعض « الكريم » ملأت أنبوبة منه ، لأسرّ الأطفال ، ورحت أرسم عليها خصلاً ودوائر . الرسوم ارتفعت قليلاً فوق وجه الكيكة الأرجواني المزرق رأيتهم يلتقطون بقايا الكريم من الإناء ، وكنت مسرورة لرؤية كليمنز وهو يتهيب أن يلتقط . . . وحين ظل منه ملء ملعقة أعطاه للرضيع الذي جلس في مقعدة العالی يتسم لي وأنا أغسل يدي وأضع على شفتي حمرة جديدة .

- « هل ستبتعدين طويلاً ؟ » .

- « نعم حتى صباح الغد » .

- « هل سيعود أبونا بسرعة »

- « نعم » .

التنورة والقميص معلّقان على جانب دولاب المطبخ - وسمعت الشاب الذي سيرعى الأطفال يصل . هو يستوفي ماركاً واحداً عن كل ساعة ، ولكن من الرابعة بعد الظهر حتى السابعة في الصباح ، يعنى خمس عشرة ساعة ، أى خمسة عشرة ماركاً ومفهوم أنه يحصل على وجباته ، وفي المساء حين يبدأ واجباته الحقيقية ، يجد سجائر إلى جانب المذياع ، استعرت المذياع من عائلة هوبفز .

بدا « بلرمان و مولعاً بالأطفال ، وهم على أية حال يحبونه . وكلما تركتهم معه حدثونى عن بعض اللعب التى يلعبها معهم ، والقصص التى يرويها لهم . لقد زكاه لى القس ، وأعلمته بوضوح ، بأسباب تركى الأطفال ، قَطَّب قليلاً بدون ارتباك ، إذ رأى فمى مطلياً بحمرة الشفاه .

ارتديت قميصي ، وشددتُ شعري ، ودخلت الغرفة .

« بلرمان » أتى بفتاة معه ، فتاة لطيفة شفاء حملت الرضيع في الحال بين ذراعها ، تدور له « خشاشة » بأصبعيها ، فصار يتسلى بها . قدم لي « بلرمان » الفتاة ، لكنني لم ألتقط اسمها . ابتسامتها ، رقّتها اللامتناهية نحو الطفل ، كانا يتسمان بشيء من الاحتراف ، وقد أخبرتني عيناها أنها تعتبرني غير صالحة لأكون أمًا .

كان لبلرمان شعر أسود جعد ، وبشرة دهنية شاحبة ، وأنفه دائماً منغضن .

سألته الفتاة : « أيمكن أن نخرج مع الأطفال ؟ »

ورأيت عيني كليمنز الراجيتين وهزة رأس كارلا فرضيت . رحت أطر داخل الدرج بحثاً عن بعض النقود والشيكولاته ، لكن الفتاة رفضت ذلك . قالت :

« أرجوك ، إن سمحت ، أود أن أدفع أنا ثمن الشيكولاتة و . . » .

« طبعاً . كما تودين » .

وأرجعت النقود إلى الدرج ، وشجرت بالتعاسة أمام هذه الشخصية اللامعة للنسوية البافعة .

قال بلرمان : « يمكنك أن تثقي بكولي ، فهي مجنونة بالأطفال » .

نظرت إلى كل واحد من أطفالى على النوالى : كليمنز ، كارلا ، والرضيع ، وأحسست بعيني امتلأتا بالدموع .

أشار لي كليمنز برأسه وقال :

« الأمر على ما يرام يا أمى ، لاشىء يحدث ، لن نقرب من الماء » .

قلت للفتاة : « أرجوك ، لا تقربوا من الماء » .

قال بلرمان : « طبعاً لا ! » وضحكا معاً .

ساعدنى بلرمان على ارتداء جاكيتى ، التقطت حقيبتى ، قبلت الأطفال ، وباركتهم . شعرت بعدم أهميتى .

توقفت لحظة وراء الباب ، سمعتهم يضحكون فى الداخل ، وببطء هبطت على السلم .

كانت الساعة الثالثة والنصف ، ولا تزال الشوارع خالية . كان بعض الأطفال يلعبون « الهوب سكوتش » ، تطلعوا إلى أعلى حين سمعوا خطواتى . تصل إليهم ، كان كل شىء هادئاً فى الشارع الذى يسكن فيه مئات الناس . هدوء ، إلا من خطواتى . من أقصى الشارع سمعت ضربات بيانو خافتة ، ومن وراء ستارة لا تكاد تتحرك ، رأيت امرأة عجوزاً بوجه شاحب تحمل لقيطاً بدينياً بين ذراعيها . ومع أنا نعيش هنا منذ ثمانى سنين ، فلم أشعر بدوار / كما أشعر الآن ، حين أنظر إلى أعلى ، فالجدران الرمادية التى أصلحت رُقْعاً رُقْع ، تبدو مائلة إلى أمام ومن قسمها العلوى ، ومن شريط السماء الرمادى الضيق كان يأتى إلى جاريأ صوت « البيانو » الأصوات حبيسة ، والميلودى تكشف عن أنامل شاحبة لفتاة بحثت ولم تجد . مشيت أسرع ، تعجلت أكثر لأتجاوز نظرات الأطفال التى بدت تحمل تهديداً .

ماكان على فريد أن يتركنى وحيدة ، ومع أنى أتطلع لملاقاته ، فقد أحزننى أننى أترك الأطفال لأكون معه . متى ما سألته عن مكان سكنه ، يتخلص من السؤال ، وهذه المجمعات السكنية التى يقول إنه يسكن فيها

طيلة الشهر الماضى ، فيها ناس لا أعرفهم ، وهو لم يعطنى عنوانه نلتقى أحياناً فى المساء ، فى مقهى لقاءً قصيراً لنصف ساعة ، تُعنى صاحبة البيت خلال ذلك الوقت بالأطفال ، نتعانق على عجل فى موقف الترام ، وحين أصعد إلى الحافلة يظل فريد واقفاً يلوح لى هناك . تمرُّ ليالٍ علىّ وأنا مطروحة على الأريكة أبكى وكل ما حولى فى صمت . أستمع إلى تنفس الأطفال ، الرضيع يفز غير مرتاح بسبب ظهور أسنان له . كنت أدعو وأصغى إلى صوت الترنم الأجوف فى الخارج يقرقع فى جريانه من حولى كنت فى الثالثة والعشرين حين تزوجنا - مرت خمس عشرة سنة على ذلك ، سنوات تدحرجت واختفت بدون أن أنتبه إليها . وكل الذى أريد الآن هو أن أرى وجوه أطفالى ، مدركة أن كل سنة تضاف إلى حياتهم مأخوذة من حياتى .

فى ميدان « توخوف » ركبت حافلةً ورحت أتطلع للشوارع الصامتة ، لم أر إلا بضعة أشخاص واقفين عند كشك السجائر . نزلت فى شارع «بنكام» ، ودخلت فى رواق كنيسة الأحران السبعة لأسأل عن وقت قداس المساء .

كان الرواق مظلماً ، بحثت فى حقيبتى عن علبة كبريت بين سجائر منفردة ، وقلم حمرة واحتياجات مغاسل ، حتى وجدت أخيراً علبة الكبريت ، وأشعلت عوداً . ففرت : فهناك فى الجانب الآخر من منطقة الضوء شخص ما واقف فى مشكاة مظلمة. شخص لم يتحرك . أردت أن أصبح بشيء يشبه الترحيب أهلاً ، لكن صوتى التّم من خوفٍ ، وخذلنى خفق قلبى . لم يتحرك الشكل ، كان يحمل شيئاً فى يديه ، يبدو فى الظلام مثل عصا رميت عود الثقاب المشتعل وأشعلت آخر . وحتى حين أدركت أنه تمثال ، لم يهدأ خفق قلبى . اقتربت منه خطوة ، وفى الضوء رأيت ملاكاً

حجرًا خصل شعره تتدلى ويحمل في يده زنبقة . انحنيت عليه حتى كان
حنكى يلامس صدر التمثال . نظرت طويلاً في وجه الملاك . طبفه كثيفة
من الغبار يغطي وجهه وشعره . وحتى فتحتا العينين العمباوبن كانا
مملوءين بقشور سود . بعنابة نفخت عليه ، وأزحت ما تراكم فوفه من غبار
مخلصة ذلك الكائن اللطيف منه . وفجأة رأيت أن تلك الابسامة مصنوعة
من جص ، وأن تلك الابسامة الساحرة قد مسحها النفخ مع العبار . ومع
ذلك بقيت أنفخ الغبار عن الخصل الجميلة ، عن صدره ، وعن الرداء
المتدلى . وباهتمام زمت سُفْنِي ودنوت أكثر أنظف الزنبقة . كان فرحي بزداد
بازدياد وضوح الألوان المعفّرة ومعها الألم الجامد للمعبودات التجارية .

استدرتُ مُتَرَيِّئَةً ، وتقدمت أبعد داخل الروافق لأرى إعلانات الكنيسة .

أشعلت عود نقابٍ آخر ، لاحت وراء اللوحة حمرة معنمة لمصباح دائم
الاشتعال . فزعت وأنا أجلس أمام لوحة الإعلانات السوداء : فقد جاءني
هذه المرة شخص من الخلف . التفت ، وتنفس الصعداء إذ رأيت وجه
القس الفلاحى الساحب ، وقف فبالتي ، بدت عيناه حزيتين . انطفأ عود
النقاب ، وسألنى فى الظلام :

« هل تبحثين عن شيء ؟ »

قلت : « قداس ، أين يُقام القداس فى المساء ؟ » .

قال : « القداس المقدس ، فى الكاتدرائية ، فى الخامسة » .

رأيت شعره ، أشقر مرسلاً ، عيناه شعثا بكدر ، سمعت الترام فى
الخارج يستدير على المنعطف ، سمعت سيارات تتصايح ، وفجأة قلت فى
الظلام :

« أريد أن أعترف » .

دُهَشْتُ من نفسى ، لكنى استرحت أيضاً . وقال الفس ، كأنه كان
ينظر ذلك :

« تعالى معى »

قلت : « كلا ، هنا من فضلك »

قال بودّ : « غير ممكن هنا ، فالموعظة ستبدأ بعد خمس عشرة دقيقة ، وقد
يجىء الناس . كرسى الاعتراف فى الداخل . » .

شعرت بنبض فى الظلام . يمر تيارات باردة ، اقتربت من الملاك
الخصى ، المصباح الثالث البعيد واضح فى المشهد أمامى على أن أخبر القس
بكل شىء ، أن أهمس فى أذنه فى الظلام ، وأن أسمع الغفران همساً ، ولكن
بدلاً من ذلك تبعته طائفة فى الفناء . الحماسة التى اتقدت فى لحظة ،
تسرّبت ونحن سائران بين قطع الجص المتساقطة من المبنى ، جص وكسر
من حجارة رملية تتساقط من حائط الكنيسة باتجاه البيت الرمادى الصغير
الذى يقع ملاصقاً لحائط موقف الترام ، حيث صوت طرّق المعادن يخترق
سكون عصر يوم الأحد .

حين فتحت الباب ، تطلعت فى وجه مدبرة المنزل المندهش الفظ ،
والتي نظرت إلى بارتياح .

كانت القاعة مظلمة ، وقال لى القس :

« انتظرى لحظة من فضلك . »

لا أستطيع أن أرى شيئاً حول الزاوية ، لا من هذا المكان ولا من ذاك .

وصلت قطعة الصحن ، فجأة ميّزت الرائحة الكريهة المُرْضِية تُثْقُلُ في القاعة ، واضح أنها استقرت في الخيش الرطب الذى يغلف الجدار . بخار اللفت الدافئ فاح من الزاوية التى لابد من وقع المطبخ وراءها . أخيراً جاء الضوء من بابٍ للقاعة ، وتمكنت من تمييز ظل القس في الشعاع الباهت .

نادانى : « إلى هنا »

وصلت غير متيقنة . بدت الغرفة مربعة : وراء ستارة حمراء في الزاوية ، يبدو سرير ، أستطيع القول أنى استطعتُ أن أشمّه . رفوف كتب مخلفة الأحجام ، بعضها محنئ . وهى مُسندة إلى الحائط . بالقرب منها وحول منضدة كبيرة مجموعة من كراسى قديمة ثمينة ، كلها مغلّفة مقاعدها بالقטיפه السوداء . فوق المنضدة كتب ، عُلْبُ تبغ ، سجائر ، أوراق ، كيس خرز ومجموعة من صحف . وقف القس وراء المنضدة ، دعانى إلى الأمام وهو يدفع نحوى كرسيًا مُسَمَّرَةً على ذراعٍ منه ستارة مشبكة من حديد ، عند زوايا المنضدة .

أحببت وجهه ، فأنا أراه كله في الضوء .

قال : « يجب أن أعتذر » .

نظر إلى الباب وأشار برأسه .

« نحن ناس قرويون ، ولا أستطيع إقناعها بالآ تخلّل رءوس اللفت . إنها أكثر كلفة من شرائها مطبوخة جاهزة . لو حسبت الوقود والأوساخ والرائحة والعمل ، لكنى لا أستطيع أن أريها كل ذلك ، اجلسى » .

دفع الكرسي وستارته الحديد قريباً من المنضدة ، جلس عليه ودعانى . سرت حول المنضدة وجلست إلى جانبه ، أقابله من خلال الستارة .

وضع القس شالاً على كتفيه ، ثنى ذراعيه على المنضدة ، وبدأت الطريقة التي يخفى فيها صورة وجهه بيده المثنية مدروسة واحترافية .

كانت بعض المرتعات في الشبكة الحديد مكسورة ، وحين بدأت أهمس :
« باسم الرب ، الابن والروح القدس . . . » نظر إلى ساعته ، فوق رسغه ، تابعت نظره ، كانت الرابعة وثلاث دقائق - بدأت الكلام ، همست بكل مخاوفي ، بكل ألمي ، كل حياتي ، في أذنه ، بحث بخوفي من الرغبات ، نخوفي من تلقى العشاء الرباني ، وباضطراب زواجنا . أخبرته بأن زوجي تركني ، وأنني ألتقي به بين وقت وآخر فقط كي أنام معه - وحين ترددت بضع ثوانٍ ألقى نظرة على ساعته ، وكل مرة أتابع فيها نظره أرى كم بطيئاً يتحرك عقرب الساعة . رفع بصره ، رأيت عينيه ، نقط النيكوتين الصفير على أصابعه ؛ ثم خفض عينيه ثانية ، وقال :

« استمرى »

قالها برقة آلتني ، كان ألماً يشبه ما تحدثه يد متمرسة تخرج الصيد من الجرح .

ومضيت أهمس في أذنه ، أخبرته بكل شيء عن الزمن الذي سبق السنتين الأخيرتين ، حين كنا نشرب معاً ، فريد وأنا - عن موت طفلي ، عن أطفال الأحياء ، عما مضى لساعة من غرفة عائلة هوبفز المجاورة لغرفتنا ، وعما يسمعه آل هوبفز منا . وترددت مرة أخرى . كانت الساعة الرابعة وست دقائق . رفع أجفانه مرة أخرى ، قائلاً بلطف :

« استمرى »

وأهمس له أسرع من قبل ، أخبرته عن كراحتي للقسس الذين يعيشون في

دور كبيرة ولهم وجوه مثل تلك التى فى إعلانات كريم الوجوه ، عن السيدة فرانك ، عن خوائنا ووساختنا ، وأخيراً أخبرته بأننى قد أكون حاملاً مرة أخرى . وحين توقفت هذه المرة ، لم ينظر إلى ساعته ، رفع جفنيه لنصف ثانية أطول من قبل .

وسألنى : « هل ذلك كل شىء ؟ » .

وقلت له : « نعم » .

ونظر إلى ساعته ، التى كانت أمام عيني تماماً بعد أن أبعد يديه من وجهه وشبكهما على حافة المنضدة : إنها الساعة الرابعة وإحدى عشرة دقيقة ، ونظرت بدون قصد فى أعماق كُثمّ السائب ، فرأيت من كم قميصه المطوى ذراعه الفلاحى الذكورى المشعر ، وفكرت لماذا لا يحلّ أكلامه ؟

تحسّر ، وضع يديه فوق وجهه مرة أخرى وهمهم :

ـ « هل تصلين ؟ »

فأجبتة : « نعم »

أخبرته أنى أحياناً أنام الليل كله على أريكتى الرثة ، أقرأ الأدعية التى أتذكرها ، وأنى غالباً ما أوقد شمعة - بدون أن أوقظ الأطفال ، وأقرأ من كتاب الصلاة تلك الأدعية التى لا أحفظها عن ظهر قلب .

لم يسأل أسئلة أخرى ، كنت صامتة أنا أيضاً ، ونظر إلى الساعة على رسغه : إنها الرابعة وأربع عشرة دقيقة ، وكنت أسمع فى الخارج الطرّق فى موقف الترام وغناء مدبرة المنزل : ترا لا لا ... فى المطبخ وطرقعة القطار فى المحطة .

أخيراً رفع يديه عن وجهه ، سبكها فوق ركبتيه ، وقال بدون أن ينظر إلى :

« تناولك في هذا العالم محنة : تقبّلها برضاً طيّب ، فأنا تغلبتُ على العالم هل أدركت ما يعنيه هذا القول ؟ »

وبدون أن ينتظر منى جواباً ، أكمل :

« أدخلك في الباب الضيقة : فباب التهلكة واسعة وطريقها رحيب :

والكثيرون هم الذين يدخلونها ، وضيقة هي الباب : عسيرة تلك التي تؤدي إلى الحياة ، وقليلون أولئك الذين يجدونها »

صمت مرة أخرى ، وضع يديه فوق وجهه ثانية : وهمهم بين أصابعه :

« ضيقة - أضيق طريق نعرفها هي التي على حافة السكين ، ويبدو لي أنك تسيرين عليها ... » .

وفجأة رفع يديه ، ونظر إلى خلال فتحة الستارة الحديد لحظة ، وفزعت من القسوة التي لاحت في عينيه ، عينيه اللين كانتا من قبل جد حنونتين :

« آمرك ، آمرك أن تسمعي القداس المقدس من فسييك الذي نكرهينه كثيراً جداً ، أن تتلقى العشاء الرباني من بديه ، حين ... » .

وهنا نظر إلى مرة أخرى وأكمل :

« حين تبنيهن من تلقى الغفران . » .

صمت أيضاً ، بدا يفكر ، في حين كنت أنا أحاول في ذهني أن أردّد الصلوات ، كل الحشرات التي أعرفها ، كنت أسمع هسيس مشاعل

اللحاح في الخارج ، في موقف الترامات ، وفجأة بدأ قرع أجراس كنيسة :
إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة .

قال فجأة :

« لا أدري إن كنت أستطيع منحك الغفران ، يجب أن تنتظري . باسم
الرب ... » .

وفقدت عيناه قسوتهما .

« كيف تستطيعين حمل هذا القدر من الكراهية ؟ »

أبدى إشارة يأس ، والتفت إلى :

« أستطيع أن أباركك - ولكن عليك أن تعذريني ، فأنا أريد أن أعطي
الأمر مزيداً من التفكير ، ربما أناقشه مع أخ ، مع قسٍ آخر . هل يمكن
العودة هذا المساء - آه ، لا - أنت ستقابلين زوجك . يجب أن تأملی بعودة
زوجك لك . » .

خبيئي جداً عدم غفرانه لي .

قلت له : « أرجوك امنحني الغفران » .

ابتسم ثم رفع يده قليلاً ، وقال : « أتمنى أن أقدر على ذلك ، فأنت
تتوقين للغفران كثيراً ، لكن لي في الحقيقة شكوكاً . ألا تشعرين الآن بمزيد
من الكراهية ؟ »

قلت متعجلة : كلاً كلاً ، إنه فقط أحزنني .

بدا متردداً ، ولم أعرف ما أفعله ، ربما إن ألححت عليه استجاب . لكنني
أردت أن أنال غفراناً حقيقياً ، لا بإقناع مني .

قال لي وابتسم ثانية :

« بشرط ، يمكن أ غفر لك بشرط - لدى شكوك - ولكن بشرط ، إن أنا
امتلك الحق فعلاً ، ربما . . . » .

لوح بيديه أمام وجهي نافذ الصبر :

« بكرايتك أنت تحكمين - ولكن نحن يجب ألا نحكم ، يجب ألا
نكره ، كلا » .

وهز رأسه بحزم ، ثم أمسك وجهه بكفيه المجوفين على حافة المنضدة ،
صلى ، ونهض فجأة ، وغفر لي . رسمت علامة الصليب ، ونهضت . وفق
إلى جانب المنضدة ، عيناه مسطّتان عليّ ، وفجأة شعرت بالأسى عليه ،
حتى قبل أن يتكلم . :

« أستطيع فقط »

ومسح الكلمات بإشارة :

« هل تعتقدين أنني لا أشعر بها - بهذه الكراهية - أنا القس ؟ أنا أشعر
بها هنا » . ضرب غفّارته السوداء ، على موضع القلب تماماً ، هذه الكراهية
للمتفوقين عليّ أحياناً ، هنا » .

وأشار إلى النافذة ، في قداسات الكنيسة التي أقوم بها تحت إشراف
قسس زائرين ، يأتون من الجوار ، قرب الفنادق ، رجال مُلَمَّعو المظاهر في
طريقهم إلى مؤتمر ، يأتون من مؤتمر ، يدمدمون عن القذارة ، عن قلة
التشديد على القداسات ، قداسات العشر دقائق ، قداسات الثلاث عشرة
دقيقة ، العشرين ، والمعدل قداسات الخمس والعشرين دقيقة التي تُقام
هنا ، خمس مرات ، و عشر مرات ، وغالباً خمس عشرة مرة في اليوم .

لا فكرة لديك عن عدد القسس الذين يسافرون من حولنا ، إنهم يعودون من المراكز الصحية ، وهم في طريقهم من هناك ، ومن مؤتمرات ومنتجعات ، هنالك الكثير منها . خمسة عشرة قداساً تقام بأقل من خمسة عابدين يشاركون في كل هذا العدد من القداسات في هذا المكان ، حيث كل الأشرطة المسجلة تالفة ، حيث يتراوح أخلاط القادمين منهم بين خمسة عشر إلى خمس ، لك بعد هذا أن تُقدري لهذا أنا أكرههم ، هؤلاء القسس المساكين الذين يخلفون عطور حمامات الفنادق الباذخة وراءهم هنا ، في غرفة ملابسى المهمة .

استدار من النافذة ليواجهنى مرةً أخرى ، سلّمنى دفترًا وقلماً من المنضدة ، كتبت عنوانى وعدّلت قبّعتى . كانت هنالك عدّة ضربات عالية على الباب . صباح :

« أعرف ، أعرف . الموعظة . إنى آت ! »

صافحنى ونحن نفترق ، نظر إلى متحسراً ، وصحبنى إلى الباب .

سرت متبّدةً اجتاز رواق الكنيسة باتجاه المجاز السفلى - امرأتان ورجل يتجهون إلى الموعظة فى الكنيسة ، ومن الكنيسة ، عبر الشارع عُلّقَتْ لافتة تقول حروفها الحمر :

أين تكون دون دوائى يهتم بك ؟

عاليةً فى المساء انزلت سحابة سوداء ، اجتازت الشمس وكشفت حافتها الأخيرة عن قرصها ، فالشمس الآن كلها معلقة . واصلت سيرى . مرّ بى صبى صغير يحمل فى يده كتاباً للصلاة ، بعده خلا الشارع . كان

على الجانبين خطا من الأكواخ وبيوت من حجارة ، وكنت أسمع خلف
الواجهات المحروقة ضجيجاً يصل إلى من موقف الحافلة .

أوقفنى الشَّدَى الدافىء المفاجىء للخبز الذى نضج ، نظرت إلى اليمين
خلال باب مفتوح لكوخ خشبى تتصاعد متخلصة منه لفائف بخار أبيض :
كان هنالك طفلٌ يجلس على عتبة دار فى الشمس ينظر شزراً إلى السماء ،
وعلى وجهه تعبير البلاهة الهادىء ، أجفانه محمرة ، وعيناه تبدوان مرتحلتين
فى الشمس ، شعرت بغصة من تعاطفى وحنوى عليه .

كان الطفل يحمل فى يده كعكة محلاة ، وفمه ملطخ كله بالسكر ، وحين
يعضها تنبثق مربى الكعكة وتسيل على بلوزته فى الداخل فتاة صغيرة مخنّية
على قدر ، كان لها وجه لطيف ، وبشرة رقيقة . ومع أن شعرها مُغطّى بشالٍ
فإنها شقراء حتماً . كانت تُخرجُ كعكاتها من الزيت المغلى وتضعها فوق
المشواة . فجأة نظرت إلى أعلى ، التقت عيوننا وابتسمت بوجهى . كان
لابتسامتها تأثير السحر فىّ ، رددت لها الابتسام ، وبقينا كذلك بضع ثوان ،
دونما حركة ، وإذ لم يكن سواها . فقد رأيت نفسى أنظر إليها من مسافة
قصوى ، رأيتنا ، نحن الاثنين ، نقف هناك ، تبسم واحدتنا للأخرى مثل
أختين . وخفضتُ بصرى إذ تذكرت أنى لا أملك نقوداً فأشتري واحدة من
كعكاتها المقلبات بالدهن ، والتي أثارت رائحتها معدتى . نظرت إلى أدنى ،
إلى قسمى رأس الأبله وتمنيت لو أن معنى نقوداً . لا يمكن أبداً أن تظل معنى
نقود بعد أن التقى بفريد ، فهو لا يستطيع مقاومة رؤية النقود ، وغالباً ما
يقنعنى بصرفها على الشراب . واجهنى مشهد عنق الأبله الغليظ ، فُتات
السكر المتناثر على وجهه وتصاعدٌ فى مثل حُجرة الخجل وأنا أتأمل شفثيه
المنفرجتين .

حين رفعت عيني مرة أخرى كانت الفتاة قد دفعت الجفنة جانباً ،
وكانت قد بدأت بحل ربطة شعرها ، نفضتها ، وتلامع شعرها في
ضوء الشمس : ومرة أخرى لم أرها فحسب ، ولكن أيضاً رأيت نفسي من
مكان عالٍ : الشارع مملوء بالأنقاض ، رواق الكنيسة ، اللافتة ، وأنا
واقفة في مدخل هذا الكوخ : ناشفة وحزينة ، لكن مبتسمة .

مشيت متأنية ، مررت بالأبله في الكوخ . في الزاوية طفلان يجلسان إلى
مائدة ، وإلى جانب الأريكة عجوز غير حليق ، يقرأ صحيفة . أنزل
الصحيفة ونظر إليّ .

الفتاة الواقفة بجوار مكنة القهوة نظرت إلى المرأة وربّت شعرها ؛ رأيتها
صغيرة جداً ، بيضاء ، لها يدا طفلة ، ولأن أراها في المرأة وإلى جوارها وجهٌ
فتى ينظر إليّ ، ينظر إلى فمي النحيل المزموم قليلاً ، بطلائه الرفيع ،
القرمزي المسوح . والابتسامة على وجهي وإن صدرت عني ، لكنها
ارتسمت خلافاً لإرادتي ، فبدت ابتسامة كاذبة ، والآن ، فجأة لاح رأسان
يتبادلان المكان ، أخذت رأسي ، وأخذت رأسها ، ورأيتني فتاة صغيرة
تقف أمام المرأة ، أرتب شعري ، رأيتني ، تلك الطفلة ، يافعةً متفتحة في
الليل لرجل تحبه ، والذي سيضخ الحياة والموت فيها ، تاركاً على وجهها آثار
ما يُسمّى بالحب ، حتى يصير وجهها يشبه وجهي الآن : هزيراً ممصوباً
من مرارة الحياة .

لكنها الآن تستدير ، تخفي وجهي في المرأة ، وخطوت إلى اليمين
مستسلمةً لسحرها .

قلت : « مساء الخير » .

قالت : « مساء الخير ، هل تريدین كعكاتٍ ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا » .

- « لم لا ، أليست طيبة رائحتها ؟ » .

- « هي كذلك » .

قلت واضطربت أمام فكرة الرجل المجهول الذي سوف تمنحه نفسها ،
« نعم رائحتها حقيقةً طيبة ، لكنني لم أجلب نقودي » .

عند كلمة « نقود » نهض الرجل الذي بجوار الأريكة ، جاء إلى من وراء
المنضدة ووقف إلى جانب الفتاة ، وقال :

« نقود ؟ ولكنك يمكن أن تدفعي فيما بعد . أنت ترين كعكاتٍ ، ألا
تريدین ؟ » .

قلت : « نعم » .

قالت الفتاة : « أوه ، اجلسي » .

رجعت خطوات إلى وراء وجلست إلى جانب الأطفال ، نادى الفتاة :
- « قهوة أيضاً ؟ » .

- « نعم ، من فضلك . »

وضع الرجل ثلاث كعكات على صحنى وجلبها إليّ .

انتظر إلى جوارى قلت :

« شكرًا ، ولكنك لا تعرفني ؟ »

ابتسم إلى ، أنزل يديه من وراء ظهره ووضعها مهدوء فوق بطنه ،
وهمهم :

« أوه ، لا تهتمى » .

أشرت برأسى إلى الأبله الذى يجلس على العتبة :

« ابنك ؟ »

قال بصوت خفيض : « هو ابنى ، وتلك ابنتى » .

نظر إلى الفتاة وراء المنضدة ، التى كانت تحرك عتلة مكنة القهوة .

قال الرجل العجوز : « ولدى لا يفهم ، لا يفهم لغة البشر ، ولا لغة
الحيوان ، لا يستطيع لفظ كلمة واحدة غير دزو - دزا - ززاي - ونحن » .

وهنا انبسط لسانه الذى كان يجهد لتشكيل تلك الأصوات ، فى فمه مرة
أخرى .

« ونحن نقلده ، بضعف ، بخشونة ، نحن نلفظ تزو - تزا - تزاى .
نحن غير أكفاء » .

قال ذلك بخفوت ثم رفع صوته قليلاً منادياً :

« برنارد » .

فأدار الأبله رأسه ببلادة ، ثم تركه يهطل إلى أمام مرة ثانية مثل بندول ،
ونفض العجوز ، أخذ الولد برفق من يده وقاده إلى المنضدة جلس بجانبى
على الكرسي ، رفع الولد إلى حضنه ، وسألنى برقة « أم أنه خييك ، قولى
ذلك . »

قلت : « كلاً لم يخيننى » .

وأنت ابنته بالقهوة ، وضعت الكوب أمامي ، وجلست إلى جانب أبيها : « يجب أن تقولي إن هو ضايقك ، لا نهتم ، أكثر الناس يشعرون بالقرف منه » .

كان الطفل بديناً . ملطّخاً كله ، نظرت فارغة ، يرطن بأصواته : دزو - دزا - دزاي . نظرت إليه مليّاً ، رفعت رأسي ثانية ، وقت :

« كلا هو لم يقرفني - هو كالطفل » .

رفعت كوب القهوة إلى شفتي ، رشفتُ بعضاً منه قضمت الكعكة المقلية المحلاة ، وقلت :

« يا عزيزتي قهوتك جيدة ! »

« حقاً ؟ » ردت على الفتاة باندهاش . « قال لي رجل هذا صباح اليوم - لا أحد عده مثلها » .

« إنها جيدة فعلاً » .

قلتُ ذلك وشربت أكثر ، وأخذت قَضْمَةً أخرى من الكعكة . مالت الفتاة على ظهرى كرسي والدها ، نظرت إليّ ، ثم ورائي ، وقالت :

« أحاول أحياناً أن أتصور كيف يجرب الأشياء ، كيف يعيش - هو عادةً مسالم جداً ، سعيد جداً - ربما بالنسبة له ، الهواء ماء ، ماء أخضر ، لأنه يجد من الصعب الخوض فيه - ماء أخضر يتحول بعض الأحيان إلى بني ، مُوشى بأشرطة سود ، مثل شيء قديم . يصرخ أحياناً ، إذا ما كانت حوله ضوضاء معينة ، أو سمع صرير الحافلات أو صافرات المرسلات الحادة . هذا مزعج » ويصرخ إن داهمه مثل ذلك .

قلت : « أوه ، هو يصرخ ؟ » .

قالت : « نعم » .

وردت نظرتها إلى متطلعة في دون ابتسام .

« هو يصرخ غالباً ، وتنهمر دموعه على بقايا الطعام حول فمه . والشئ الوحيد الذى يحب أكله هو الطعام الحلو والحليب والخبز - أى شئ ليس حلوًا ، غير الحليب والخبز - يتقيؤه ثانية . أوه ، أنا آسفة . لقد قرفت ... » .

قلت : « كلا ، أخبريني عنه . »

نظرت ورائى مرة أخرى ، وضعت يدها فوق رأس الأبله . وكما تزعجه تلك الأصوات ، يتعذر عليه تحريك وجهه أو جسمه ضد تيار الهواء . لعل أذنه مملوءة دائماً بإيقاعات لطيفة لأورغانات ، أو بسياقات موسيقية هو وحده يسمعها - لعله يسمع عاصفة تسف أوراق شجر خفي - أوتار كهان ، أوتار غليظة مثل أذرع تضج - أو أن أزيزاً بعيداً يدعوه ، أزيز مدمر .

أصغى العجوز إلى سحرها ، وهو يحتضن بيديه جسم الأبله تاركاً المربي والسكر يتساقطان على أكمامه . شربت مزيداً من الهوة ، نلت قضمَةً من الكعكة الثانية وسألت الفتاة بصوت خفيض :

- « كيف تعرفين ؟ » .

نظرت إلى وابتسمت قائلة :

- « أنا لا أعرف أى شئ - لكن ، لعل فيه شيئاً لا نعرفه نحن ، أحول أن أتخيله - فهو أحياناً يصرخ فجأة ويأتى راكضاً إلى ، فأترك دموعه تهمل على صدرى - يحدث هذا تماماً - ولمدة نصف ثانية فقط - تختفه مثل طعنة

رعب حركة الناس ، في الطريقة التي نراهم فيها ، السيارة ، القطارات ، كل أنواع الضوضاء . بعدها يستمر في الصراخ وقتاً طويلاً .

نهض الأطفال الجالسون في الركن ، دفعوا صحنهم ، ساروا بمحاذاتنا ، عندها صاحت فتاة صغيرة وقحة ترتدى قبعة خضراء :

« يقول والدى سجّله على الحساب . »

« نعم ، وهو كذلك . » أجاب العجوز وابتسم وراءهم .

سألت بلطف :

« هذه زوجتك ، وهل أمه ميتة ؟ » .

قال الرجل :

« نعم إنها ميتة - نثرتها قنبلة أشلاء في الشارع ، قذفت الرضيع من ذراعها ، سقط على حزمة قشّ وعُثِرَ عليه يصرخ . »

سألت الفتاة :

« هل كان أعنى من الولادة . . ؟ »

قالت الفتاة

« من الولادة ، كان دائماً كذلك كل شيء يمر به بَلِيل لا صوت له إلاّ أصواتنا ، فهي وحدها التي يسمع : أورغانات الكنيسة ، صرير الترامات وتراتيل الرهبان . لكن لماذا لا تأكلين - أوه قرفت . »

التقطت الكعكة ، هزّزت رأسى ، وسألت :

- تقولين إنه يستطيع سماع الرهبان ؟ »

فقال بركة وعيناها على :

« نعم لابد من أنه قادر على سماعهم حين يقدمون تراتيلهم هنا - فوجهه يتغير - في كل وقت لي صدمة - وجهه يضيق ، يبدو قاسياً وهو يصغى ، أعرف أنه يسمعهم ، هو يصغى ، يصير مختلفاً تماماً . هو يسمع ألحان الصلوات ويصرخ حين يتوقف الرهبان . مندهشة أنت ! » .

قالت لي ذلك وابتسمت : « استمرى في أكلك ! » .

رفعت الكعكة مرة أخرى ، أخذت قُصمة ملء فمى ، أحسست بالمربى تذوب في فمى ، قلت

« لابد من أنك تمضين به كثيراً إلى ميدان بلدونر » .

قالت : « أوه ، نعم ، غالباً ما أصطحبه إلى هناك ، وإن كانت الصدمة دائماً تنتظرني منه ، هل تريد من مزيداً من القهوة ؟ » .

قلت : « كلا ، شكراً ، يجب أن أمضى » .

نظرت إليها مترددة وللأبله ، ثم قلت :

« أود أن أراه يوماً » .

سألتني : « في الكنيسة ؟ مع الرهبان ؟ » .

قلت : « نعم » .

« أوه ، لم لا تمرين بنا دائماً ، كم مؤسف أن تتركينا - ستعودين ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « سأعود ، ينبغي على أن أدفع ما أنا مدينة به » .

« لا ، ليس من أجل هذا أرجوك ، عودى إلينا » .

وهزّ العجوز رأسه مؤيداً كلماتها .

أكملت قهوتي ، نهضت ونفضت الفُتات قلت :

ـ « سأعود . لطيف هذا المكان » .

فسألت الفتاة : « اليوم ؟ »

« ليس اليوم ، ولكن قريباً ، لعل صباح الغد ـ وفي الأكثر سأذهب معك لأستمع إلى الرهبان » .

قالت : « نعم » .

ومدّت لى يدها ، أخذتها بيدي لحظة ، تلك اليد الرقيقة البيضاء النحيلة جداً ، تطلعت في وجهها الفتى ، ابتسمتُ وأشرت برأسى للعجوز ، قلت بمحبة للأبله الذى كان يفتتُ كعكة بين أصابعه :

« برنارد » .

لكنه لم يسمعنى ، حتى لم يبدُ أنه يرانى ، فقد أطبق أجفانه تماماً ، تلك الأجفان المحمرة ملتهبة الأطراف .

استدرت مغادرة المكان وسرت باتجاه الممر السفلى الذى يؤدى إلى شارع المحطة .

حين نزلت السلم ، كانت الصبحون قد رفعت عن الموائد ، وكانت لا تزال هناك رائحة اللحم البارد والسَّلطة حلوى البودنج . جلست في زاوية ورحت أراقب شابين يلعبان في مكينات التسلية ، وأسمع ذلك الأزيز الذى تطلقه كرات النيكل في ارتطاماتها الجانبية . أثارتنى دوامة الأقراص في شق المكينة ووقفاتها المتقطعة . مسح النادل الموائد بمنديله ، السيدة ، صاحبة المحل رفعت بطاقة صفراء كبيرة مكتوب عليها :

رقص هذه الليلة . الدخول مجاناً .

إلى المائدة التى تجاورنى ، جلس رجل عجوز فى سترة « لودن » وقبّعة من لباد خضراء ، وغليونه يدخن فى المنفضة . احتفظ الرجل بقبعته على رأسه وهو يخلط اللحم الغنى بالفلفل .

سألنى النادل : « ماذا تحب ؟ »

صعدت نظرى عليه إلى وجهه الأليف :

« ما عندكم ؟ »

قال : « لحم ، شرائح لحم ، بطاطا ، سلطة ، سجق وشورية تبدأ بها إن شئت » .

« سأتناول لحمًا ، وأبدأ بشورية وشنايز »

قال النادل : « كما تحب يا سيدى . »

كان الطعام ساخناً وشهيًا ، وأدركت أنى ضائع ، طلبت شيئاً من الخبز وغمست الخبز بالصلصة . طلبت شنابز آخر . لا يزال الشابان هناك . شعر أحدهما قاف من مفرقه .

دفعت ، انتظرت دقائق أخرى ، لكن المكنة لا تزال مشغولة . نظرت عن قرب إلى وجه النادل ثانية : ذلك الوجه الشاحب ، ذلك الشعر الخفيف الأبيض تقريباً : الشعر - حتماً رأيتها فى مكان ما .

حين طلبت عند المنضدة سجائر ، نظرت إلى صاحبة المحل وسألتنى :

- « هل ستقضى الليلة هنا ؟ » .

قلت : « نعم » .

« هل تفضل بالدفع مقدماً ، إنه فقط - وعبست - إنا بهذه الطريقة
نشعر باطمئنان أكثر ، فقربنا الشديد من المحطة ، لا نعرف اللغة . . »

قلت : « حسناً » . وأخرجت نقودي .

قالت « ثمانية ماركات من فضلك ، وبللت قلمها لتكتب لى إيصالاً .

« هل تتوقع أحداً ؟ » سألتنى وهى تناولنى الورقة .

- « نعم ، زوجتى » .

- « هذا حسن » .

قالت لى وسلمتنى السجائر ، وتركت لها ماركاً وغادرت إلى أعلى .

اضطجعت على الفراش وقتاً طويلاً ، أفكر وأدخن ، دونما شيء يدور
حوله تفكيرى ، حتى تذكرت بأننى كنت أريد تحديد : أين رأيت وجه
النادل ، أنا لا أنسى وجهاً ، كل الوجوه تتبعنى ، وأعرفها حالما تقابلنى .
إنها تتسكع هناك فى اللاوعى ، بخاصة أولئك الذين رأيتهم مرة واحدة ،
وباختصار شديد ، هى تسبح فى ذهنى مثل سمك رمادى غير واضح
يتسلل بين الأعشاب فى بركة موحلة . أحياناً تخرج وجوها إلى أعلى
السطح ، لكنها تخرج كاملة حين أراها مرة أخرى . دونما هوادة أحاول
الاصطياد من ذلك السرب فى البحيرة ، سحببت الخيط ، فكان هو ،
النادل : الجندى الذى نام جوارى دقيقة فى مستشفى الميدان ، تذكرت أنى
رأيت القمل يزحف من الضمادات حول رأسه ، لقد انعمست فى الدم
المتخثر والطازج ؛ قمل يزحف مكشوفاً فوق رقبته ، فى الصيدى وكان شعر
أبيض تقريباً فوق وجه ذلك الإنسان فاقد الوعي ، ومخلوقات جريئة تتسلق
أذنيه ، تنزلق ، تهبط على كتفيه ، وتختفى ثانية فى الياقة . . وجه ضيق

يتعذب رأيته على مسافة ألفى ميل من هذا المكان - ذلك هو الشخص الذى يقدم لى الآن .

فرحت إذ عرفت مكان النادل الأولى ، انقلبت على جنبى ، أخرجت نقودى من جيبى وعددتها فوق الوسادة . لا يزال عندى ثمانون ماركاً وثمانى فينيكات .

بعدها نزلت ثانية إلى البار . كان الشابان لا يزالان واقفين عند المكينات . يبدو جيب أحدهما مليئاً بقطع النقود ، لقد هطل ثقيلًا ، ويده اليمنى تلمس طريقها خلال النقود . الشخص الآخر الذى تبقى هو الرجل ذو قبعة اللباد الخضراء ، بقى يشرب بيرة ويقرأ الجريدة . تناولت شنايز . عيناى إلى وجه صاحبة المحل الأملس ، وقد كانت جالسة على مقعد تتصفح مجلة .

صعدت فوق مرة أخرى . اضطجعت على السرير ، دخنت ، وفكرت فى « كيت » والأولاد ، فكرت فى الحرب وفى الطفلين اللذين أكد لنا القسس أنها فى الجنة ، أنا أفكر فى هؤلاء الأطفال كل يوم ، لكنى اليوم فكرت فيهم مدة أطول . لأحد ممن يعرفوننى ، ولا حتى كيت ، يصدقون كم أفكر فيهم . إنهم يعتبرونى شخصاً مهزوزاً يغير عمله كل ثلاث سنوات مذ استنفد النقود التى ورثها من أبيه على الخمر ، شخص بالرغم من تقدمه فى السن لا يسعى لاستقرار ، غير مهتم بعائلته ، ولكما وقع على مال أضاعه فى سُكره .

لكنى فى الواقع ما كنت أشرب إلا نادراً ، حتى ولا كل شهر ، ولا يحدث أن أكون مخموراً حتى كل ثلاثة أشهر بشكل منتظم . وأتساءل

أحياناً : ماذا يتصور الناس عملي خلال كل الأيام التي لا أشرب فيها ،
وهي تسعة وعشرون من ثلاثين ؟ أنا أسعى كثيراً . أحاول كسب المال .
أحمل بعضاً من الكتب التي قرأتها في المدرسة وأبيعها إلى الطلبة المجدين في
الصفوف الخامسة . أتسكع في المدينة ، عادةً ، خارجها في الأطراف ،
وأزور المقابر حين تكون مفتوحة ، أتمشى بين الأشجار المشدّبه باعتناء ،
ومنابت الأزهار المنتظمة ، أقرأ الشواهد ، الأسماء ، أتشبع برائحة المقبرة ،
وأشعر بقلبي يخفق من الحقيقة الثابتة ، حقيقة أنى أيضاً ، سأرقد هناك .
مرّ زمن اعتدنا أن نسافر فيه كثيراً ، في تلك الأيام التي كنا فيها لا نزال
نمتلك نقوداً - لكنني فعلت في المدن الغريبة مثل هذا الذي أفعله هنا ،
حيث قررت البقاء : أنام على أسرة الفنادق ، أدخن أو أسير على غير هدى
بين وقت وآخر أدخل كنيسة ، أو أمضى مشياً إلى الضواحي البعيدة حيث
تكون المقابر . أشرب في حانات رخيصة ، أكوّن صداقات في الليل مع
غرباء أعرف أنى لن ألتقى بهم مرة أخرى .

حتى حينما كنت طفلاً ، كنت أحب الذهاب إلى المقابر ، أشبع رغبة لا
يعتبرونها مناسبة لولد صغير . لكن تلك الأسماء ، وأصص الأزهار تلك
حرف ورائحة هناك ، تقول لى إنى أيضاً سأموت : تلك الحقيقة التي ما
شككت بها قط أحياناً ، في تلك الصفوف التي أجتازها ببطء ، والتي لا
نهاية لها ، أجد أسماء ناس أعرفهم .

طفلاً ، خبرت حقيقة الموت . ماتت والدتى وأنا في السابعة ، وباهتمام
شديد راقبت كل شيء أجرّوه لها : جاء القس ، مسحها بالزيت ، باركها -
كانت ممددة لا تتحرك . تسلّموا الأزهار ، جاء الأقربون ، بكوا ، وصلوا
إلى جانب سريرها - كانت ممددة لا تتحرك . راقبت كل شيء بفضول .

ولأننى أنا الذى فُجِعْتُ فى أمى ، لم يمنعونى من مراقبة الرجال فى « بيت الموتى » . غسلوا أمى ، ألبسوها رداءً أبيض ، وزَّعوا الأزهار حول النعش ، سمَّروا غطاء النعش . حملوا النعش فى سيارة - وكانت الشقة خالية ، ليس فيها أمى . دون أن أخبر أبى ، ذهبت إلى المقبرة . ركبَت السيارة (١٢) - آه لن أنسى - ذهبت إلى ميدان توكوف ، ومنه ركبَت الحافلة رقم (١٠) ، ركبتهالى نهاية الخط البعيد .

كانت تلك المرة الأولى التى أدخل فيها مقبرة ، سألت الرجل ذا القبعة الخضراء عند البوابة : أين أمى ؟

كان له وجه منفوخ أحمر ، تفوح منه رائحة الخمر ، أخذنى من يدي ، وسار بى عبر القبور إلى مبنى الإدارة . كان طيباً جداً معى ، سألنى عن اسمى ، أدخلنى غرفة ، وطلب أن أنتظر . انتظرت . سرت بين المقاعد حول منضدة بلون بنى فاتح ، تطلعت إلى الصُّور على الجدار ، وانتظرت : إحدى الصور كانت امرأة نحيلة سوداء جالسة فوق جزيرة ، تنتظر . وقفت على أطراف أصابعى ، وحاولت قراءة ما كان مكتوباً تحتها ، وجهدت لأميز: نانا . صورة أخرى أظهرت رجلاً عجوزاً ملتحيًا ، يكشّر حاملاً علبة بيرة ذات غطاء باذخ الزخرفة مفتوح باتجاه وجهه . لم أستطع قراءة ما تحت الصورة ، ذهبت إلى الباب ، لكنّ كان الباب مغلقاً . فبدأت أبكى حتى سمعت وقع خُطى فى الممر : إنه والدى قد وصل : كنت غالباً أسمع خُطاه خلال ممرّ طويل . فأشفق والدى علىّ . مع الرجل البدين ذى القبعة الخضراء الذى تفوح منه رائحة الخمر ، مضينا عبر المقابر إلى معرض الجثث . رأيتهم هناك واقفين ، ونقوش عليها أسماء وأرقام . قادنا الرجل ذو

القبة الخضراء إلى نعش ، ورفع والدى رقعة باصبغه ، وقرأ : اليزابث بوكنر
١٨ ، ٤ ، ٤ ب : ظ مخطط ٧/ل .

وسألنى عن تاريخها ، قلت : لا أدري . فقال السادس عشر . لن
تُدفن أمك حتى بعد غد .

أردت الاطمئنان عليه ، ألا يحدث شيء للنعش الذى ربما لا نراه ،
وبكى والدى ، وعدنى ، وتبعته . فى الشقة الكثيرة ، ساعدته على تنظيف
المخزن الكبير القديم ، وأخرجنا كل الأشياء التى اشترتها أمى خلال سنواتها
من باعته المتجولين : مجموعة من نصول المقصات الصدئة ، صابون ،
مسحوق مبيد للحشرات . مطاط تالف ، وعدة علب من دبابيس الأمان .
بكى أبى .

وبعد يومين فعلاً رأيت النعش تماماً كما كان . حملوه على عربة معلقة
عليها أكاليل وأزهار ، تبعنا النعش سائرين وراء القس ، مساعد الكاهن .
إلى حفرة طينية فى المخطط (رقم ٧) ورأيت النعش يُبارك ، ويُنزل ، ويُرش
عليه الماء المقدس ، ويُثر عليه التراب . وأصغيت لصلاة القس ، وهو
يتكلم عن التراب والنشور .

وقفنا خلف المقبرة وقتاً طويلاً ، أبى وأنا ، فقد أصررتُ على أن أرى :
ألقي حفارو القبور كثيراً من التراب على أعلى القبر ، ثم رصفوه ،
وبمساحيهم جعلوا منه رابية صغيرة ، ألقوا الأكاليل فوقها وأخيراً غرس
أحدهم فى التراب صليباً أبيض صغيراً ، منقوشة عليه حروف سود ، تمكنت
من قراءتها :

« اليزابث بوكنر »

حتى وأنا طفل أدركت معنى كون الإنسان ميتاً : يعى أنه اختفى ، دُفِنَ في الأرض ، وأنه ينتظر النشور . وفهمت ، انتبهت بدقة إلى أن جميع الناس يجب أن يموتوا ، والكثير ممن أعرفهم ماتوا ، وأن أحداً لم يمنعنى من حضور دفنهم .

ربما فكرت في الموت كثيراً ، وأولئك الذين يعتبروننى سكيراً مخطئون . فكلما أجهدت نفسى فى شىء ، بدا غير مجدٍ ، ومملأً ، وبعيداً عنى .

ومنذ غادرت كيت والأطفال بدأت أعاود الذهاب إلى المقابر مرة بعد أخرى ، وأحاول أن أكون هناك مبكراً حتى أشارك فى مراسم الدفن ؛ فأنا أتابع نعوش ناسٍ لا أعرفهم ، أصغى إلى تراويل الدفن ، وأردد الشعائر التى يهمهم بها القس فوق القبر ، أرمى تراباً فى الحُفَر ، أصل بجانب النعوش ، إذا امتلكتُ نقوداً ، أشتري زهوراً أولاً ، وأثرها زهرات منفردات فوق التراب . الذى سيُهاَل فوق النعش . أمشى ماراً بالأقارب الباكين ، وأدعى فى مناسبات إلى الدار ، فأجلس إلى مائدة مع غرباء تماماً . أشرب بيرة ، وأكل بطاطا وسلطة وسجقاً ، أسمح لنسوة باكيات بأن يملأن صحنى بسندويشات كبيرة ، أدخن سجائر ، أشرب شنايز ، وأصغى لتاريخ ناسٍ لا أعرف عنهم شيئاً ، غير رؤيتى لنعوشهم . ويُرُوننى صوراً فوتوغرافية لهم قبل أسبوعٍ تَبَعْتُ نعش فتاة شابة ، وجلست بعد ذلك فى غرفةٍ فى ركن ، فى مطعم من طراز عتيق وبجانب أبيها ، الذى أخذنى إلى معجب سراً بابنته . أرانى صوراً لها ، صوراً لمخلوقة جميلة حقاً : شعرها يرفرف فى الهواء ، كانت جالسة فوق دراجة بخارية خفيضة فى مدخل شارع مشجر .

أخبرنى والدها : « لقد كانت طفلة ، لا تعرف شيئاً عن الحب » .

نثرت زهوراً فوق نعشها ، ورأيت دموعاً في عيني والدها وهو ينزل
سيجارة للحظة إلى منفضة فخارية ذات لونٍ رمادي ، لكي يمسح عينيه .

لم أهتم بكل تلك المشاغل التي مارستها ، لم أستطع توفير الجَدِّ المطلوب
لشاغل حقيقي . قبل الحرب عملت زمناً طويلاً في مكتب لإنتاج مواد
صيدلية حتى أدركني السأم ، وانتقلت من ذلك العمل إلى التصوير
الفوتوغرافي الذي تعبت منه أيضاً . ثم قررت العمل في مكتبة ، وإن كنت
لا أجِد متعة في القراءة ، وفي المكتبة التقيت بـ « كيت » التي تهوى الكتب .

بقيت هناك أن « كيت » كانت هناك ، لكننا قبل أن يمضي وقت طويل
تزوجنا ، وكان عليها أن تغادر حين حملت لأول مرة ، . وجاءت الحرب
أيضاً ، وولد طفلنا الأول كليمنز ، واستُدعيت إلى الخدمة .

لم أشأ التفكير في الحرب ، نهضت من فراشي وهبطت على السلم ثانية
إلى البار : كانت الساعة الرابعة ، تناوت شنايز ، ذهبت إلى المكينات . لم
يكن حولها أحد ، لك ما إن أسقطت فيها قطعة نقد واحدة وضغطت على
العتلة ، حتى أدركت أنني كنت متعباً . عُذْتُ إلى الغرفة ، اضطجعت على
فراشي مرة أخرى ، دَخَنْت ، فكَّرت في « كيت » حتى سمعت الأجراس
تُقرَع في كنيسة الأحزان السبعة ...



4

لم أجد صعوبة في رؤية إشارة اليد السوداء ، فتابعته طريقى ، وسرت
وفي اتجاه الإصبع المؤشرة . كان الشارع رمادياً وخالياً ، وأنا ماضية في
سيرى ، واجهتنى فجأة كتلة بشرية تجرى من بناية ضيقة ، ورأيت صالة
سبنا تفرغ من ناسها . فى المنعطف كانت إشارة أخرى ، يد سوداء مصبوغة
والإصبع فيها محنة تشير : صرت أمام الدار الهولندية ، صدمتنى
قذارتها . ! عبرت الشارع ببطء ، توقفت عند المدخل المصبوغ بالأحمر صبغاً
رخيصاً ، دفعت فاتحة الباب وسرت فى داخل المطعم . كان ثلاثة رجال
واقفين عند المنضدة . نظروا إلىّ وأنا أدخل ، انقطع حديثهم نظروا إلى
صاحبة المحل ، ورفعت هذه نظرها من المجلة ونظرت إلىّ . انتقلت عيناها
من وجهى إلى قبعتى ، بعدها إلى الحقيبة .

ألتى كنت أحملها ، انحنت قليلاً إلى أمام تتفحص حذائى وساقىّ ، ثم
نظرت فى وجهى ، حدقت طويلاً فى شفتىّ ، كما لو كانت تحال معرفة اسم
قلم الحمرة الذى استعملته . مرة ثانية مالت إلى الأمام ، نظرت متشككة إلى
ساقىّ ، وسألتنى بوهن :

- « نعم ؟ »

أزاحت يديها عن عجيزتها ، وضعتها على المائدة المعدنية ، ثم شبكتها فوق بطنها ، واتخذ وجهها النحيل الأبيض تعبيراً غامضاً .

قلت : « زوجي يتوقع مجيئي » .

استدار الرجال بعني واستأنفوا حديثهم ، وقبل أن أعطيها اسمي ، قالت صاحبة المحل :

« رقم أحد عشر ، الطالب الثاني » .

وأشارت إلى الباب وراء المائدة . اندفع أحد الرجال نحو الباب وأبقاه مفتوحاً لي . و كان شاحباً ويبدو سكراناً : شفتاه ترتعشان ، وبياض عينيّه محتقن دماً . خفض عينيّه حين نظرت إليه ، قلت له :

ـ « شكراً »

سمعتُ خلال فتحة الباب وأنا أصعد السلم صوتاً يقول :

« هي ليست من خارج البلدة » .

كان لـ « فُرْغَة السَّلَم » جدران خضر ، ووراء زجاجها يمكن أن يرى المرء ظل جدار أسود ، وعلى الطابق الثاني ، في ممر صغير لغرفة الطعام العامة يتوقّد مصباح مكشوف .

طرقت على الباب (رقم ١١) ، وإذ لم يأت ردّ من الداخل ، فتحتّه ودخلت . كان فريد مضطجعاً غافياً . بدأ هسّاً ، طفلاً تقريباً ، ينام في فراشه . ربما لا تصدّق أن ابن الثامنة عشرة ذاك ، قد أظهرت الحياة على وجهه كل هذا التعب . حين ينام ، تنفرج شفتاه قليلاً ، يتهدّل شعره الأسود على جبينه ويبدو وجهه كما لو كان فاقد الوعي ، إنه ينام عميقاً ،

وأنا صاعدت على السلم إليه كنت غاضبة منه ، إذ اضطررتني لأن أواجه النظرات مثل بَغْيٍ .

لكني الآن وصلتُ سريره ، وبحذر سحبْتُ الكرسي ، وفتحت حقيبتى اليدوية ، وأخرجت سجائري .

دخنت وأنا جالسة إلى جانب سريره ، أبعدت عيني عنه ، حين بدأ ينتبه ، تطلعت إلى ورق الجدران الأخضر ورسوم القلوب عليه . نظرت إلى الأثاث الرث ، ونفخت دخان سيجارتي خلال فُرجة النافذة المفتوحة . عدت إلى الماضي ، وأدركت ألا شيء تغير كثيرًا منذ تزوجنا .

ابتدأ زواجنا في تلك الأيام في غرفة مؤثثة ، هي في أيام القبح كانت رديئة نسبةً إلى غرفة الفندق هذه . وما إن انتقلنا إلى شقة مناسبة حتى اندلعت الحرب ما زلت أفكر فيها كما لو لم يحدث شيء : ثلاث غرف ومطبخ وحمام وغرفة لكل منز على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس - ومورتز) وإن كان لا يزال صغيرًا لا يميز الصور . بمرور الزمن نما وكبر ، فصار يدرك ويميز ، تلك الغرفة التي على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس ومورتز) لم تعد موجودة ، وما زلت أرى فريدًا واقفًا هناك ، يدها في جيبي بنطلون سترته الرمادية يحدق في كوم الحجارة أمامه وذؤابة من دخان تتصاعد منها . بدا فريد لا يرى شيئًا ، لا يشعر بشيء ، غير قادر على أن يفهم أننا لم نعد نمتلك أي شرف ، أي قطعة أثاث ، أي شيء - نظر إلى وعلى وجهه تعبير رجل لم يعد يملك شيئًا . أبعد السيجارة من شفتيه ، وضعها بين شفتيّ أخذتُ منها نفسًا عميقًا . وفي أول انفجرت بضحك هستيري .

فتحت النافذة على سعتها ورميتُ عقب السيجارة في ساحة المبنى .

أكوام نفايات ترتفع إلى جانب مستنقع اكتسى صفرةً بفعل رماد الفحم الحجري ، سقطت سيجارتى فيه ، وسمعت هسيسها . قطار يرتج في المحطة . سمعت صوت مذياع المحطة يرتفع بدون أن أفهم كلماته .

استيقظ فريد حين بدأت أجراس الكاتدرائية تقرر ، قرعها جعل زحاج النافذة يتحرك ، يهتز ، وتتلقى هذا الاهتزاز ستارة معدنية فوق قاعدة النافذة ، ورقص الستارة بدوره ينتج سقسقات جانبية .

نظر إلى فريد بدون أن يتحرك وبدون أن يقول كلمة ، تحسر . وعرفت أنه بدأ ببطء يبتعد عن النوم .

قلت : « فريد » .

قال : « نعم » .

وسحبني إليه وقبلني .

ظل يدنيني إليه حتى تعانقنا . نظر أحدهما للآخر ، وإذا أخذ رأسي بين يديه مبعداً إياه كأنها يتفحص وجهي ، ما كان مني إلا أن أبتسم .

قلت : « لنذهب إلى القديس ، أم أنك كنت . . ؟ » .

قال : « كلا منذ دقيقتين . وصلتُ إليه وقتَ التبريك تماماً .

— إذن دعنا نذهب .

كان راقداً بدون أن يخلع حذائي على السرير . واضح أنه نام دون أن يسحب الغطاء عليه ، وكنت أراه برداناً . صبّ ماءً في المغسلة ، فرك وجهه بيدين مبللين ، غسله ، جفف نفسه ، ورفع سترته من الكرسي .

نزلنا على السلم يدًا بيد . الرجال الثلاثة ما زالوا واقفين عند المائدة .

يتحدث بعضهم لبعض دون أن ينظروا إلينا . سلم فريد مفتاح الغرفة لصاحبة المنزل التى علّقته على لوح وسألت :

« هل ستغادرون المكان لمدة طويلة ؟ »

قال فريد : « ساعة . »

حين وصلنا إلى الكاتدرائية كانت الصلاة قد انتهت ، وكنا تماماً فى وقت مسير موكب التقدمة إلى غلفة الكهنة : بدوا مثل شبوط أبيض يسبح ببطء فى ماء رمادى باهت . راهب مُتَعَب أدى الصلاة فى مذبح جانبى ، قالها متعجلاً ، ورفع كتفيه نافذ الصبر وهو يتحرّك إلى الجهة اليسرى من المذبح ليأخذ الإنجيل . لم يكن مساعد الكاهن حاضراً مع كتاب القدّاس . سحابات من البخور عبرت المذبح الرئيسى . ناس كثيرون يسيرون حول المجموعة التى تحضر القداس . كان أكثرهم رجلاً يحملون أعلاماً حمراء صغيرة فوق طيّات صدور ثيابهم . فى « التكريس » فزع البعض من رنين الجرس وتوقفوا . لكن أكثرهم واصلوا سيرهم ، متطلعين إلى الفسيفساء والنوافذ ، متجهين إلى المذابح .

نظرت إلى الساعة المعلقة عالياً على الجدار بجانب الأورغن ، وهى تعطى إشارات لطيفة كل خمس عشرة دقيقة . وإذ سرنا إلى الباب بعد انتهاء التبريك لا حظتُ أن القداس استغرق تسع عشرة دقيقة بالضبط . كان فريد ينتظرنى فى الرواق ، ذهبت إلى مذبح العذراء المباركة ، وتلوت «السلام لمريم» .

دعوت ألاّ أكون حاملاً ، مع أن خائفة من أن أصلى لذلك . كانت هناك شموع كثيرة تشتعل أمام العذراء وفى جانب حامله شموع حديدية

كبيرة ، وضُعتْ حزمة كاملة من شموع صُفْر . علَّقتْ جوارها بطاقة مُوقَّع عليها :

« مقدمة من الدوائيين الكاثوليك »

فرع اتحاد الدوائيين الألمان .

استدرتُ إلى فريد ، وخرجنا . الشمس مشرقة في الخارج ، الساعة الخامسة وعشرون دقيقة . كنت جائعة . أخذت ذراع فريد ، وإذ نحن نسير نازلين بخطوات واسعة ، سمعته يحرك القطع النقدية في جيبه .

سألني : « هل تحبين أن نأكل في مطعم ؟ » .

قلت : « كلا ، في محل أكلات خفيفة : أحب أن أكل في محلات الأكلات الخفيفة » .

قال : « إذن فلنذهب » .

واستدردنا إلى زقاق بلوشر .

بمرور السنوات ديسَّتْ أكوام النفايات فصارت تلالاً كروية صغيرة نَمَتْ عليها الأعشاب غزيرة كثيفة ، وامتدت شجيرات خضر - رمادية بلمعان محمّر تعكسه أعشاب « السفينة » المتباعدة بأزهارها الأرجوانية . كان هنا نصب تذكاري للجنرال بلوشر . وهو تمثال برونزي ضخم شديد ينظر إلى السماء بغضب - بقي هذا التمثال مطروحاً هنا ، في القناة حتى سُرق .

وراء بوابة حديدية أكوام قمامة لم تترك غير ممر ضيق شق عبر الخرائب . وحين أوصلني إلى شارع « مومسن » ، حيث لا تزال بضع بنايات قائمة ، بدأت أسمع من بعد - وعبر النفايات - موسيقى المعرض . أوقفتُ فريداً ،

و حين توقفنا صرت أسمع تلك الموسيقى بوضوح أكثر : ذلك الضجيج
المجنون لآلة « الكاليوب » الموسيقية .

قلت : « فريد ، هل يحدث شىء فى المدينة ؟ » .

قال : « نعم ، بسبب الدوائيين ، هل تريد أن نذهب ؟ أنمضى إلى
هناك ؟ »

ـ « أوه ، نعم » .

أجبت وأسرعنا ، اخترقنا الناس عبر شارع « فيلدا » وحين انعطفنا ثانية
وجدنا أنفسنا فجأة وسط صخب وروائح المعرض . أصوات الأورغانات
اليدوية ، رائحة اللحم الحادة ممزوج برائحة الفطائر ثقيلة الزيت ، والمقلية
كثيرا . هسيس أصوات المتجولين العالى والمرح ملأت نفسى بالإثارة ،
وشعرت بقلبى يخفق بشدة - تلك الروائح ، تلك الضوضاء ، كل ذلك
الاضطراب ، ذلك كله يشكل الآن تالفاً سرياً .

قلت : « فريد ، أعطني بعض النقود . »

أخرج قطع النقود من جيبه ، سحب القطع الورقية من بين القطع النقدية
طواها ، ووضعها بين أوراقه النقدية الرثة . أهال كل القطع النقدية
الصغيرة على راحتى ، بينها قطع فضية غليظة ، حسبته بدقة وفريد يراقبنى
مبتسماً .

قلت : « ستة ماركات وثمانون ، هذا كثير يا فريد »

ـ « احتفظى بها أرجوك » .

ورأيت وجهه الهزيل ، الرمادى المهموم ، رأيت السيجارة ذات البياض

الثلجى بين شفنيه الشاحبتين ، وعلمت أنى أحبه حقاً . هنالك عدة أسباب ، لكنَّ واحدًا من هذه أعرفه ، إن الذهاب بصحبته إلى المعرض مُريح .

قلت : « إذن ، سادفَع ثمن الوجبة . »

فأجاب : « أى شىء تفولين ؟ . »

أخذت ذراعه ، سحنته جانباً إلى كوخ اللحم ، واجهته مرسوم عليها راقصون هنكاريون ، أولاد فلاحون بقبعات مستديرة ، أيديهم على مؤخراتهم ، ينقافزون حول الفتيات . أسندنا مرافقنا على المائدة ، فنهضت المرأة الجالسة على كرسى من النوع الذى يطوى ، إلى جانب فِذر ينصاعد منه البخار ، وفدّمت إلينا مبتسمة .

كانت المرأة ممتلئة الجسد ، ذات شعر أسود ، يداها القويتان الجميلتان مزبنتان بكثير من الخواتم الرخيصة ، وحول عنقها الأسمر المصفرّ شريط أسود من قطيفة عليه ميدالية .

قلت ، وفريد يدفع لها ماركين :

« اثنين من اللحم » .

تبادلنا الابتسام أنا وفريد ، فى حين مضت المرأة إلى الخلف ورفعت غطاء القدر .

قال فريد : « أنا اليوم تناولت اللحم » .

أجبتّه : « أوه ، آسفة »

« لا تبالى ، فأنا أحب اللحم » .

ووضع يده فوق ذراعى .

أوغلت المرأة مغرقتها عميقاً فى القدر ، ورفعتها مثقلةً باللحم ، ومن
القدر يتصاعد البخار الذى نشرَ ضباباً على المرايا التى الحائط الخلفى .
أعطت كُلاً منا لفة خبز ، ثم مسحَت المرأة بقطعة قماش وقالت لى :
_ « الآن يمكنك أن ترى كم جميلة أنت ! » .

نطرتُ فى المرأة غير المؤطرة ورأيتنى أبدو جميلة حقاً . بعيداً وراء وجهى
فرقة ، رأيت فرقة رماية مضببة ، فرساناً يلهبون ظهور جيادهم ، وقد
صُدمتُ حين وقعت عيني على وجه فريد ورائى فى المرأة وهو لا يستطيع
تناول شىء ساخن ، الساخن يؤذى لثته ، أرى الطريقة التى بقلب فيها
الطعام فى فمه حتى يبرد وتعبير الانزعاج الهادىء نفاذ الصبر ، كل ذلك
أعطى وجهه نوعاً من النخلف الحضارى . إنه مشهد شيخوخة يفرعنى كلما
بدا عليه . لكن المرأة تضيبت مرةً أخرى والمرأة أدارت ببطء مغرقتها فى
القدر.

وبدا لى أنها تعطى كمبة أقل لك من أولئك الذين بففون إلى جانبنا يمماً
أعطتنا .

دفعنا صحنونا الفارغة ، شكرناها ، وغادربا . أخذت بذراع فريد ثانية ،
ومشينا على مهلٍ خلال الأزقة بين الأكشاك . قذفت علبة فارغة على دُمى
ذوات ابتسامات جامدة ، نهب عصيرها حين تأتى الضربة على رءوسها ،
حين تقفز إلى وراء نحو كبس بنى ، حين نندفع ألياً إلى الأمام مرةً أخرى .
بسعادة ارتضيتُ لنفسى أن يخذعنى صوت المنادى المدندن عند الباب ،
فاشتريتُ منه تذكرة يانصيب ورحت أتابع عجلة الحظ ، عيني على الدمبة

- الدب الأصفر الكبير ، والذي كنت آمل بكسبه ، الذي بقيت آمل بالحصول عليه منذ كنت طفلة . مؤشّر العجلة المهتز يشق طريقه بطيئاً خلال مسامير بالشريط ، توقف تماماً قبل الرقم الذي اخترت ، فلم أكسب الدب ، ولم أكسب شيئاً .

ألقيتُ نفسي على المقعد الضيق لحصان الفروسية المهتز ، ضغطت على قطعة ذات عشرين فينيكاً في باطن الكف وتركت نفسي تنطلق فوق الحصان الدوّار ، وفوق السلاسل ترتفع الدائرة ببطء أعلى فأعلى دائرة حول آلة «الكاليوب» المخفية في الجفان الخشبية لمحور اللعبة المركزي ، فأطلقت فجأة نغماتها المسعورة في وجهي .

رأيت برج الكاتدرائية وراء الخرائب يطير من خلالي وأنا على الحصان ، يبعد عني خضرة العشب الكثيفة المدهمة ، رأيت أسطح الخيمة العليا وعليها بقع ماء المطر . وتضاعف أكثر ، أكثر دوران دوامة فرقة الفرسان والتي كانت تسوط حصاني بعشرين فينيكاً . ألقيت نفسي في حضن الشمس ، كلما لامسني وهجها جلدني شبه سوط . سمعت رنين السلسلة، صرخات النساء ، رأيت البخار ، دوامة غبار أرض المعرض تسللت في تلك الرائحة الدهنية الزنخة ، حتى إذا هبطت من السلم الخشبي مرة أخرى غرقت بين ذراعي فريد وقلت :

« أوه ، فريد ! »

بعشرة فينيكات ، أمكننا أن نحظى برقصة على السطح الخشبي ، يحيط بنا فتیان دون العشرين من أعمارهم ، يحركون بحيوية أوراكنهم ، ونحن كل منا أمسك بصاحبه قريباً منه ، ولكما انغمرنا معاً - أنا وفريد - في إيقاع

الرقص ، وجدت نفسى أنظر إلى الوجه البدين لعازف الترامبيت ، والذي كان نصف ياقته مخفياً تحت آله الموسيقية - وكلما رفع رأسه غمز لى ، ونفخ نغمة حادة من « ترامبيته » ، الآلة التى بدت موجهةً إلى .

راقبت فريدَ يلعب « الروليت » بعشرة فينيكات ، أحسست بالتوتر الصامت للرجال الواقفين من حولنا لحظة يعطى مدير اللعبة العجلة وخزة فتبدأ الكرة بالوثوب . السرعة التى ثبتوا فيها أوتادهم ، وإلقاء فريد قطعة النقد على الرقعة الصحيحة ، يكشفان عن مهارة ، عن فهم متبادل لم أتوقعه . والكرة تتدحرج ، رأيت مدير اللعبة يرفع رأسه وتجول عيناه الباردتان بازدراء على أرض العرض . لم ينخفض وجهه الصغير والجميل الصلب حتى بدأ الأزيز يخدم ، فالتقط الأوتاد ، أزلها فى جيبه ، ودعا اللاعبين لأن يضعوا أوتادهم ، راقب أصابع الرجال الواقفين حوله ، أعطى العجلة وخزة احتقار ، زم شفتيه ، ونظر إلى ما حوله بضجر .

تكوّمت النقود أمام فريد مرتين ، وأخيراً جمع النقود من المنضدة واتخذ طريقه إلى .

جلسنا على سلاالم الخيمة عرض ذات ستائر زرق . تابعنا الجموع الدائرة ، ابتلعا غباراً واستمعنا إلى موسيقى « الكاليوبات » المتنافرة النغمات ، وسمعنا صرخات « الفرسان » .

نظرت إلى الأرض المغطاة بالأقذار ، متناثرة عليها الأوراق وأعقاب السجائر والزهور الذابلة ، والتذاكر الممزقة . وأنا واهنة أرفع عيني رأيت أطفالنا . كان بليرمان يمسك كليمنز من يده ، الفتاة كانت تمسك يد كارلا ، والرضيع فى الحاملة بين بليرمان وصديقه . كانت فى أفواه الأطفال

مصاصات صفر كبيرة ، رأيتهم يضحكون وينطلقون إلى ما حولهم ،
رأيتهم يقفون عند فرقة الرماة ، اقترب بليرمان أكثر ، أخذ كليمنز مقبض
الحاملة حينما رفع بليرمان بندفية . كليمنز نظر إلى المشهد من فوق كتف
بليرمان . بدا الأطفال فرحين ، كانوا يضحكون حين علّق بليرمان وردة من
ورق صفراء في شعر فتاته . استداروا إلى اليمين ، رأيت بليرمان يعد بعض
النفود في راحة كليمنز ، رأيت شفّتي ابني تتحركان ، يعدّ لنفسه ، رأيت
يرفع يده بابتسامة صغيرة ويشكر بليرمان .

ـ « دعنا نذهب » .

همستُ لفريد ، نهضت وسحبت يافة سترته ،

ـ « أولادنا هنا » .

سألني : « أين هم ؟ » .

ونظر أجدنا إلى الآخر.

« هم بيننا ، في تلك الاثنى عشرة بوصة من العراء ، بين عيوننا ، حبت

اللبلة الألف التي نطارحنا فيها الغرام . »

أبعد فريد سيجارته من فمه وسألني بتردد :

« ما الذى سنفعله إذن ؟ » .

قلت : « لا أدري » .

جَرّنى مبتعدًا داخل زقاق ما بين خيمة العرض ودوّارة حيوانات خشبية

عاطلة مغطاة جوانبها المحنية بالخيش . توقفنا ، ننظر بصمت إلى أوناد

الخيمة .

قال فريد : « تعالى ، ادخلي » .

وهو يرفع قطعة فاصلة من الخيمة ، جاعلاً منها فتحة بين صفحتين من الخيش ، تسلل منها ، ثم ساعدني لأدخل ، وجلسنا هناك في الظلام ، فريد على بجعة من خشب كبيرة ، وأنا إلى جانبه على حصان هزاز . وجه فريد الساحب مقطوع نصفين بشرط من ضوء آتٍ من شقّ في الخيش .

قال فريد : « ربما لن أتزوج أبداً . » .

قلت له : « كلام فارغ ، لا تُسمِعي ذلك . فهو ما يقوله كل الرجال » .
نظرت إليه ، وأضفت :

- « كم في هذا من ترضية لي - لكن المرأة تنجح في جعل الزواج ممكناً » .
- « نجحتِ أنتِ أكثر من معظم النساء » .

قال ذلك ورفع وجهه إلى رأس البجعة ووضع يده فوق ذراعي .
« خمس عشرة سنة منذ تزوجنا إلى الآن ، ونحن ... » .

قلت : « نعم ، زواج فخم » .

قال : « هائل ، هائل فعلاً » .

أبعد يده عن ذراعي ، وضع كلتا يديه على رأس البجعة كما أسند رأسه ونظر إليّ بتعب .

« إنني على يقين من أنك والصغار أكثر سعادة بدوني » .

قلت : « ذلك ليس صحيحاً ، لو أنك فقط تعرف ... »

- « لو أعرف ماذا ؟ »

- « فريد ، كل يوم يسألنى الأطفال عنك عشر مرات ، وأنا كل ليلة تقريباً أبكى حين أخلد للنوم » .

- « أنتِ تبكين ؟ » .

قال ورفع وجهه مرة أخرى ، وراح ينظر إلى ، فأسفُتُ إذ قلت له ذلك .
« أقول ذلك ، لا لكى أخبرك بيكائى ، لكن لكى تعرف فقط كم أنت مخطيء »

سقط ضوء الشمس فجأة من خلال الشق فى الخيش ، وامتصه الفراغ الوسطى فى الخيمة كأنه مرّ خلال فلتر أخضر ، فكشف ضوءه ، إذ تسرّب أشكالا دوارة ، خيولاً مكشّرة ، تنانين خضراء ، بجعاً ، أمهارة ، ورأيت عربية زفاف مبرقة بقطيفة حمراء يسحبها حصانان أبيضان .

قلت لفريد : « تعال ، سنرتاح هناك أكثر » .

نزل من بجعته ، ساعدنى على تلك الحصان الهزاز ، وجلسنا ، أحدنا إلى جانب الآخر على قطيفة العربة الناعمة . اختفت الشمس ثانية ، كنا محاطين بظلال الحيوانات الرمادية .

- « أنتِ تبكين ؟ » .

قال لى فريد ذلك ، ونظر إلى ، أوشك على وضع ذراعه حولى ، لكنه سحبها مرة ثانية .

- « هل تبكين لأنى هجرتك ؟ » .

قلت بصوت خافت : « بسبب ذلك ، لكن ليس بسبب ذلك وحده . تعلم أنى أكون أكثر سعادة حينما نكون معا . لكنى أيضاً أرى أنك لا تطيق

ذلك - كما أنك لا تكون هناك أحياناً . كنت خائفة منك ، أخاف من وجهك ، وأنت تضرب الأطفال ، أخاف من صوتك ، ولا أريدك أن تعود مثلما كنت ، ويعود كل شيء كما كان قبل أن تغادرن . أفضل أن أرقد في فراشي وأبكي على أن أعرف أنك تضرب الأطفال ، لسبب واحد بسيط ، هو أننا لا نملك نقوداً . هذا هو سبب ضربك للأطفال ، أليس كذلك ؟
لأننا فقراء ؟ »

قال : نعم ، فقرنا جعلنى مريضاً .

« نعم ؟ » قلت له : « هذا هو سبب قولى لك : الأفضل أن تظل بعيداً - إلا إذا تغيرت الأمور كلياً - دعنى أبكى . سنة أخرى وأصل أنا أيضاً إلى النقطة التى أنت فيها ، إلى ضرب الأطفال ، حيث سأكون مثل واحدة من تلكم النسوة البائسات اللواتى منظرهن وحده يفزعنى مثل طفل ، أولئك الحشونات التاعسات اللواتى يجرجرن رعب الحياة الذى لا يرحم فى ممرات البنايات القذرة ، فهن إما يضربن أطفالهن أو يتخمنهم بالسكريات ، وفى الليل يفرشن أنفسهن ليعانقهن سكارى مُحطَّمون ، يعودون إلى بيوتهم تفوح منهم رائحة السجق المقلى ، وقد يجلب أحدهم سيجارتين مدعوكتين ، يدخنانهما معاً ، يدخنان وأحدهما بجانب الآخر فى الظلام بعد انتهاء المضاجعة . أوه كم أحقرهن - تلكم النسوة - سامحنى الله على ذلك - أعطنى يا فريد سيجارة أخرى . »

سحب العلبة بسرعة من جيبه وقدمها إلى ، أخذ منها واحدة لنفسه ، وحين اشتعل عود الثقاب ، رأيت وجهه التاعس فى ذلك الأصيل المخضر حيث دوارة الألعاب .

قال : « استمرى . أرجوك استمرى . . »

- « ربما أبكى لأننى حامل » .

- « أنتِ حامل ؟ »

« ربما تعرف كيف أكون حين أكون حاملاً . ما زلتُ غير مصدقة أنى حامل . لذا شعرت بالتعب من الخيول . أصلى كل يوم وأدعو الله ألا أكون حاملاً . وإلا ، هل تريد طفلاً آخر ؟ » .

بسرعة قال : « كلا ، كلا » .

قلت له : « لكن إن جاء فأنت أبوه ، أوه يا فريد ، ليس لطيفاً أن تسمع ذلك » .

وأسفت لأننى قلت له ذلك . فقد ظل يدخن ولم يقل شيئاً ، نظر إلى ، وجلس متكئاً يدخن فى العربة . لم يقل غير :

« استمرى ، أرجوك استمرى ، أخبرينى بكل شىء » .

قلت : « أنا أبكى أيضاً بسبب أن الأطفال جد هادئين ، إنهم صامتون يافريد . معلوم أن عليهم الذهاب إلى المدرسة ، وهم يأخذون هذا الأمر بكل جد - إنه أمر يخيفنى ، كذلك الطريقة الآمنة التى يؤدون بها واجباتهم - تلك تخيفنى أيضاً . الحمقى الصغار يقلقون على امتحاناتهم ، يستعملون الكلمات نفسها التى استعملتها أنا حين كنت فى سنهم . إنها مخيفة جداً يافريد كذلك الفرح الذى يعلو وجوههم حين يشمون رائحة الروست فى القدر الصغير يغلى فوق الموقد ، والطريقة الهادئة التى يحزمون بها حقائبهم المدرسية كل صباح ، وكيف يضعونها على ظهورهم ، وسندويتشاتهم فى

أكياس غدائهم . وإذ يخرجون إلى المدرسة ، أدبُ أنا غالباً في الممر ،
يا فريد ، أقف عند النافذة أتابعهم بعينى طالما استطعت أن أراهم :
ظهورهم الهزيلة محنية قليلاً من ثقل الكتب والدفاتر . هنالك يذهبون
يمشى أحدهم إلى جانب الآخر حتى المنعطف ، فيستدير كليمنز مفترقاً
عنهم ، وأقدر أن أرى كارلا مدة أطول قليلاً وهى تتدحرج في شارع
«موتسارت» و الرمادى ، بمثل مشيتك ، يا فريد ، يداها في جيبي سترتها ،
ربما هى تفكر كثيراً في رسم الحياكة أو تأريخ وفاة شارلمان . أبكى لأن
توقعهم يذكرنى بتوق أطفال كنت أكرهم أيام كنت في المدرسة ، أولئك
الأطفال يشبهون كثيراً الطفل يسوع في صورة « العائلة المقدسة » . هم
يلعبون إلى جانب منصة نجارة يوسف . مخلوقات بسيطة لطيفة مجمدة
الشعر ، في الحادية عشرة أو العاشرة ، يسقطون قشارات الخشب الملتفة من
بين أصابعهم ، قشارات الخشب تلك تشبه خصلات شعرهم » .

قال : « أطفالنا ، يشبهون الطفل يسوع في صور العائلة المقدسة ؟ »

نظرت إليه وقلت : « كلا ، كلا ، لكن حين أراهم يسرون في الطريق
تلك المشية ، فكأنهم يمتلكون بعضاً من ذلك التواضع الخالى من الأمل
والحس والذي يجعلنى أذرف دموع الخوف والتحدى »

قال : « يا إلهى الطيب - ولكن هذا هراء - أظن أنك ببساطة تحسدنيهم
على طفولتهم » .

- « كلا ، كلا ، يا فريد ، أنا خائفة لأننى لا أستطيع حمايتهم من أى
شئ لا من قسوة البشرية ولا من قسوة السيدة فرانك ، هذه التى من أجل
تسلمها الكامل لجسد المسيح كل صباح ، تندفع من مكتبها متى ما

استعمل أحد الأطفال المغاسل لتثبيت من سلامتها ، وبدأ بالتذمر في الممر
إذا ما قطرة ماء سقطت على ورق حائطها . أنا أخاف قطرات الماء - فكلما
سمعت الأطفال يسحبون «السيفون» أتفجر عرقاً ، لا أستطيع أن أقول
لك ، فقد تعرف أنت ما يجعلني حزينة جداً » .

.. « ما يجعلك حزينة ، بكل بساطة ، هو أننا فقراء . ولا أستطيع فعل
شيء يريحك . لا مفر . لا أهدك بأننا سنمتلك يوماً مالا أكثر . أوه ،
ستعجبين كم هو جميل العيش في دار نظيفة ! أن نكون بلا أية هموم مالية -
ستعجبين » .

قلت : « أنا في الحقيقة أتذكر أن كل شيء كان نظيفاً في بيت والدي ،
وأن الإيجار كان يُدفع دائماً في حينه . وبالنسبة للنقود - حسنا ، حتى نحن
يا فريد ، أنت تذكر ... » .

« أنا تذكر » ، وتفجر منفعلاً : « ولكني لا أحمل عواطف كثيرة
للماضى . ذاكرتي مكونة من ثقب ، ثقب كبيرة ، يجمعها معاً نسيج
رقيق ، رقيق جداً ، مثل خيوط ناعمة ، طبعاً أتذكر ، كانت لنا شقة يوماً
ما ، غرفة حمام خاصة ، وعندنا نقود ندفع منها لأي شيء نريد ، ما الذي
كنت أفعله تلك الأيام ؟ » .

قلت : « فريد . أنت لا تتذكر ما كنت تفعله تلك الأيام ؟ » .

قال : « ذلك صحيح ، أنا لا أتذكر ... » .

وطوقني بذراعه .

« كنت تعمل في مصنع ورق الجدران » .

قال : « طبعاً ، وثيابى تفوح منها رائحة الصمغ ، وكنتُ آتى بنماذج تالفة من ذلك الورق ، نماذج باطلة ، لكليمنز وكان يمزقها فى سريره المعدنى . أتذكر ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً » .

أجبتة : « ستين ، حتى جاءت الحرب » .

قال : « طبعاً بعدها جاءت الحرب ، ربما كان أفضل لك لو تزوجت رجلاً مقتدراً ، واحداً من أولئك الأشخاص المجدين ، مع درجة محترمة من الثقافة » .

قلت له : « . . تَوَقَّفْ عن هذا . . » .

كنتما تجلسان معاً فى المساء ، تقلبان كتباً لطيفة ، لتيسر لك ما تودين ، كانت غرف نوم الأطفال مؤثثة حسب آخر الموديلات ، نفرتيتى على الحائط ، ومذبح آيزنهايم على العوارض الخشبية ، وعبّاد شمس فان جوخ ، طبعة من الدرجة الأولى فوق سرير الأبوين ، طبعاً إلى جانب مادونا بيورون ، ومسجل فى محفظة حمراء ، قوى وبديع ، أصحح ؟ أوه ، كم يزعجنى دائماً ذلك الهراء ، تلك البيوت الأنيقة لا أدرى لماذا تزعجنى » .

وفجأة سألتنى : « ما الذى تريدينه فعلاً ؟ »

نظرت إليه وأحسست لأول مرة ، ومنذ زواجنا أنه كان غاضباً .

قلت له : « لا أدرى مالذى أريده ؟ »

ورميت سيجارتى على الأرض الخشبية إلى جانب العربة ساحقة إياها .

« لا أدرى ماذا أريد ؟ لكنى لم أقل شيئاً عن نفرتيتى ، لا شىء عن مذبح آيزنهايم ، مع أنى أحمل شعوراً ضدهما . لم أقل شيئاً عن رجال

مقتدرين ، لأننى أكره الرجال المقتدرين ، فشعور الاقتدار فيهم يُثبِنُ حتى أنفاسهم . لكنى فى الحقيقة أردت أن أعرف ما الذى تهتم به جدًّا ، لا أرى شيئاً ، أى شىءٍ يَمَّا يأخذه الرجال الآخرون بجد ، اسأل إن كانت لك أشياء تهتم بها أكثر من سواك . فأنت بلا حرفة مثلاً ، وكيل أدوية مرةً ، مصور ، ثم عملت فى مكتبة ، مؤسف أن تُرى فى مكتبة لأنك لا تعرف حتى كيف تَمسك الكتاب بصورة صحيحة ، ثم فى مصنع ورق الجدران ، وعامل شحن فى سفينة ، صحيح ؟ وأما كونك عامل بدالة ، فقد تعلمت ذلك فى أثناء الحرب .

قال : « أوه ، كفى عن ذكر الحرب ، إنها تززعجنى » .

قلت : « حسناً ، كل حياتك ، كل حياتنا ، منذ كنت معك ، قضيناها على مقاعد مطاعم الأكلات الخفيفة ، فى أكواخ بيع اللحم فى حانات متواضعة ، فنادق الدرجة الخامسة ، فى ملاعب الأطفال ، وفى تلك الحفرة المفضنة التى نساكن فيها منذ ثمانى سنوات ... » .

« أكمل : وفى الكنائس » .

قلت : « حسناً ، وفى الكنائس ، نعم » .

- ولا تنسى المقابر !

- « لست ناسية المقابر ، ولم أنسها حتى فى رحلاتنا ، هل أبديت شيئاً من الاهتمام فى الثقافة ؟ » .

- « الثقافة ، لو أخبرتنى ما هى تلك ، كلاً أنا لا أهتم بها . أنا أهتم بالله ، بالمقابر ، بك ، بالمطاعم السريعة ، بملاعب الأطفال وفنادق الدرجة الخامسة » .

- « لا تنسَ الكحول » .

- « كلا ، لا أنسى الكحول . ألقى نفسي في السيئات وعند مكنات البنبول » .

قلت : « وأطفالنا ؟ » .

- « نعم ، الأطفال ، أنا أحبهم جدًا جدًا ، ربما أكثر مما تظنين ، أنا فعلاً أحبهم كثيرًا جدًا ، لكنى الآن فى الرابعة والأربعين تقريباً ، ولا أستطيع أن أقول لك كم متعب فكرى بذلك » .

قال هذا ، ونظر إلى فجأة وسألنى : « هل تشعرين بالبرد ؟ أنغادر المكان ؟ » .

قلت : « كلا ، كلا ، استمر أرجوك ، استمر » .

قال : « أوه ما جدوى ذلك ؟ لتتوقف . لماذا الإزعاج ، دعينا بعيداً عن الخصام ، أنت تعرفيننى ، وتعرفين أنى مفاوض ردىء . وفى سنّى . بكون قد فات أوان التغير . لا أحد يتغير أبداً . الشيء الوحيد الذى يقع موقع الاستحسان منى هو أنى أحبك » .

فقلت : « نعم ، وليس كثيراً عليك أن تكتب لبيتك عن ذلك » .

سألنى : « هل نمضى الآن ؟ » .

قلت : كلا ، دعنا نمكث هنا قليلاً ، أم أنت تشعر بالبرد ؟ » .

قال : « كلا . ولكنى أريد أن أرجع للفندق معك » .

قلت : « خلال دقيقة واحدة . لكن هناك أشياء قليلة أخرى يجب أن تخبرنى عنها . أم أنك لا تريد أن ... »

أجاب : « استمرى ، اسألنى » .

أملتُ رأسى على صدره ، لم أقل شيئاً ، وبقينا نسمع أصوات
« الكاليوب » صرخات راكبى الخيول الخشبية ، والصيحات الخشنة للمشرفين
على الألعاب .

سألته : « فريد ، هل تأكل بصورة مُرضية ؟ افتح فمك قليلاً » .

أذرتُ رأسى فتح هو فمه ، رأيت اللثة الحمراء الملتهبة ، لمست أسنانه ،
وأحسست كم هى رخوة

قلت : « منابت الأسنان ، خلال سنة يتحتم عليك وضع طقم
صناعى » .

سألنى بقلق : « هل تعتقدن ذلك فعلاً ؟ » .

رَبَّت على شعرى ، وأضاف :

- « نسينا الأطفال » .

وصمتنا مرة أخرى ، كنا نصغى إلى الضجيج الآتى من الخارج :
وقلت :

- « سيكونون بخير ، لست قلقة على الصغار ، إنهم يتجولون مع هذين
الشابين ، لن يحدث لهم شيء » .

هممت وأنا أدنى رأسى ليكون على صدره : « فريد ، أين تسكن
بالضبط ؟ » .

- « فى المجمّعات فى شارع ايشخر » .

« المجمّعات ؟ لا أعرفها » .

سألنى : « ألا تعرفين المجمعّات ؟ والناس الذين يعيشون فى الطابق
الأسفل ، فى بناية الأب ، الناس الذين يمتلكون المخزن الدائم ؟ » .

.. « آه تلك ، ذو الخصل الشقر ولا يدخن ، هنالك تقيم ؟ » .

« فى الشهر الماضى ، اعترضت طريقه فى بار ، وأوصلنى . كنت
مخموراً ، فأوصلنى إلى بيته ومنذ ذلك الوقت بقيت معهم » .

.. « أعندهم غرفة لك ؟ »

.. لم يجب . بدأت خيمة العرض المجاورة لنا تُفتَح الآن لبدء العمل .
شخص بدأ يدق مثلثاً ، وصوت خشن فى مكبر الصوت :

« تقدموا ! تقدموا ! شىء للأولاد ! »

سألته : « فريد ، ألم تسمعنى ؟ » .

.. « سمعتك . المبانى فيها كثير من الغرف . ولهم فيها ثلاث عشرة
غرفة . »

.. « ثلاث عشرة غرفة ؟ » .

.. « نعم ، « بلوك » العجوز يعمل مراقباً هناك ، والدار خالية لثلاثة
أشهر، المبنى يعود لرجل إنجليزى يدعى « ستير » على ما أظن . إنه جنرال
أو عضو فى عصابة ، أو كلاهما ، وربما هو شىء آخر ، هذه كل معرفتى
عنه ، هو بعيد منذ ثلاثة أشهر ، آل بلوك يهتمون بالدار ، يعتنون بالثيل
لكى يبدو فى أحسن حالٍ فى الشتاء . فى كل يوم يمضى بلوك العجوز فى
الحديقة الكبيرة مع مجموعة من حوادل التسوية وماكينات الثيل ، وكل ثلاثة
أيام تصل بآلات من الأسمدة الصناعية . المبنى مكان باذخ المحتويات ،

أخبرك : عدد الحمامات وأشياء ، أربعة ، على ما أعنقد ، وأحياناً يسمحون لي بأن أتمتع الحمام في أحدها . وهناك مكتبة تحتوى كتباً كثيرة ، كميات من الكتب ، إنها كتب جيدة ، كتب فخمة ، وغرفة رسم ، ثم هناك غرفة للخلوة ، غرفة طعام ، غرفة للكلب ، غرفتا نوم في الطابق الأعلى ، واحدة للنهاب أو أى شىء آخر هو واحدة لزوجته ، وثلاث للضيوف .

قلت له : « توقف يا فريد ، توقف أرجوك . »

قال : « أوه ، كلا ، لن أتوقف ، لم أخبرك عنها من قبل ، حبيبتي ، لأننى لا أريد إثارتك ، أنا فعلاً ، لا أريد ذلك . لكن الأفضل لك الآن تسمعيه منى . على أن أتكلم عن الدار ، حلمتُ بها ، سكرتُ لكى أنساها ، لكن حتى وأنا سكران لا أستطيع نسيانها . كم غرفة أخبرتك فيها؟ ثمانى أو تسع غرف ، لا أتذكر . وهناك ثلاث عشرة غرفة ، لو تَرَيْنَ فقط غرفة الكلب ، إنها أكبر قليلاً من غرفتنا ، أكبر بقليل ، لا أريد الباطل ، ربما هى أوسع بعشر أقدام مربعة ، ليس أكثر أبداً ، فلنكن منصفين ، ليس أفضل من أن يكون الإنسان منصفاً . سنخط كلمة «إنصاف» على لافتتنا الرقيقة ، أليس كذلك يا عزيزة قلبى ؟ » .

ـ « أوه يا فريد ، هل تقصد إثارتى ؟ »

ـ « أنا أثرك ؟ إننى أحدثك عن الدار ، وهذا فعلاً ما قلتُ . بيت الكلب ، واسع تسعة هذه البوفيات فى بيوت صفوة المثقفين ، ومثلها هناك غرف حمام كاملة ، هناك دشّات معزولة أيضاً ، لم أحصها : أريد أن أكون منصفاً ، أريد أن يأخذنى السكر وأنا على حق ، فأنا لا أحسب حجرة الدش غرفة . إن ذلك ليس عدلاً ، ونحن نريد تحقيق العدالة إلى

جانب الحق في شعارنا المتواضع . ليس هذا هو الأسوأ يا عزيزتى - لكن القلب خال - أوه كم هو مدهش ذلك الثيل الممتد وراء تلك الفلّل العظيمة ، فقط لو يسمحون لطفل بأن يلعب عليه ، أو حتى لكلب . يجب أن نزرع ثيلاً منبسطاً لكلاينا يا حبيبتي . لكن هذه الدار خالية . هذا الثيل لم يُستعمل ، إذا سمحوني على استخدام هذه الكلمة في هذا المجال . الأُسرة خالية ، وفي أعلى البيت ثلاث غرف أخرى ، واحدة لمديرة المنزل واحدة للطباخ واحدة للخادم ، الرجل ، والسيدة الطيبة تشكو دائماً من أن الفتاة الخادمة بحاجة إلى غرفة ، وأنها الآن تنام في غرفة الضيوف . يجب أن تتذكرى هذا يا حبيبتي حينما نبني دارنا ونعلق عليها شعارنا في العدالة الحق . »

قلت : « فريد لا أستطيع احتمال المزيد » .

« نعم ، تستطيعين ، لقد أنجبت خمسة أطفال ، وتستطيعين ، يجب أن أنهى كلامى . لا أستطيع التوقف الآن ، يمكنك المغادرة إذا شئت ، ومع أنى لا أريد أن أظل معك ، الليلة ، لك إذا لم ترغبى بالإصغاء إلىّ فيمكنك أن تغادري المكان إنى أعيش منذ شهر في هذه الدار ، وعلى ، ببساطة ، أن أحدثك عنها ، أحدثك أنت ، الشخص الذى يسرنى أن أبعده عن مثل هذا الحديث ، أردت أن أبعدك عنه يا عزيزة قلبى ، لكنك سألتنى ، ويجب الآن أن تسمعى كل الجواب .

السيدة الطيبة قامت فعلاً بنوع من محاولات الانتحار بسبب هذه الغرفة التى تحتاج إليها الخادمة . عليك أن تُقدرى مدى الحساسية التى وصلوا إليها ، وأى شخص حسّاس هى ، وأنواع المتاعب التى تعانىها ، لكنهم ارتحلوا الآن ، رحلوا لثلاثة أشهر ، هم عادة يمضون تسعة أشهر من كل

سنة بعيداً عن بيتهم ، السلاب العجوز ، أو أى إنسان يعيش هناك ، حدث أن كان أحد المهتمين الحقيقيين بدانتى من القلة الذين تبّقوا لنا ، أحد القلة الذين يمكن أن نأخذهم مأخذ الجد ، تماماً مثل راعى أبرشيتنا . هى حقيقة ، آمل باعتبارك مسيحية مثقفة أن تكونى على علم بها . تسعة أشهر فى السنة ، الدار خالية . خلال هذا الزمن يظل العجوز « بلوك » حارساً على الثيل ، وهو الذى يرعاه ، مادام ليس فى الدار ما هو أكثر روعة من الثيل المرتّب . أرضية غرفة الكلب يجب ألا تكون مشمّعة ، وألاً يسمح بدخول أطفال فى الدار .

صوت خشن فى الغرفة المجاورة صاح :

- « اصعدوا ، هيا أيها القطيع اصعدوا ، لا شىء للأولاد ، مانويلا ، أحلى شىء صغير هذا الجانب من السماء ! » .

همست : « فريد لماذا لا يسمح للأطفال بدخول الدار ؟ » .

« لا يسمح للأطفال بدخول الدار ، لأن الزوجة لا تحبهم ، إنها تنفر من الأطفال ، وهى لديها حساسية لوجود أى منهم فيها ، تشم رائحتهم حتى بعد تسعة أشهر . سبق لبلوك وهو المحارب القديم المعوّق أن ترك مرة طفلين يلعبان على الثيل . تركهما الرجل فى السرداب ، وحين عادت الزوجة اكتشفت ذلك ، فاشتعلت غضباً . هذا هو سبب حذر « بلوك » الشديد . سألته مرة أن كان ممكناً أن يزورنى أطفالى يوماً : فصار لونه أبيض مثل الورقة وقال : أنا مسموح لى أن أسكن معه على افتراض أنى أساعده على الاهتمام بالثيل ، ولأنى أعمل على جعل جهاز التدفئة فى هيئة جيدة . لى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى بعيدة عن الصالة ، هى فى الحقيقة غرفة حفظ

القبّعات والمعاطف . حينما أستيظ في الصباح ، تقع عيناى على لوحة
ألمانية قديمة ، بألوان ناعمة قديمة : نزل ، أو ما يشبه ذلك .

شعرت برغبة فى سرقة واحدة من هذه الصور - هناك الكثير منها فى
المكتبة - لكنهم يراقبونها مراقبة دقيقة ، كما أنه ليس إنصافاً بالنسبة
لبلوك . . »

« مانويلا ستغنى عن الحب ! » ، صاح صوت من الغرفة المجاورة :

- « حتى بلوك يعتقد بأن الزوجة امرأة سحاقية » .

- « أوه ، يافريد ، ألا تكفّ ، هل نذهب إلى الفندق ؟ » .

- « دقيقة أخرى فقط ، عليك أن تستمعى لى دقيقة أخرى ، بعدها
سنمضى وستعرفين أين أعيش ، وكيف أعيش . أحياناً يُفاجئنا راعى
الأبرشية فى الأماسى إنه الشخص الوحيد المسموح له بدخول الدار . كل
أدب دانتي ملك يده . بلوك لديه أوامر بضمان راحته وتوفير التدفئة له ،
وإسدال الستائر ، وقد رأيته أكثر من مرة ، راعى الأبرشية هذا ، وفى وجهه
متعة ناعمة ، وفى يده كتاب ، وإبريق شاي إلى جانبه ، مع دفتر
ملاحظات وقلم . سائقه يجلس منتظراً فى الطابق الأسفل ، تحت معنا فى
السرداب ، يدخن غليوناً ، ويخرج بين وقت وآخر يتفقد السيارة . حين
يتمهى الراعى للرحيل يقرع الجرس ، فيقفز السائق على قدميه ، ويخرج بلوك
أيضاً ، يسمح لنفسه بدعوته « رجلى الطيب » ، فينفحه هذا بشيء . هذا
كل ما عندى . نستطيع الآن أن نمضى إذا شئت . هل تريدان
الذهاب ؟ » .

أشرتُ له برأسى غير قادرة على الكلام : غلبتنى دموعى . كنت مرهقة

جداً ، ولا تزال الشمس مشرقة في الخارج ، بدا كل شيء قاله لي فريد زائفاً
لأنني أحسست بالكراهية في صوته . وفي الغرفة المجاورة صاح الصوت في
مكبرة الصوت :

- « أيها السادة ، في الوقت المحدد لتروا مانويلا ، لتسمعوها ، الصغيرة
العزيزة التي ستفطر قلوبكم ! » .

سمعنا شخصاً يتسلق إلى أرض الألعاب من الجهة الأخرى . نظر لي
فريد : فُتِحَ باب في العمود الوسطى وأُطْبِقَتْ بقوة ، اشتعل ضوء ،
وابتدأت « الكاليوب » عبر مكبرات الصوت في أرض الألعاب . جرى
الضوء إلى الداخل ، وكانت هناك يد تلف ستارة الخيش ، وفي العمود
الأوسط فتحت نافذة ، نظر إلينا رجل شاحب طويل الوجه ، وقال :

- « هل تريدان ركوباً أيها الرعاع ؟ الركوب الأول مجاناً طبعاً » .

خلع قبعته ، فانهال شعر أشقر على جبهته ، حك رأسه ، وأعاد وضع
قبعته ، ونظر إلى بهدوء . كان وجهه حزيناً وإن كان يبتسم ، ثم نظر إلى
فريد وقال :

« كلا ، كلا ، لا أظن زوجتك تحبها » .

قال فريد : « حقاً ؟ » .

- « كلا ، لن تحبها » .

حاول أن يبتسم لكنه لم يفلح ، وهز كتفيه . نظر فريد إلى . أغلق الرجل
النافذة ، دار حول « الكاليوب » باتجاهنا ، ووقف إلى جانبنا : كان طويلاً
كما أن سترته قصيرة جداً ، وذراعه شديداً البياض . نظر إلى نظرة فاحصة ،
وقال :

- « إننى متأكد ، إن زوجتك لا تحبها . لكنى يمكن أن أنتظر إن شئت
أن تتراحا مدة قصيرة أخرى » .

قلت : « أوه ، كلا ، لقد عزمنا على الرحيل » .

فى أثناء ذلك بدأت قطع الخيش تُطوى وكان بضعة أطفال يتسلقون
ليركبوا الخيول ، وليصعدوا فوق البجع . نهضنا وخطونا نازلين . رفع الرجل
قبعته ، ولوّح لنا بيده وصاح :

« حظاً سعيداً ، إذن حظاً سعيداً ! » .

رددت عليه : « شكراً » .

لم يقل فريد كلمة . سرنا ببطء عبر أرض الألعاب ، بدون أن ننظر إلى
الوراء . قرب فريد ذراعى إليه أكثر ، وقادنى إلى شارع مومسن . سرنا على
مهل فى أمكنة ملأى بكسر الحجارة ، واجتزنا الكاتدرائية باتجاه الفندق . لا
يزال الهدوء يعم الشوارع حول المحطة ، ولا تزال الشمس مشرقة ، ضوءها
يكشف الغبار الذى رقد فوق الحشائش النابتة بين الأنقاض .

وارتفع إيقاع خيول الألعاب فى داخلى ، وأخذت أشعر بالوهن .
همست :

« فريد ، يجب أن أنام أو أجلس . »

رأيت قلقه ، أحاطنى بذراعه ، وقادنى داخل بناية مهدامة ، جدرانها
مسودة من حريق ، جدران عالية أحاطت بنا « مختبر أشعة إكس إلى اليسار »
عبارة تشير إلى مكان ما . قادنى فريد خلال باب مفتوح أجلسنى على بقايا
جدار . رحت أنظر إليه بوهن وهو يخلع سترته . ثم أرقدنى وطوى سترته
ليريح رأسى عليها .

أحسست بجسدى على شىء ناعم وبارد ، تلمّست طريقى إلى طرف
المبنى ، تلمست القرميد ، وهمست :

« يجب ألا أمضى إلى الألعاب ، لكنى أحبها كثيراً ، أحب الركوب
عليها » .

« هل آتى لكِ بشىء ؟ » سألتنى فريد برقة وأكمل : أخضِرُ لكِ بعض
القهوة ، لسنا بعيدين عن المحطة »

قلت : « كلا ، حسبك أن تظل معى . أنا متأكدة من أنى سأتمكن من
المشى إلى الفندق خلال دقائق . حسبك أن تظل معى ، يافريد » .
ـ « أجل » .

قال فريد ذلك ووضع يده على جبينى .

نظرتُ إلى الحائط الرمادى المخضّر ، الملطخ بالطين الأحمر ، حيث يقبع
تمثال محطّم ، ولوحة لم أستطع قراءتها . كنت لحظتها أستدير أولاً ببطء ، فى
دائرة وقدمائى هما المركز الثابت لدائرة يرسمها جسدى ، هو الآن أسرع
أسرع . هى حالة تشبه ما فى السيرك قليلاً ، حيث الفتاة الجميلة يحملها من
قدميها ويدورها مُجالدٌ قوى .

فى البداية كنت أميز الجدارَ المخضّر ذا اللطخ الحمراء التى خلفها
التمثال عليه ، وفى الجهة الأخرى كان الضوء الأبيض موقداً فى النافذة
المفتوحة ، كان يعكس شظايا بيضاء وخضراً أمام عيني ، لكن خطوط
حدوده غمضت ، والألوان تداخلت فى بعضها ، والمزيج الشاحب من
الأصفر والأبيض دار أمامى ، أو أنا أمامه ، لا أدرى أى الحالين ، حتى
تسارعت الألوان فكوّنت ومضاً لا لون له تقريباً . وإلى أن تباطأت الحركة .

فأدركت أنى لم أكن أتحرك ، وأن الحركة فى رأسى وحده ، رأسى يدور ، يهتز ، وأحياناً يبدو واقعاً إلى جانب جسدى بدون أن أكون متصلةً به ، ثم هو عند قدمى ، واستمر ذلك لبضع دقائق ، انتمى بعدها إلى واتصل بأعلى رقبتي .

بدأ رأسى يتدحرج حول جسدى ، لكن ذلك لم يك حقيقةً ، تلمست حنكى بيدى ، لمست الكرة العظيمة ، حتى فى اللحظات التى بدا فيها رأسى مطرحاً عند قدمى ، كنت أشعر بحكى . لعل عينيّ هما اللتان تتحركان ، لا أدرى ، الشئ الحقيقى الوحيد هو الدوار ، حموضة لازعة صعدت إلى بلعومى ، ثم انسحبت تصعد ببطء مرة ثانية . أطبقت عينيّ ، ولا جدوى من ذلك . لا رأسى وحده استدار ، بل أحسست بصدرى وساقى يرتبطان بتلك الدورات الحُمقى ، وشكّلت جميعاً دوائر بالية مجنونة جعلت الغثيان أكثر شدة .

لكنى حينما أبقيت عينيّ مفتوحتين ، أستطيع القول : إن ذلك القسم من الجدار ظل فى مكانه ، وكما هو : قطعة من جدار مصبوغة بالأخضر ، حدودها دكناء اللون فى الأعلى . وبعض كلمات ما استطعت تمييزها مكتوبة مصبوغة بالأخضر ، دكناء اللون فى الأعلى . بعض كلمات ما استطعت تمييزها مكتوبة ومصبوغة بالنبي القاتم فوق الأخضر الخفيف . تلتئم الحروف أحياناً كأنها حروف ضوئية على لوحة فحص البصر ، بعدها تنتفخ سجعاً بنيّاً قائماً ، تنتشر إلى الخارج بسرعة شديدة ، حتى لا يمكن بعد ذلك إدراك شكلها أو معناها ، تنفجر من بعد لتصبح فقاعة بنية على الجدار ، لا تخضع لأية قراءة ، و من ثم وبعد دقيقة - تلتئم مرة ثانية حتى تصبح هباءات طائفة صغيرة ، لكنها لا ترتعش .

إنه الدوار ، ذلك هو المحرك الذى كان يدورنى ، هو محور خيول
الألعاب الدوّارة . وكانت انتباهةً صَادِمَةً ، أدركت فيها أنى كنت نائمة
متمددةً على الأرض تماماً ، وعلى البقعة السابقة التى استرحت عليها دون أن
أتحرك بوصةً واحدة عنها . أدركت هذا حين توقف الدواء لحظة . كل شيء
كان هادئاً . . كل شيء كان فى مكانه الملائم مرة أخرى ، رأيت صدرى ،
الجلد البنى القذر لأحذيتى ، ووقعت عيناى على كتابة الحائط ، والتى
استطعت الآن أن أقرأها :

« طبيبك سيعينك إن أعانه الله » .

أطبقت عيني ، بقيت كلمة « الله » معى ، فى البداية كانت ثلاثة حروف
كبيرة ، بنىّة قائمة وراء أجفانى المطبقة ، ثم لم أعد أرى الكتابة ، وبقيت
معى بشكل كلمة ، غطست فى ، بدت تسقط أعماق وأعماق ، وأكثر
عمقاً ، دون أن تصل إلى القاع ، وفجأة صعدت إلى أعلى ، صعدت معى
إلى السطح ، ليست كتابة ، لكنها فقط كلمة « الله » .

بدا أن الله وحده هو الذى بقى معى فى هذا الدوار الذى غشى قلبى ،
وملاً أعصابى ، كان يدور معى مثل الدُّمى . . غمرنى عرقٌ بارد ورعب
مدّمّر كانت هنالك لحظات فكرت فيها فى فريد ، والأطفال ، رأيت وجه
أمى ، والرضيعين ، مثلما أراهم فى المرآة ، لكنهم جميعاً انزاحوا بعيداً فوق
هذا المد من الغثيان . . ملأتنى لا مبالاة بهم ، بقيت لا شيء معى غير كلمة
« الله » .

بكيت ، لم أعد أرى شيئاً ، لم أفكر فى شيء غير تلك الكلمة المفردة .
دموع ساخنة غزيرة تفجرت من عيني على وجهى . ومن مجرى الدموع

على حنكى وعنقى ، والتى ما أحسبت بها ، أستطيع القول أنى كنت نائمة على جنبى . . مرة أخرى بدأت أدور ، أسرع من قبل ، ثم اطرختُ ساكنة تماماً ، وانحنيتُ فوق حافة الجدار المهدم وتقيأت فى الحشائش الخضر المغبرة .

لمس فريد جبهتى كما اعتاد أن يفعل . سألتنى بحنوّ :

- « هل تشعرين بتحسن الآن ؟ » .

- « نعم ، أشعر بأنى أحسن » .

أجبتّه ومسح حانياً فمى بمنديله .

- « فقط أشعر بأنى متعبة جداً » .

قال : « يمكنك أن تنامى الآن ، إنها بضع خطوات من الفندق .

قلت : « نعم ، أنام » .

خالطت شحوبَ وجهها عتمة جعلت جلدها يبدو قريباً من السُمرّة ، كما أن بياض عينيها اكتسى بلون سيء . سكبت بعض الليمون ، شربته كله ، تأخذت يدى وضغطتها على جبينها .

سألتها : « هل أطلب طبيباً ؟ »

قالت : « كلا ، أنا بخير بالآن . إنه الجنين . كان يقاوم مجريات منطقنا ، الفقر بانتظاره » . فأكملت : « المقاومة ، إنه زبون مستقبل للدوائين ، يصير أبرشياً مدللاً . لكن سأدّله » .

قالت : « ربها يصير راعى أبرشية ، وليس أبرشياً عادياً ، فد يصير دارساً لدانتى » .

« أوه » كيت « لا تحاولي أن تكوني فكهة ، كيف تعلمين ما سيؤول إليه أطفالنا ؟ قد تكون لهم قلوب من حجر ، قد يبنون مقصورات لكلاهم ، ويمقتون الأطفال . لعل المرأة التي تمقت الأطفال كانت من قبل واحدة بين خمس عشرة كن يعشن في مكان أضيق مما لقلبها الآن ، لعلها . . . » .

لم تتكلم « كيت » صمتت ، قرع متكرر بدأ في الخارج ، انفجارات وضربات تشبه الانفجارات . هرعت إلى النافذة وفتحتها بقوة . كانت الحرب كلها في ذلك الضجيج : رعد الطائرات ، دوى الانفجارات ، والسماء انقلبت رمادية قائمة تحجبها مظلات في مثل بياض الثلج هبطت ببطء تحمل أعلاماً حمراً خفاقة ، تحمل هذه الكلمات :

« مطاط كريس - يحمي ويمنع من ! » .

اجتازت أبراج الكاتدرائية المستدقة فهبطت من فوق سطح المحطة ، نازلة تطفو في الشوارع هي والأعلام ، وكنت أسمع هنا وهناك الصيحات الاحتفالية للأطفال الحاملين في أيديهم أعلاماً ومظلات . . . حتى هبطت .

سألت كيت : « ما الذي يجري ؟ » .

- « أوه ، لا شيء ، بعض وسائل الإعلان » .

لكن جاء الآن سرب طائرات هدر فوق الرؤوس بلمعان مخيف ، وطار منخفضاً فوق الأسطح بأجنحة رمادية مائلة ، وضجيج المحركات يتوجه نحو قلوبنا حتى تطبع عليها علامة الطائرات . رأيت « كيت » ترتجف ، ركضت إلى سريرها ، رفعت يدها :

- « أوه يا إلهي ، ما هذا ؟ » .

سمعنا الطائرات تدور فوق المدينة ، وابتعدت منتظمة مرة أخرى ،

تلاشى أزيزها باتجاه أفقى غير مرئى ، وغطت كل سماء المدينة بطيور حمر
تغطس ببطء باتجاه الأرض ، غروب ممزق ، وهما هى ذى طيور مطاطية
كبيرة حمراء توزعت فى السماء مثل غروب ممزق . لم نستطع تمييزها حتى
وصلت إلى مستوى البنايات : كانت لقاتل مكسورة الأعناق ، هبطت
وأجنحتها تخفق وسيقانها هاطلة منها بصورة مخيفة كأنها مجموعة من
المشنوقين سنزلون من السماء : غيوم مطاطية صغيرة حمراء نابضة ، صامته
وبشعة أبحرت نازلة خلال سماء المساء الرمادى . ومن الشوارع انطلقت
أصوات أطفال مبتهجين بها ، ضغطت « كيت » على يدى ، ملئت عليها
وقبلتها .

قالت بصوت خفيض : « فريد ، تحملت ديونا ! » .

قلت : « ومن يبالى ؟ أنا استدنت كذلك » .

كثيراً ؟ » .

« نعم ، كثيراً ، لم تبق يمكن أن تقرضنى شيئاً . ليس أصعب من أن
يعطيك أحد ماركاً فى مدينة بها ثلاثمائة إنسان التفكير بهذا وحده يُنْضِجُنِي
عرقاً . »

« ولكنك تدرس الآن ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، لكنى أدخن كثيراً » .

« هل عاودت الشرب ؟ » .

« نعم ، ولكن ليس كثيراً يا حبيبتي . الحقيقة أنى منذ غادرتك آخر مرة

شربت مرتين ، هل هذا كثير ؟ » .

أجبتة : « ليس كثيرًا ، أفهم سبب شربك ، لكنك قد تحاول ألا تشرب بعد مطلقاً » .

« صعب هذا خلال الحرب ، خلال الحرب أشرب من الضجر . أنت لا تتصورين حالة السكر على ضجر ، بعده تنامين على السرير ، كل شيء يدور أمام عينيك ، حاولي أن تشربي ثلاثة « بيلات » من ماء فاتر ، ستجدين نفسك أدمنت على الماء ، كذلك بالنسبة لغرفة النوم ، أنت لا تعلمين كم كانت الحرب مضجرة ، أحياناً أفكر فيك ، وفي الصغار ، أتصل بك عن طريق الهاتف قدر ما أستطيع ، فقط لكى أسمع صوتك . كان مرًا أن أسمعك ، لكن هذه المראה أفضل من أن أكون سكراناً على ضجر » .

« إنها لا تستحق جهد الكلام يا حبيبتي ، تصوّري فقط التلهّف طول النهار في أجهزة الهاتف ، ودائماً تقريباً ، أصوات الضباط الكبار ، أنت لا تتصورين كم هم مضحكون أولاء الضباط الكبار عبر الهاتف ، ألفاظهم محدودة جداً ، يمكن أن أقول مائة وعشرون إلى مائة وأربعين كلمة ، ليس هذا كافياً لست سنوات من الحرب . يوماً بعد يوم تمانى ساعات على الهاتف : تقرير - حدث - تقرير . . إلى آخر رجل انتشار الجنود إلى HQ - قاوم - الفوهرر - لا تضعف . . ثم : قلباً من الأمومة - نساء . تصوّري الثكنات . .

كنت موظف بدالة لثكنات عسكرية لمدة ثلاث سنوات تقريباً ، سنوات كنت أتقياً فيها ضجرًا . وإذا أردت أن أخرج لأسكر ، فحيثما ذهبت وجدت السترات واحدة اللون . لا أستطيع تحمّل منظر السترات تعرفين عنى هذا » .

قالت : « أعرف » .

« كان هناك عريف واحد أعرفه ، يقرأ ريلكه لابنته في الهاتف ، أوشك أن أموت من هذا ، وإن كان فيه قليل من التغيير ، بعضهم كان يغنى ، وأكثر من هذا كان يُعَلِّمُ بعضهم البعض الآخر أغنيات في الهاتف ، لكن معظمهم كانوا يرسلون موتاً في الهاتف . صوت بعضهم يتلوى خلال الأسلاك ، يزعقون بأصواتهم الرفيعة في السماعة في أذن الشخص الآخر الذى يريد أن يتأكد أكثر أن ناساً ماتوا . وإذا مات قلة ، ففي رأى الضباط الكبار أن الحدث قد أُنجِزَ بشكل سيء . ليس من غير سبب أن تُقاس عظمة المبارك بعدد الموتى ، لم يكن الموتى ضجرين يا حبيبتى ، وليست المقابر » .

نمت إلى جانبها على السرير ، سحبت الغطاء . في الطابق الأسفل كان الموسيقيون يضبطون آلاتهم ، ومن البار يأتى صوت رجل يغنى ، صوت ناحب وجميل ، وبعده صرخة وحشية من امرأة تخرق غناء الرجل : لم نعد قادرين على تمييز الكلمات ، لكنها كانت تجاوباً مع جمال إيقاعى .

كانت القطارات تقعقع في المحطة ، وصوت المذيع يصل إلينا من خلال الأصيل المتسرب مثل تدمرات خفيفة لصديق .

.. « أنت تشعرين بميل إلى الرقص الآن ، أليس كذلك ؟ »

.. « أوه ، كلا ، لطيف جداً أن أنام مرة بهدوء . أتمنى ذلك لو أنك اتصلت بالسيدة « رودر » لئرى إن كان كل شىء على ما يرام ، وأنا أحب أن آكل شيئاً يا فريد ، لكن أخبرنى أولاً بشىء آخر . لو أنك تشرح لى لماذا تزوجتنى ؟ » .

قلت : « بسبب الإفطار ، طيلة حياتى أبحث عن شخص أتناول

الإفطار معه ، هكذا كان اختياري - هذا ما يسمى ، أليس كذلك ؟ - ووقع الاختيارُ عليكِ ، كنت شريكة إفطار رائعة ، ولم أشعر بالضجر معك قط .
ولا أنت معي كما آمل . . . » .

قالت : « كلا ، لم أشعر بالضجر معك قط » .

« لكنك الآن تبكين في الليل حينما تكونين وحيدة ، أياكون أفضل إن عدت والأمور على ما هي عليه ؟ » .

نظرت إلىَّ بدون أن تجيب ، قبلتُ بديها ، وعنقها . . لكنها استدارت وراحت تنظر بصمت إلى ورق الجدار . .

توقّف الغناء في البار ، لكن فرقة الموسيقى تعزف في هذا الوقت ، وكنا نسمع أصوات ناس يرقصون في قاعة الطابق الأسفل . أشعلت سيجارة .
« كيت » لا تزال تنظر إلى الحائط ، لا تقول شيئاً . قلت لها بهدوء :

« يجب أن تتفهمني أنى بكل وضوح لا أستطيع تركك وحيدة إن كنت حاملاً فعلاً . لكني لا أدري إن كنتُ أجد القوة لأكون محتَملاً ، كما ينبغي أن أكون ، لكني أحبك ، آمل بالآ يراودك شك في ذلك » .

قالت : بدون أن تلتفت : « لا أشك في هذا ، أنا حقيقة لا أشك . . » .
أردت أن أعانقها ، أمسكتها من كتفيها وأدريتها إلىَّ ، لكنني فجأة علمت أني يجب ألا أفعل ذلك ، قلت :

« إن حدث شيء مثل هذا مرة أخرى فيجب ألا تكوني وحيدة ، أليس كذلك ؟ » .

- « إنى أكره السُّباب الذي يُوجَّهُ إلىَّ حين يرانى الآخرون في الشقة حاملاً ، حين كنت أتوقع الطفل ، يا فريد ، أنت تذكر . . . » .

- « أذكر ، كان ذلك مزعجاً ، كان الوقت صيفاً ، ولم يكن لدى سنت واحد ، ولا حتى ما يكفي لأن أشتري لك قنينة صودا » .

قالت : «وقد كنت نائمة جداً ، استمتعت حقيقة بدور البغي ، كنت ميالة مثلهن للبصق على الأرض أمام الناس » .
- « أفعلتها حقيقة ؟ » .

- « ذلك صحيح ، بصقتُ على الأرض عند قدمي السيدة فرانك عندما سألتني إلى أي حد مضيت ، إنه لبديع أن يسألك أحد : إلى أي حد مضيت » .

- « هذا هو سبب عدم حصولنا على الشقة » :

- « لا ، لم نحصل على الشقة لأنك تسكر » .

- « أحقاً تعتقدين في ذلك ؟ » .

- «تماماً يا فريد ، المرأة الحامل تُسامحُ على كثير من الأشياء ، أوه كنت سيئة المزاج » .

« سيكون خيراً إذا استطعت أن تديرى وجهك إليّ ، فأنا نادراً ما أراك » .

- « أوه ، لا تفعل ، جميل أن أنام هنا بهذه الصورة . وأنا ما زلت أفكر أي جواب أقدمه لك » .

قلت لها : « خُذِي فرصتك ، سأحاول الحصول على شيء نأكله ، وأقوم بذلك النداء ، هل تريدن شيئاً تشربينه ؟ » .

« نعم أريد شيئاً من البيرة يا فريد ، وأعطني سيجارتك » .

مدت يدها من فوق كتفها ، أعطيتها سيجارتى ونهضت ، كانت لا تزال مضطجعة ووجهها إلى الحائط وهى تدخن ، أنا غادرت الغرفة .

كان الممر ضابطاً ، وكنت أسمعهم يصرخون فى الأسفل ، فى القاعة ، وهم يرقصون . تريثت ، تمشيت أسفل السلام فى وقت عزف الموسيقى ، الضوء الوحيد هناك كان يأتى من مصباح صغير عار ، كانت الدنيا مظلمة فى الخارج ، وقليل من الأشخاص يجلسون إلى موائدهم فى البار وراء البار جلست امرأة مختلفة ، كانت أكبر سنًا من صاحبة المحل ، أبعدت أقدامها حين وصلت ، وأنزلت صحيفتها على بقعة البيرة ، انتفعت الصحيفة واسودت ، وغمزت المرأة لى .

سألتها : « هل يمكن أن نحصل على شىء نأكله ؟ للغرفة رقم أحد عشر ؟ »

- « تعنى أن يُرسل إلى أعلى ؟ » .

أشرت برأسى : « نعم » .

- « لا يمكن ذلك ، نحن لا نقدم خدمات إلى الغرف . إنها عادة سيئة أن يأكل المرء فى غرفته » .

قلت : « أوه ، لم أعرف هذا ، لكن زوجتى مريضة » .

« مريضة ؟ هذا كل ما نحتاج إليه ، آمل ألا يكون شيئاً خطيراً ، لا شيئاً معدياً ؟ » .

قلت : « لا ، إن زوجتى تشعر بأنها مريضة » .

رفعت الصحيفة من بقعة البيرة ونفضتها ، وبهدوء وضعتها على المدفئة ، ثم التفتت إلى بهزة كتف وقالت :

- « حَسَن ، ما تريد ؟ لا شىء ساخناً الآن . . انتظر ساعة أخرى » .

تناولت صحناً من رفِّ الصبحون وراءها ومضت إلى الحافظة الزجاجية حيث الطعام البارد ، تبعثها ، اخترتُ قِطْعَتَيْ لحم ، وطلبت خبزاً .
- « خبز ؟ ولماذا الخبز ؟ لِمَ لَمْ تطلب بعض السلطة ؟ بعض سلطة البطاطا ؟ » .

- « نحن نفضل أن نأخذ خبزاً ، ربما هو أفضل لزوجتى » .
قالت : « النساء المريضات لا ينبغي أخذهن إلى الفنادق » .
وذهبت إلى مصعد الطعام وصاحت في ممر أسطواني :

- « خبز . . بضع قطع من الخبز » .
وردَّ صوت مخنوق مستاء : « خبز !! » .
استدارت المرأة : « سيستغرق دقيقة » .

- « أود استعمال الهاتف » .

- « لتطلب طبيباً ؟ »

- « كلا » .

ودفعت الهاتف لى عبر المائدة .

قبل تدوير الأرقام ، قلت :

- « اثنان بيرة من فضلك ، وشنايز الآن » .

دورت رقم السبدة رودر ، سمعت الهاتف يدق ، وانتظرت ، دفعت

المرأة الشنايز عبر المائدة ، حملت قدح بيرة فارغاً إلى الحنفية ، وجاء صوت السيدة رودر في الهاتف :

- « هلو - من يتكلم ؟ »

قلت : « بوكتر » .

- « أوه ، هو أنت ؟ » .

قلت : « هل تسمحين ، قط . . . » .

- « كل شيء على ما يرام ، كنت فوق . . . الأطفال سعداء جداً ، كانوا في المعرض مع الشابين ، حتى إنهم حصلوا على بالونات وعادوا تَوّاً . . إنهم يلعبون مع لقالق حمر مدهشة ، من مطاط حقيقى ، بالحجم الطبيعى » .
- « هل عاد فرانك وصاحبه ؟ » .

- « كلا ، سيعودان فيما بعد ، ربما صباح غد » .

- « إذن كل شيء حقيقة على ما يرام . » قالت : « حقيقة لا تقلق ، تحية لزوجتك كيف وجدت قلم الحمرة الجديدة ؟ » .

قلت : « عظيم ، شكراً جزيلاً لك » .

- « عفواً ، مع السلامة » .

قلت : « مع السلامة » .

نهضت . أنهيت الشنايز ، وراقبت كأس البيرة الثانى يمتلىء ببطء ، مصعد الطعام يتحرك أمامى ليوصل صحناً بأربع قطع خبز أبيض ، حملتُ كأسى البيرة وصعدت بهما ، وضعتهما على كرسى بجانب سرير « كيت » . كانت لا تزال مضطجعة هناك ، تحديق فى ورق الحائط ، قلت :

« كل شيء على ما يرام في البيت ، الأولاد يلعبون مع تلك اللقالب » .
لكن « كيت » حركت رأسها بعسر ، ولم تجب حين أتيت بطبق الطعام ،
كانت لا تزال مضطجعة هنا وتحدث في ورق الحائط ، لكن إحدى الكأسين
أفرغت لنصفها . « قالت :
_ « أنا جد ظامئة » .

قلت : « استمرى ، اشربى » .
وجلسْتُ إلى جانبها على السرير . أخرجت منشقتين نظيفتين من
حقيبتها ، فرستها على الكرسي ، وأكلنا اللحم والخبز على المنشفتين
النظيفتين ، وشربنا بירתنا :
« لو تيسر لى . . لو تيسر لى أن آكل أكثر يا فريد . . » ونظرت إلى
وابتسمت . « أنا لا أدري الآن إن كنت آكل كثيراً بسبب الحمل أو لأنى
جائعة فعلاً » .

قلت لها : « استمرى ، كلى ، أى شيء آخر تريدين ؟ » .
قالت : « قطعة لحم أخرى ، فلفلة وكأس بيرة آخر . ويمكنك أخذ
القدح » .

وأفرغت الكأس وناولتنى إياه . نزلت إلى البار ، وكانت المرأة وراء
المنضته تملأ قدحاً ، تناولت شنايز آخر . نظرت إلى المرأة بحنو أكثر من
السابق . وضعت قطعة لحم وفلفلة على الصحن ، ودفعته إلى عير للمنضدة
الرطبة .

الظلمة الآن شديدة في الخارج ، والبار خالٍ تقريباً ، والراقصون في
الردهة صاخبون ، بعد أن دفعت المبلغ بقى معى ماركان فقط .

- « هل ستغادرون المكان غدًا مبكرين ؟ » .

قلت : « نعم » :

- « إذن من الأفضل أن تدفع أجرة الغرفة الآن » .

- « أنا قد دفعت تويًا » .

- « أوه ، حسن ، لكن من فضلك تأكد من جلب الأقداح والصحون قبل أن تغادرونا ، فقد عرفنا المتاعب التي سوف تجلبها إلى هنا ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « طبعاً » .

كانت « كيت » تضطجع على ظهرها ، وتدخن :

- « هائلة الحياة هنا » . قالت وأنا أجلس إلى جانبها : « فكرة مدهشة أن تذهب إلى فندق مرة ثانية ، لم نأت إلى فندق منذ زمن طويل ، هل هو مكلف ؟ » .

- « ثمانية ماركات ! » .

- « أما زلت تملك هذا المبلغ ؟ » .

- « لقد دفعته ، وبقي لي ماركان » .

أخذت حقيبتها ، نظفت محتوياتها على السرير ، ومن بين فرشاة الأسنان . وحافظة الصابونة وقلم الحمرة اصطدنا ما تبقى من النقود التي أعطيتها لها في أرض الملاعب . كانت أربعة ماركات .

قلت : « هذا جيد وكافٍ لأن نذهب وننال إفطاراً » .

قالت : « أعرف مكاناً لطيفاً يمكننا تناول الإفطار فيه إنه وراء النفق تماماً ، إلى يميننا ونحن ذاهبان من هنا » . نظرتُ إليها واستأنفت : « هو مكان لطيف ، هناك فتاة فاتنة ورجل عجوز قهوتهم جيدة ، المكان الذى أنا مدينة له » .

سألتها : « هل الولد الأبله هناك أيضاً ؟ » .

أبعدت سيجارتها من شفيتها ونظرت إلى :

- « هل تذهب غالباً إلى هناك ؟ » .

- « كلا ، كنت هناك لأول مرة هذا الصباح ، أنذهب إليه صباح غد ؟ »

قالت : « نعم » .

استدارت إلى الجهة الأخرى باتجاه النافذة ونامت وظهرها إلى . أردتُ أن أقدم لها الصحن والبيرة ، لكنها قالت :

- « لا تبال ، سأكلها فيما بعد » .

بقيت جالساً إلى جانبها ، وإن كانت قد استدارت مبتعدة ، وارتشفت بيرتى . كان الهدوء يسود المحطة . خلال النافذة كنت أرى أعلى البنايات العالية الطويلة وراء المحطة . قنينة البراندى الهائلة واضحة في الأضواء المعلقة أبداً في المساء هناك . يمكن المرء أن يرى رجلها يشرب في جوف القنينة . وفي أعلى البناية تلك الرسائل التى تتغير دائماً حروف مضاءة تتدحرج إلى الخارج ، ببطء قرأت :

استعمل عقلك - يتلاشى الخط - لا تبق في الفراش .

تخرج الحروف متدحرجة في الليل المظلم ، بعدها لا شىء يضع دقائق ،

ملأتني رغبة في معرفة -

عندما تعلّق فوق

إنها هناك ثانية ، تسقط عائدة في الفراغ ، ومرة أخرى لا شيء لبضع
ثوان ، ثم فجأة تضاء الحروف جميعها مرة واحدة :

تناول دولورن

ثم في أصفر حاد :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

قالت « كيت » فجأة : « فريد ، أعتقد بأننا إذا ناقشنا ما تريد أن تعرفه ،
لا أمل لك . لهذا لا أفضل مناقشته . يجب أن تعرف ما يجب عليك
فعله ، وحتى إذا كنت حاملاً ، فلا أريدك أن تعود إلى البيت لتظل تصرخ
هناك ولتضرب الأطفال وأنت تعلم أنهم أبرياء . لا أريد ذلك . لن أشتاق
لصباح بعضنا على بعض » .

كانت لا تزال مضطجعة وظهرها إلى ، وكلانا يحدق بالحروف المضاءة في
أعلى البناية ، والتي تتغير الآن أسرع وأسرع ، أكثر وأكثر حدة ، وفي ألوان
قوس قزح مرسلة في الظلام كلمات بألوان قزحية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

- « هل تسمعني؟ »

قلت : « نعم ، سمعتك . لماذا لا تستطيعين المجيء إليّ بعد ؟ » .

- « لأنني لست بغياً . لا أحمل شيئاً ضد البغايا يا فريد ، لكنني لست
واحدة منهن . مرعب أن آتي إليك لأنام معك في مكان ما ، في عمر بناية

مدمرة ، أو فى حقل ، ثم أركب الترام إلى البيت ، دائماً يملكنى الرعب فى الترام ، الخوف من أن تكون قد نسيت أن تضع فى يذى خمسة أو عشرة ماركات ، لا أدرى كم يُدفع لأولئك النسوة بعد نومهن مع رجل :
- «ياخذن أقل من هذا بكثير حسبها أعتقد» .

أنهيت بيرتى ، التفتُ إلى الحائط ، تطلعتُ لزخرفة أشكال القلوب على ورق الجائط الأخضر وأكملت :
- «أظن أن هذا يعنى أن نفترق» .

قالت : « نعم أظن أن ذلك أفضل . ليست لى أية نيّة لإحراجك ، فريد أنت تعرفنى - لكن أظن من الأفضل لنا أن نفترق . الأطفال لا يفهمون حتى الآن ، هم يصدقوننى حين أقول لهم إنك مريض ، لكن كلمة مريض بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً ، إضافة إلى ذلك ، كل ذلك التقريع فى البناية يؤثر فيهم . الأطفال يكبرون يافريد . هنالك الكثير من الناس يظنون أنك تزوجت امرأة أخرى ، لم تتزوج ، أليس كذلك يافريد ؟ » .

كنا لا نزال مضطجعين ظهرًا لظهر ، وكانت تخاطبنى كما تتحدث لشخص ثالث . قلت :

- « كلا ، لم ألتخذ لى زوجة أخرى ، أنت تعرفين ذلك » .

قالت : « لا يستطيع المرء أن يكون متأكدًا ، لى شكوكى أحياناً لأنى لا أدرى أين تعيش » .

- « لم ألتخذ زوجة أخرى ، لم أكذب عليك ، تعرفين ذلك » .

بدت مستجيبةً ، قالت :

- « كلا ، لا أظن أنك يوماً كذبت عليّ . لا أتذكر مثل ذلك في أى حال .

- « هكذا إذن تعرفين » .

أخذت رشفةً من بيرتها من الكأس التى على الكرسي بجانبى وقالت :
- « فُكّر في هذا . لك حياة لطيفة سهلة ، تسكر حين تحب . . أنت
تمضى وتتمشى في المقابر ، وليس عليك غير أن تتصل بى وأنا آتى لك حين
ترغب فيّ - وفي الليل تنام في بيت هذا المتخصص في دانتى » .

- « أنا لا أنام كثيراً في المجمعات السكنية ، أنا عادة أجد بقعة في مكان
آخر : أنا لا أحتمل تلك الدار . إنها ضخمة جداً وفارغة وجميلة وراقية . لا
أحب الدور الراقية جداً » .

استدرت ، صعدت نظرى من فوق ظهرها إلى الشعار المضاء في أعلى
البناية ، لا يزال كما هو :

يمكنك الاعتماد على دوائيتك !

ظلت الكلمات نفسها تتوهج طول الليل ، تزداد توهجاً وبألوان قوس
قزح . نمنا هناك وقتاً طويلاً ، ندخن ولا نقول شيئاً . نهضت بعد ذلك
وسحبت الستائر ، لكننا كنا نستطيع رؤية الكلمات حتى بعد إسدال
الستائر . تعجبت من « كيت » ، لم تتكلم معى بمثل ذلك من قبل .
تركت يدي تستريح على كتفها ولم أقل شيئاً . استمررت في نومها مدبرة
عنى ، فتحت حقيبتها ، سمعت « نكة » ولاعتها ، ورأيت الدخان يتصاعد
نحو السقف من حيث تنام .

سألتها : « هل أطفئ الضوء ؟ » .

- « نعم ، ذلك أفضل » .

نهضت ، أطفأت الضوء ، وتمددت إلى جانبها . إنقلبت على ظهرها ، وانتابتني هزة حين اقتربت لكتفها والتمت يدي فوق وجهها . كان وجهها مبللاً بالدموع ، لم أجد شيئاً أقوله . أبعدت يدي عنها ، بحثت تحت الغطاء عن كفها الصغير وشدت عليه . سررت إذ تركتني أفعل ذلك .

قالت في الظلام : « اللعنة على الموضوع كله ، كل رجل ينبغي أن يعرف ما يفعله حين يتزوج » .

قلت : « سأفعل كل ما أستطيع ، والحقيقة ، كل ما استطعت هو أن أحصل لنا على شقة » .

« لا تكن سخيلاً » قالت وكأنها تضحك : « ليس هو موضوع الشقة . هل تعتقد فعلاً بأنها هي المشكلة ؟ » .

رفعت نفسي محاولاً النظر في وجهها ، تركت يديها ، رأيت وجهها الشاحب دون وجهي ، رأيت طريق ارتحائها إلى البيت ، والذي أنزل إليه غالباً . وحين توهجت الحروف مرة أخرى في أعلى البناية ، رأيت وجهها بوضوح غارقاً في الخضرة : كانت في الحقيقة تبسم . عدت إلى النوم على ظهري ، فأخذت هي يدي وشدت عليها بقوة .

- « هل أنت حقيقة لا ترين أن تلك هي المشكلة ؟ » .

قالت بشيء من الحزم : « كلا ، كلا ، كلا كن الآن أميناً يا فريد . إذا جئت لك وقلت إنني وجدت شقة ، فهل ستُحَبِّط أم سيسرك ذلك ؟ » .

قلت فوراً : « سأكون مسروراً ! » .

« كلا ، ستكون مسروراً لأنى أستطيع عندئذ أعود لكم جميعاً . أوه كيف يمكنك حتى التفكير ... » .

كانت الدنيا مظلمة فى ذلك الوقت ، كنا نائمين ظهراً لظهر مرة أخرى ، وأنا ألتقت بين وقت وآخر لا أرى هل استدارت « كيت » ، لكنها ظلت تحديق فى النافذة نصف ساعة دون أن تقول شيئاً . وحين التفت رأيت الكلمات تتوهج فى أعلى البناية .

يمكن الاعتماد على دوائيك !

يمكن الاعتماد ...

جاءنا من المحطة التهدج المبهج للمذيع ، ومن الباب فى الأسفل جاء صخب الراقصين ، ولم تقل « كيت » شيئاً . وجدت عسيراً على الكلام مرة ثانية ، لكنى خرجت عن صمتى بـ « أخيراً ألا تريدان شيئاً تأكلينه ؟ » قالت : « أجل لو أوصلت لى الصحن من فضلك ، وأوقدت الضوء » .

نهضت ، أوقدت الضوء وعادت النوم وظهرى إليها . سمعتها تأكل الفلفلة وقطعة اللحم . أوصلت لها أيضاً قذح البيرة ، فقالت :

ـ « شكراً » .

وسمعتها تشرب . انقلبت على ظهري ووضعت يدي على كتفها .

« إنه أمر لا أحتمله يا فريد » ، قالت لى بهدوء وفرحت لأنها تكلمنى : « أنا أفهمك جيداً ، ربما فهماً جيداً جداً . أعرف مشاعرك ، وأعرف كم بديعة هى إذ تزخر بالبذاءة أحياناً . أعرف أنه الشعور ، وربما الأفضل لك

أن تكون لك زوجة لا تفهم ذلك أبداً . لكنك تنسى الأطفال ، هم هناك ، هم أحياء ، أنا لا أحتمل الأمر بسببهم . أنت تعرف كيف كان الحال حين بدأنا ، كلانا ، نشرب أنت الذى رجوتنى أن أتوقف . . . » .

- « لقد كان فعلاً أمراً مزعجاً حين مضينا إلى البيت وشم الأطفال . الرائحة . لكنها غلطتى أنا ، كنت تشربين أيضاً » .

- « لست معنية بتحديد من المذنب فى هذا » .

أنزلت الصحن وارتشفت شيئاً من البيرة ،

- « لا أعرف ، لا أعرف أبداً يا فريد إن كانت هى غلطتك أم لا . لا أريد إدانتك يا فريد ، لكنى أحسدك » .

- « تحسديننى ؟ » .

- « نعم أحسدك ، لأنك لست حاملاً . يمكنك أن تمضى فى نزعات ، وتقضى ساعات فى المقابر ، وتسكرباكتئابك عندما لا تملك مالاً لتشرب . أنت تسكربحزنك حين لا تكون معنا . أعرف انك تحب الأطفال وتحبنى أيضاً ، أنت تحبنا كثيراً جداً ، لكن لم يخطر لك أن حالاً لا تحتمله وتبتعد عنه ببطء يسبب موتنا . لأنك لست معنا . لا يخطر لك أن الصلاة هى الشئ الوحيد الذى يمكن أن يعيننا . أنت لا تصلى ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « نادراً جداً ، لا أستطيع » .

« كل واحد يرى ذلك يا فريد - أنت تشيخ ، أنت تبدو شيخاً حقيقة ، مثل أعزب عجوز بائس . أن تنام بين حين وآخر مع زوجتك لا يعنى أنك متزوج بها . أخبرتنى مرة خلال الحرب أنك تفضل العيش فى زنزانة حقيرة

على أن تكون جنديًا . لم تكن شابًا صغيرًا حين كتبت ذلك - كنت في السادسة والثلاثين . أحياناً أحس بأن الحرب تركت فيك خلاً ، صرت بعدها مختلفاً .

كنت متعباً جداً ، وكل ما قلته أحزننى لأننى أعرف أنها على حق . أردت أن أسألها إن كانت لا تزال تحبنى ، لكننى خشيت أن يكون سؤالى مضحكاً . إعتدت أن أقول لها كل شيء كما يخطر لى ، لكننى الآن لم أسألها إن كانت لا تزال تحبنى .

قلت بإعياء : « ربما تركت فى الحرب ندباً . فأنا دائماً تقريباً أفكر فى الموت ، كيت ، إنها تدفعنى للجنون . فى الحرب عدد كبير جداً من الموتى ، عدد لم أر مثله من قبل . كنت أسمع فقط ، كنت أسمع أصوات غير مهمة تقرأ أرقاماً فى الهاتف ، وتلك الأرقام هى أعداد الموتى حاولت تصوّرهم ذلك جيل كامل . مرة قضيت ثلاثة أسابيع فيما يسمى الجبهة . رأيت كيف يكون الموتى . أحياناً الخروج خلال الليل لإصلاح الخط ، وفى الظلام أتعثر بالموتى ، الظلام شديد ، لم استطع رؤية شيء . . . أى شيء . سواد تام ، على نقطة العيب فيه . أصلحت الأسلاك ، ربطت جهاز الفحص ، تفرصت هناك فى الظلام . وأنبطح حين ينبثق وهج أو تطلق قذيفة ، وتكلمت فى الظلام مع آخر يجلس فى موضع على بُعد ثلاثين أو أربعين ياردة - لكن ما أخبرك عنه كان بعيداً .

قالت بلطف : « ليس الله عنا ببعيد » .

قلت : كنت أتحدث بصوت يختبر الخط ، إن كان قد عاد يعمل ثانية . ثم كان على أن أزحف ببطء عائداً ، أمسك الكابل بيدي ، تعثرت مرة

أخرى فى ذلك الظلام فوق الموتى ، وأحياناً أظل مطروحاً إلى جانبهم . مرة قضيت الليل بطوله . ظن الآخرون أنى أحد الموتى . بحثوا عنى ، حتى تخلوا عنى أخيراً .

لكنى بقيت مطروحاً طول الليل بجانب الموتى الذين لم أستطع رؤيتهم ، كنت أحس بهم - بقيت بجانبهم ، لا أدرى لماذا - والوقت لا يمر لصالحى . وحين وجدونى ظنوا أنى كنت مخموراً . وأحسست بالضجر حينما وجبت على العودة للعيش - أنت لا تصدقين كم كان الناس بعدها يُضجروننى . الموتى هم الرائعون » .

قالت ، دون أن تترك يدي :

- « أنت مزعج يا فريد ، أعطنى سيجارة » .

بحثت عن سجائر فى جيبي ، أعطيتها واحدة أشعلت كبريتاً . وانحنيت عليها لأرى وجهها . بدت لى أكثر شباباً ، وأنها تشعر بتحسن ، ولم يعد جلدها أصفر .

سألتها : « ألا تشعرين بعد بأنك مريضة ؟ »

قالت : « كلا ، أبداً أنا بخير . لكنى خائفة منك ، أنا فعلاً خائفة » .

- « لا تخافى منى . ليست هى الحرب التى أتعبتنى ، فسيكون الشئ نفسه تماماً - أننى ببساطة أضجر - يجب أن تسمعى ما يمر فى أذنى طيلة النهار : أكثره هواء ساخن »

قالت : « يجب أن تصلى ، فعلاً يجب أن ... إنها الشئ الوحيد الذى لا يُضجر » .

قلت : صَلِّ أنتِ من أجلِ ، كنتِ قادراً على الصلاة ، فقدت القدرة الآن .

- « تحتاج إلى مرانٍ . يجب أن تثابر . ابدأ وابدأ مرة أخرى . السكر ليس جيداً » .

- « حين أكون سكراناً أستطيع أحياناً أن أصلي جيداً » .

- « لآخرة في ذلك يا فريد ، الصلاة للصاحي . إنها مثل الوقوف أمام واحد من ذلك النوع من المصاعد المتحركة وأنت تخشى أن تقفز عليك يجب أن تُبقى نفسك مشدودة القوى ، وفجأة تكون في المصعد وهو يحملك إلى أعلى . » أحياناً أشعر بها واضحة جداً يا فريد ، حينها أضطجع يقظانة في الليل وأبكي ، وحين يكون أخيراً قد صَمَتَ كل شيء . أشعر غالباً بأنني ماضية خلال ذلك . بعدها لا أعنى بأى شيء آخر . لا الغرفة ولا القذارة ، ولا حتى التعاسة ، وحتى يعدك عنا لا يعود يهمنى . بعد كل شيء يا فريد ، ليس من أجل تلك الثلاثين سنة الأخرى الطويلة أو الأربعين ، والتي مثلها هي طويلة جداً ، فإن فيها ما يجعلنا نتحمل مشقاتها معاً إلى نهايتها . وأشعر بأن علينا تحملها معاً . لكن يا فريد أنت تصغر نفسك » ، أنت حالم واصطناع الأحلام خطر .

كنت فهمت الأم لو أنك تركتنا من أجل امرأة أخرى ، سيكون ذلك مزعجاً لي أكثر بكثير مما هو الآن ، لكنني سأفهمه . وإن كان بسبب تلك الفتاة التي في كوخ الأكلات الخفيفة يا فريد لاستطعتُ فهمه أيضاً .

قلت : « أرجوك ، لا تتحدثي عن ذلك » .

أكملت : « لكن ابتعدت في أحلامك . هذا ليس جيداً ، أنت تحب رؤيتها ، أليس كذلك ؟ الفتاة التي في الكوخ ؟ »

- « نعم ، أحب أن أراها . أحب كثيراً أن أراها . سأذهب كثيراً إلى هناك وأراها ، لكنني لا أحلم أبداً بهجرك من أجلها ، إنها تقيّة جداً » .
- « تقيّة ؟ كيف عرفت ذلك ؟ » .

- « لأنني رأيته في الكنيسة . إنني رأيته هناك تركع فقط وتتلقى البركة ، لم أبق في الكنيسة أكثر من ثلاث دقائق ، كانت تركع هناك مع الأبله ، وقد باركهما القس معاً . فرأيت كم ورعة هي ، رأيت ورعها في حركاتها ، تبعته لأنها لا مست قلبي » .

- « ما الذي فعلته ؟ »

- « لامست قلبي » .

- « هل أنا أيضاً لامست قلبك ؟ » .

- « أنت لم تلامس قلبي ، أنت قلبت قلبي عالياً سافلاً ، هذا ما يُعبّر عنه حسباً أعتقد بـ « أحبك كثيراً » .

- « هل من نساء أخريات لا مَسْنَ قلبك ؟ »

قلت : « نعم ، قليلات جداً . قليلات أولئك اللاتي لامسن قلبي . وفي الحقيقة أنا لا أريد وصف الأمر بهذا المعنى ، لكنني لا أعرف تعبيراً أفضل . . لامسنني بلطف ، هو ما يجب أن أقوله . في برلين رأيت امرأة لامست قلبي . كنت واقفاً عند نافذة القطار . فجأة دخل قطار من الرصيف الثاني . توقفت نافذة فيه قبالة نافذتي ، وكانت النافذة مفتوحة -

كانت مضطربة - وصرت أتطلع في ووجه امرأة لامست قلبي في الحال . كانت شديدة السُمر طويلاً ، وابتسمت لها . ثم بدأ قطارى يتحرك ، انحنيت إلى الخارج ، لوّحت لها طويلاً قدر ما استطعت رؤيتها . لم أراها مرة أخرى ، ولم أرد أن أراها مرة أخرى .

- « لكنها لامست قلبك . أخبرنى بكل قصص الملامسات هذه يا فريد . هل لوّحت لك أيضاً مُلامسة القلوب ؟ »

قلت : « نعم ، لوّحت لى . لأفكر قليلاً ، أنا متأكدة من أنى سأذكر الآخرين . لى ذاكرة جيدة للوجوه . »

قالت : « استمر يا فريد ، تذكر . »

قلت : « غالباً ما يحدث لى هذا مع الأطفال ، مع الرجال الشيوخ ، والنساء العجائز أيضاً ، للسبب نفسه . »

- « وأنا قلبت قلبك عالياً وسافلاً فحسب ؟ » .

- « أنتِ لامسته أيضاً . أوه يا حبيبتى . لا تضطرينى على ترديد هذه الكلمة . حين أفكر فيك ، فكثيراً ما يحدث هذا : أراك تنزلين على السلم ، تتجولين وحدك خلال المدينة ، أراك تتسوقين ، تُطعمين الطفل . إذن ، هذه هى حالى معك . »

- « لكن الفتاة فى الكوخ قريبة جداً . » .

- « ربما اختلف الأمر إذا رأيتها مرة أخرى . »

قالت : « ربما ، هل تريد أن تنهى بيرتى ؟ »

قلت : « نعم . »

وأوصلتُ كأسها إليَّ فأنهيتهما ، ثم نهضت ، رفعت الأقداح والصحون الفارغة ونزلت بها . رجلان شابان كانا يقفان عند المنضدة ، كشرًا في وجهي وأنا أضع الأقداح والصحون الفارغة على المنضدة .

مرة أخرى كانت هناك صاحبة المحل ذات الوجه الأبيض عديم المسام . أشارت برأسها إليَّ ، وصعدت حالاً إلى الطابق العلوى . حين دخلت الغرفة نظرت إليَّ كيت وابتسمت . أطفأت النور ، خلعت ملابسى فى الظلام ودخلت الفراش . قلت :

ـ « إنها فقط العاشرة » .

قالت : « بديع ، نستطيع أن ننام تسع ساعات تقريباً » .

ـ « كم سيبقى الرجل الشاب مع الأطفال ؟ » .

ـ « إلى ما قبل الثامنة » .

قلت : « لكننا لا نريد أن نسرع بعد الإفطار » .

ـ « ألا يوقظنا أحد » .

ـ « كلا ، سأستيقظ أنا فى الوقت » .

قالت : « أنا متعبة يا فريد ، لكن أخبرنى أكثر . ألا تعرف مزيداً من قصص الملامسة ؟ » .

قلت : « قد أفكر فى قليل منها » .

قالت : « استمر ، أنت رفيق لطيف ، لكنَّ هناك أوقاتاً أود أن أضربك فيها . أنا أحبك » .

— « إننى مسرور لأنك قلت هذا . أحسست بأن على أن أسألك . . » .

— « اعتدنا أن يسأل أحدهنا الآخر كل ثلاث دقائق » .

— « لسنوات » .

قالت « لسنوات ، استمر ، أخبرنى » .

وأخذت يدي متشبثة بها .

سألتها : « أعن نساء ؟ » .

قالت : « كلا ، أفضل أن أسمع عن رجال أو أطفال ، أو عن نساء كبيرات السن . لا أدري إن كنت متأكدة من أمر الشابات » .

— « لا شئ تخشين منه » .

قلت هذا وانحنيت عليها ، قبلتُ فمها ، حين اضطجعت ثانية ذهب
بصرى إلى الخارج ، ورأيت شعاراً مضاءً :

يمكن الاعتماد على دوائيك !

قالت : استمر » .

قلت : « فى إيطاليا . كثير من الناس لامسوا قلبي . رجال ونساء ،
شباب وشيب . أطفال أيضاً . وحتى نساء ثريّات ، ورجال أثرياء أيضاً »

— « قبل دقيقة مضت ، قلت إن الناس مُضَجِرُونَ » .

— « أشعر بأنى مختلف جداً ، أنا أفضلُ كثيراً منذ عرفتُ أنك لا تزالين
تحييننى . لقد قلت لى أشياء مزعجة » .

— « لن أسحب منها كلمة ، نحن الآن نلعب قليلاً يا فريد . لا تنس أننا

نلعب . قريباً سنعود إلى الجدد - ولن أسحب منها كلمة - وحقيقة أنى أحبك لا تعنى شيئاً ، فأنت تحب الأطفال أيضاً ، لكن لا تهتم حتى بـ كيف يحيون .

قلت : أوه ، أعرف ، لقد كشفت عن نفسك تماماً . لكن حدّدي الآن اختيارك أيّاً تحبين ، رجلاً ، أو امرأة ، أو طفلاً ، وأى بلد ؟

قالت : « هولندا ، ألمانيا »

قلت : « أوه ، هذا يعنى أنك تتوقعين منى أن أجد لك ألمانياً ليلامس قلبك؟ أنت وضيعة ، فأنا خلال الحرب مرة واحدة فقط رأيت ألمانياً لامس قلبي ، و كان ثرياً في ذلك الوقت . لكنه لم يعد غنياً - كان ذلك ونحن نُساق عبر روتردام ، كانت تلك أول مدينة مدمّرة أراها ؛ لطيف أنى وصلت الآن مرحلة أن مدينة غير مدمّرة تحبطني - في ذلك الوقت كنت مشوشاً تماماً . رأيت الناس ، رأيت الخرائب ... » .

أحسست الآن أن قبضتها على يدي قد تراخت ، انحنيت عليها . رأيت أنها نائمة : في النوم يبدو وجهها متغطرساً ، مهموماً جداً ، شفتاها منفرجتان قليلاً في مظهر المعاناة .

اضطجعتُ ثانية ، دَخَنْتُ سيجارة أخرى وبقيت مضطجعاً يقظاناً في الظلام وقتاً طويلاً ، أفكر في الأمر كله . حتى أنى حاولت أن أصلى ، لكن لم أستطع ، وللحظة فكرت في النزول مرة أخرى إلى الطابق الأرضي فقد أحظى برقصة على الأقل مع تلك الفتاة من مصنع الشيكولاته ، لأشرب شنايزر آخر ، لألعب بالمكّنات قليلاً - مؤكداً أنها الآن مجاناً - لكنى بقيت في النهاية حيث كنت . كل مرة أرى الشعار في أعلى البناية يتوهج ، فيضياء

ورق الجدران المخضرّ والمزخرف بقلوب . أرى ظل المصباح قُبالة الحائط ، وأرى نقوش البطانيات : دبة تلعب كرة ، وقد استحالت رجالاً يلعبون كرة : رياضيون بأعناق ثيران ينطحون لبعضهم فقاعات صابون فائقة الحجم . كما الشعار هناك في الأعلى :

يمكن الاعتماد على دوائيك !

ذلك هو الشيء الأخير الذي رأيته قبل أن أغرق في النوم .

مازالت مظلمة في الخارج استيقظت . لقد نمت نوماً عميقاً ، ولحظة استيقظت كنت أتمتع بشعور عظيم بالحياة الطيبة ، فريد مازال نائماً وجهه إلى الحائط ، وكنت لا أرى غير رقبتة النحيلة ، نهضت سحبت الستارة جانباً ، فرأيت الفجر الرمادي الباهت فوق المحطة . قطارات معاكسة تصل . صوت المذيع المخنوق يمر عبر الخرائب حتى يصل إلى الفندق . ويمكن سماع ضربات القطارات . كل شيء في البناية هادئ . كنت جائعة ، تركت النافذة مفتوحة ، عدت إلى الفراش وانتظرت . لكنني كنت غير مستقرة . أفكر دائماً بالأطفال ، اشتقت لهم ، أفكر في الوقت ، مادام فريد لا يزال نائماً فهي ليست السادسة والنصف - لدى وقت كثير . نهضت ثانية ، ارتديت الجاكيت الخاص بي ، لبست حذائي وانسللت خلال الممر نصف المضاء إلى المغاسل ، حتى وجدتها أخيراً في زاوية غير مضاءة ، كريمة الرائحة . لا يزال فريد نائماً ، وكنت أرى الساعات المتلامعة في المحطة - مصفوفة متوهجة الأقراص - لكنني لم أستطع قراءة الوقت . في أعلى البناية السامقة ، توهج الشعار ثانية ، سطع حاداً في الظلمة الرمادية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك

اغتسلتُ جيداً بدون إحداث ضجة ، ارتديت ملابسى ، وحين نظرت
حولى رأيت فريداً يراقبنى : اضطجع هناك يطرف بعينه ، أشعل سيجارة ،
وقال :

- صباح الخير .

قلت : « صباح الخير » .

- « هل تشعرين بعد بمرض ؟ » .

- أبداً ، أشعر بأنى بخير تماماً .

قال : « حسن ، لا حاجة للتعجل » .

قلت : « يجب أن أغادر المكان يا فريد ، قد بدأت أقلق » .

- « ألا نمضى لتناول الإفطار معاً ؟ » .

قلت : « كلا » .

صاحت صَفَّارَةٌ مصنع الشيكولاته عالياً ، صوتها الحاد شق الفضاء
ثلاث مرات فى ذلك الصباح .

جلست على حافة السرير ، شددت أشرطة حذائى ، وأحسست بفريد
يمرر يده فى شعرى من الخلف ، تركه يتهدل بلطف من بين أصابعه وأشار :

- « إن كان كل أمس صحيحاً ، فافتضى أنه يعنى : أن يرى أحددنا
الآخر مرة أخرى زمناً . . ولكن ألا نشرب فنجان قهوة معاً على الأقل ؟ » .

لم أقل شيئاً ، شددت تنورتى ، وزررت قميصى ، تطلعت إلى المرأة
ومشطت شعرى ، ما كنت أنظر إلى نفسى فى المرأة ، لكنى مشطت شعرى ،
وأحسست بخفقان قلبى . أدركت الآن كل شىء قلته أمس ، ولم أشأ

استرجاعه . شعرت شعوراً كاملاً بأنه سيعود ، لكن كل شيء بدأ الآن غير أكيد .

سمعته ينهض ، رأيته في المرأة يقف إلى جانب السرير تماماً ، وآلمني كم بدا مدمراً . كان قد نام في قميصه الذي كان يرتديه خلال النهار . شعره كان أشعث ، وقد بدا نكدًا بدون قصد سحبت المشط خلال شعري ، لم أضع في اعتباري جديدًا أنه قد يهجرنا فعلاً ، لكنني أعتقد ذلك الآن .

سكن قلبي ، بدأ يسرع ، توقفت ثانية . راقبته عن قرب وهو واضح سيجارة في فمه ، ويزرر بملل بنطلونه البالي ، شد حزامه ، ارتدى جوربيه وحذائي : إنه هنالك واقف في حجرة مرر يديه على جبهته وحاجبيه ، ولم أستطع تصديق أنني قد تزوجته لخمس عشرة سنة : كان غريباً على ذلك الرجل الضعيف ، الملول ، الذي جلس الآن على حافة السرير ، يمسك رأسه بيديه ، تركت نفسي تهوى في المرأة وتعيش على رؤيا حياة أخرى أنا فيها دونما زواج : إنها ستكون رائعة ، حياة لا زواج فيها ، لا أزواج مجهدى العيون ، يندر أن يكونوا يقظين ، يبدأون نهارهم بالزحف إلى سجائرهم . سحبت عيني من المرأة ، مشطت شعري في ذلك المكان ومضيت إلى النافذة . هي أخفت الآن . الرمادي الشاحب فوق المحطة ، حلّ فيّ أنا بدون أن أدري : فقد كنت لا أزال أحلم بتلك الحياة التي لا زواج فيها ، هذا الذي وُعدنا به . أسمع إيقاع التراتيل ، رأيت نفسي في مجموعة الرجال الذين لم أتزوجهم ، رجال عرفتهم وما كانت لهم رغبة في اختراق رحمي .

سألني فريد وهو عند المغسلة : « أيمكنني استعمال فرشاة أسنانك ؟ »

نظرت إليه وقلت بتردد : « نعم » .

وفجأة ذهبت إليه مرة أخرى . وصحت :

- « يا إلهي ، تستطيعُ على الأقل خلع قميصك وأنت تغتسل ! » .

قال لي : « ألم أفعل ذلك ؟ » .

. وفتح ياقة قميصه ، بلّل المنشفة ، مسح وجهه ورقبته ، وأثارتني حركاته اللامبالية .

قال : « سأعتمد دوائياً وأشتري فرشاة أسنان معتمداً عليها . ماذا لو اعتمدنا دوائياً في كل أمورنا ؟ » .

صرخت فيه ثانية : « فريد ، كيف يمكنك طرح نكات ، لم أرك مطلقاً في مثل هذا الحال الطيب وفي هذا الصباح الباكر ؟ » .

قال : « لست في حال طيب أبداً ، ولا حتى في حال سيء » ، وإن كان صعباً الشعور بالسرور دونها إفطار ، ولا حتى قهوة » .

قلت : « أوه ، إنى أعرفك ، امضِ ودع قلبك يُلامس » .

كان يستعمل مشطى ، توقف الآن ، استدار ونظر إلىّ : « أدعوك لإفطارٍ يا حبيبتي » . وقال : « أنت لم تعطني أى جواب حتى الآن » .

التفت مبتعداً عنى ، استمرّ في تمشيط شعره ، وقال في المرأة :

- « سوف أكون قادراً على إعطائك تلك الماركات العشرة ، ريثما في الأسبوع القادم » .

- « أوه ، أنسها ، ليس حتماً عليك منحى كل نقودك » .

- « لكنى أودّ ذلك ، وأرجو أن تقبليها » .

- « شكرًا لك يا فريد ، أقدر لك ذلك ، فأنا حقًا أتعجبها ، إن كنا ذاهبين لتناول الإفطار ، فالأفضل أن تعجل لها » .

- « إذن ستأتين ؟ » .

- « نعم » .

- « أوه ، حسن ! » .

سحب رباطه تحت ياقته ، شده ، ومضى من فوق السرير ليأخذ سترته .

صاح : « سأعود . سأعود بالتأكيد ، أعود إليك ، لكنني لا أريد أن أضطرّ إلى شيء أميل لأن أفعله من تلقاء نفسي » .

قلت : « فريد لا أظن هنالك أي شيء آخر لكى نناقشه بعد » .

قال : « كلا ، أنتِ على حق ، سيكون رائعاً أن أراك مرة أخرى في حياة أستطيع أن أحبك فيها قدر ما أحبك الآن دون أن أتزوجك » .

همست : « كنت أفكر في هذا » .

ولم أستطع حبس دموعي .

أسرع إليّ من حول السرير وطوّقني بذراعيه ، وسمعته يقول وفمه يستقر على رأسي :

- « كم هو رائع أن أراك مرة أخرى ، آمل ألا يصدمك إقترابي منك هناك أيضاً » .

قلت : « أوه ، يا فريد ، فكّر في الأطفال ! » .

- « ألا تعطيني قبلة ؟ » .

رفعتُ رأسي وقبلته .

انسحب مني ، ساعدني على ارتداء جاكيتي ، وحزمتُ أنا أشياءنا حين
كان ينتهي هو من ارتداء ملابسه .

قال : « المحظوظون هم أولئك الذين لا يجب أحدهم الآخر حين
تزوجوا . إنه لأمر مزعج أن يجب بعضهم بعضاً ويتزوجون » .

قلت : « لعلك على حق » .

كان الظلام لا يزال منتشرًا . وفي الممر كانت هناك رائحة تأتي من زاوية
المغاسل ، وكان المطعم الذي في الطابق الأرضي مغلقاً ، وليس هناك أحد ،
ولا باب مفتوح . علّق فريد المفتاح على مسمار كبير بجانب المدخل المؤدى
إلى المطعم .

كان الشارع ممتلئاً بالفتيات اللائى في طريقهن إلى مصنع الشيكولاتة :
كنت مندهشة للسرور البادئ عليهن ، أكثرهن ، يَسِرْنَ ذراعاً في ذراع
ويتضحكن .

ونحن ندخل مطعم الأكلات الخفيفة ، دقت أجراس الكاتدرائية
السابعة إلا ربعاً . أدارت لنا الفتاة ظهرها ، وهى تشغل مكنة القهوة .
كانت هناك مائدة فارغة واحدة . جلس الأبله قابلاً إلى جانب الموقد ،
يمص مصاصته . كان المكان دافئاً وداخناً ، ابتسمت لى الفتاة وهى
تستدير، وقالت :

« أوه ! » .

ثم نظرت إلى فريد ، وثانية إلئى ، ابتسمت وأسرعت إلى المائدة الفارغة
لتمسحها . طلب فريد قهوة ولفائف خبز وزبدًا .

قعدنا ، وأراحنى أن أراها مسرورة بصورة حقيقية : أذناها محمرتان من الانفعال وهى تُهَيِّئ لنا الصبحون . لكنى كنت قلقة ، مضيتُ في التفكير في الأطفال ، والإفطار لا يعنى تحقيق نجاح . كان فريد قلقاً أيضاً ، لاحظتُ أنه نادراً ما ينظر إلى الفتاة وأنه متعب ، ولا ينظر لى حين لا تكون عيناي عليه ، وحين أنظر إليه يبتعد بنظره عني ، كثير من الناس دخلوا «الكوخ» ، تناولت الفتاة لفائف الخبز والسجق والحليل . حسبت النقود ، أخذت بعضها ، وهى تنظر إلى بين حين وآخر وتبتسم ، كما لو أنها تؤكد فهماً شخصياً ، فهم شيء لما بدت - وهى صامتة - متيقنة منه . وحين هدأت الأمور قليلاً مضت إلى الأبله ، مسحت فمه ، همست باسمه في أذنه ، في حين كنت أنا أفكر في بكل ما حدثتني عنه .

لقد أُرْجِفْتُ بكل كيانى إلى الورا حينما دخل القس الذى تلقى اعترافى أمس - ابتسم للفتاة ، أعطاه بعض النقود ، وتسلم منها ، عبر المنضدة ، علبة سجائر حمراء ، كان فريد يراقبه بانتباه أيضاً ، بعدها فتح القس العلبة وساحت نظره بدون قصد حول الغرفة ، رآنى ، ورأيتة يحفل ، هو ليس مبتسماً الآن ، ترك السيجارة تنزلق في جيب سترته السوداء ، اتجه إلى وتردد ، وخطا إلى الورا مرة ثانية . /

نهضت وسرت إليه .

قلت : « صباح الخير يا أبى » .

- « صباح الخير » .

أجابنى ونظر حواليه في حيرة ، وهمس :

- « يجب أن أتحدث إليك ، فقد كنتُ في بيتك هذا الصباح » .

سألته : « ولكن لماذا ؟ » .

أخذ السيجارة من جيب سترته ، وضعها بين شفتيه وهمس ، وهو يشعل
عود الثقاب :

- « إنك في حلٍّ تام من ذلك ، كنت أحمق ، اغفرى لى » .

قلت : « أشكرك كثيراً ، كيف الأمور في البيت ؟ » .

- « تكلمت مع السيدة الكبيرة وبالمناسبة ، أهى والدتك ؟ » .

تساءلتُ بفزع : « أمى ؟ » .

- « تعالى ، وقابلينى في وقت ما » :

قال هذا وغادر المكان مسرعاً .

حين عدت إلى المائدة ، لم يقل فريد شيئاً ، بدا تعيساً جداً ، وضعت
يدى فوق ذراعه :

- « علىَّ أن أرحل يا فريد » .

- « ليس الآن ، أريد أن أتحدث إليك » .

- « ليس هنا ، يا إلهى ! فيما بعد ، إنَّ لك الليل بطوله » .

همس :

- « إننى عائد ، وقريباً ، هذه بعض النقود للصغار ، لقد وعدتُ . . .

أليس كذلك ؟ اشترى لهم شيئاً ، ربما بعض الآيس كريم ، إن كان ذلك
مما يحبونه » .

وضع ماركاً ، أخذته ، وضعته في جيب سترتى .

همس : « فيما بعد ، ستأخذين ما أنا مدين به إليك » .
قلت : « أوه ، فريد لا تواصل التفكير في هذا » .
قال : « يجب عليّ . . إنه لأمر مخيف أن أفكر في أننا ينبغي أن . . »
همستُ رادّة عليه : « اتصل بي هاتفياً » .
سألني : « هل ستأتين إن أردتكَ في الهاتف ؟ » .
- « لا تنس أنى مازلت مدينة لهم بثمرن القهوة ، وثلاث كعكات مقلية » .
- « لا أنسى ، هل حقاً تريدان الذهاب الآن ؟ » .
- « يجب عليّ . . »
نهض ، وبقيت جالسة ، وراقبته يقف عند المنضدة وينتظر . الفتاة
« عبرت لي بابتسامة حين كان فريد يدفع الثمن » ، ونهضت وسرت مع فريد
إلى الباب .
نادت عليّ : « تعالى مرة أخرى ! » .
وصحت مجيبة : « سوف أجيء » ، وألقيت نظرة على الأبله ، الذى كان
لا يزال جالساً مُنشغلاً بمصاصته الجرداء .
أخذنى فريد إلى موقف الحافلة ، لم نتبادل كلمة واحدة ، منح أحدهما
الآخر قبلةً على عجل حين قدمت الحافلة ، ورأيته يقف هناك ، كما كنت
غالباً أراه : رثّ الملابس وحزيناً .
استطعت أن أراه يمشى مبطئاً فى اتجاه المحطة بدون أن يلقي نظرة واحدة
إلى الوراء .

شعرت كأنى بعيدة عنه بُعد الأبدية ، وأنا أسير صاعدة على سلام قدرة إلى شقتنا ، أدركت أنى لم أترك الأطفال مدة طويلة كهذه من قبل ، كان هنالك هرج جانبي في النيابة ، أباريق تغلى تطلق ضفيرا ، ومذاييع تلقى تشجيعاتها وبشائرها الرسمية ، وعلى الطابق الثانى «مزويتر» يتشاجر مع زوجته ، لم يكن هناك أى صوت وراء باب شقتنا : ضغطت على زر الجرس ثلاث مرات ، انتظرت ، وأخيرا سمعت الأطفال حين فتح بلرمان الباب ، الباب ، سمعتهم ثلاثتهم ، حييت بلرمان تحية متعجلة وتجاوزته راكضة إلى الغرفة لأرى الأطفال : كانوا جالسين حول المائدة يظهرون سلوكا أفضل من ذلك الذى يبدوونه معى ، حديثهم وضحكهم تلاشى حين دخلت ، كانت لحظة صمت وشعرت بندبة حزن ، خفت - دقيقة واحدة لكنها دقيقة لا أنساها .

بعدها نهض الكبيران واعتنقانى ، وحملت أنا الرضيع بين ذراعى ، قبلته وأحسست بدموعى تجرى على وجهى ، كان بلرمان مرتديا سترته ، حاملا قبعته ، سألته :

- « هل كان سلوكهم جيدا ؟ » .

قال : « نعم ، جيدا جدا » .

ونظر الأطفال إليه وابتسموا .

قلت : « انتظر دقيقة »

وضعت الرضيع فى مقعده العالى ، تناولت محفظة نقودى من الدرج ، وخرجت مع بلرمان إلى الممر ، رأيت قبعة السيدة زوجة فرانك ، وقبعة السيد فرانك موضوعتين على المائدة فى الصالة .

قلت : « صباح الخير » .

السيدة همف كانت عائدة من المغسل عاقصة شعرها تحت ذراعها مجلة مطوية ، انتظرت حتى دخلت في غرفتها ، فنظرت إلى بلرمان وقلت :
- « أربعة عشر ، أليس كذلك ؟ » .

قال مبتسماً :

- « خمسة عشر » .

أعطيته خمسة عشر ماركاً وقلت :

- « شكراً جزيلاً » .

فأجاب : « بكل سرور » .

ثم أحنى رأسه على باب غرفتنا ، ونادى :

- « وداعاً أيها الصغار ! »

ورد عليه الصغار : « وداعاً ! » .

عانقتهم كلهم مرة واحدة حين بقينا وخذنا ، منحت كل واحد نظرة فاحصة ، ولم اكتشف شيئاً في وجوههم يتفق ومخاوفي . بحسرة رحت أهْيِي لهم «سندويتشات» المدرسة كليمنز وكارلا كانا ينشبان في صناديقهما ، كارلا تنام على سرير حربي أمريكي ، كنا طويناه أثناء النهار وعلّقناه في السقف ، وكليمنت على أريكة عتيقة مستوية ، زاد طوله عن طولها ، بلرمان سوّى لهم حتى فراشهم .

قلت لهم : « أيها الصغار يرسل لكم أبوكم محبته ، أعطاني لكم بعض النقود » .

مشت « كارلا » إلى وأخذت «سندويتشاتها» ، نظرتُ إليها : إن لها شعرَ
فريد الأسود وعينيه ، وهى مثله حين تنظر بعيداً فجأة .

كان الرضيع يلعب فى مقعده الصغير ، ويتطلع إلى بين وقت وآخر كأنه
يريد التأكد من أنى ما زلت فى مكانى ، ثم يمضى لاعباً .

قالت «كارلا» : ثم قلتُ :

- « هل أدیتما صلاتكما ؟ » .

- « نعم » .

- « سیأتى أبوکم إلى البيت قريباً » .

قلت ذلك وشعرت بعطف كبير على الأطفال ، وجاهدت لکى لا أبكى
مرة أخرى .

ومرة أخرى لم يقل الطفلان شيئاً .

نظرتُ إلى «كارلا» التى كانت جالسة على كرسى إلى جانبى ، تتصفح
كتاباً مدرسياً وترشف حليبها بارتباك ، وفجأة ، نظرتُ إلى ، وقالت بهدوء :
- « إنه ليس مريضاً . . إنه لا يزال يعطى دروساً » .

التفتُ ونظرتُ إلى «كليمنز» الذى كان جالساً على الأريكة منحنيّاً فوق
أطلس ، نظر ساكناً وقال :

قال لى بيزم : « إنه يجلس جوارى » .

لم أكن أعرف هذا .

قلت « هنالك أمراض لا يرقد فيها الشخص فى الفراش » .

لم يقل الطفلان شيئاً ، خرجا بحقيبيهما المدرسين ، وخرجت أنا للممرّ، تابعتهما من هناك بعينيّ وهما يسيران بطينين في الشارع الرمادي ، كتفاهما مرخيتان قليلاً تحت ثقل الكتب ، لم أعد أرى الطفلين ، صرت أرى نفسي وحدها من فوق : فتاة صغيرة بصفائر شُقر ، تفكر في حياكة صورة ، أو تأريخ موت شارلمان . .

حين رجعت إلى نفسي كانت السيدة فرانك واقفة أمام مرآة الصلاة تسحب إشارباً بنفسجياً لتشده في المكان المناسب دون قبعتها . .

كانت الأجراس تُقرع لقداس الساعة الثامنة . قالت :

ـ « صباح الخير » .

وتقدمت إليّ تستقبلني بابتسامة في ظلامك الممر ، ثم راحت تساليني إلى غرفتنا .

قالت بلهجة ودية : « يقولون إن زوجك هجرك أخيراً ، هل صحيح ذلك ؟ » .

قلت بهدوء : « ذلك صحيح ، هو قد هجرني » .

وعجبت من أنى لم أشعر نحوها بمزيد من الكراهية .

ـ « وهو يشرب ، أليس كذلك ؟ » .

وشدت «الإشارب» على عنقها الجميل .

يندر سماع صوت هناك ، لكنى كنت أسمع مناغاة رضيعنا في غرفتنا وكأنه بكلم قوالبه ، كما سمعت صوت مذياع المحطة يعلن خمس ، ست ، سبع مرات ، أستطيع سماعه بوضوح في ذلك الصمت :

« إنها الساعة وتسع وثلاثون دقيقة ، لعله الوقت الذى تترك فيه زوجتك الفاتنة ، ولكن ربما لا يزال بإمكانك أن تصغى إلى مارش «بلُور» الصباح البهيج . . . » .

أستطيع أن أسمع الآن موسيقى الصباح ، والبشائر الرسمية المشجعة وهى تهوى على مثل جلدات سَوَوط ، السيدة «فرانك» تجلس قُبالتى ، لا تتحرك ولا تتكلم ، لكنى رأيت ذلك الألق الفتاك بعينها ، متشوقة هى لصوت الزنجى الخشن ، والذى سمعته أنا مرة ، مرة واحدة فحسب ، وبقيت أنتظره سُدَى منذ ذلك الحين ، الصوت الخشن الذى غنى :

« . . . ولم يقل كلمة » .

قلت « وداعاً » للسيدة فرانك ، أبعدتها قليلاً عن طريقى ودخلتُ غرفتى ، لم تقل شيئاً ، حملتُ الرضيع ، ضَمَمْتُهُ إلى صدرى ، وسمعت السيدة فرانك تمضى إلى القدّاس .



5

تقف الحافلة دائماً في المكان نفسه ، والفسحة التي تتوقف فيها مملوءة بالحُفَر ، فكلما وقفت فيها أحدثت ضجة توقظني ، نهضت ونزلت منها ، وبعد عبور الشارع وجدت نفسي أمام واجهة مخزن مُعَدَّات : نظرت إلى إعلان

« سلام - جميع الأحجام - ٢٠ ، ٣٠ للعارضة » .

لم أقصد النظر إلى ساعة البناية كي أتأكد كم الوقت ، ولكنها كانت الثامنة إلا أربع دقائق - إن بدت الساعة الثامنة أو تجاوزت الثامنة ، فسأعرف أن الساعة مسرعة : الحافلة أكثر دقة في الوقت من الساعة .

أقف كل صباح لمدة أربع دقائق أمام الإعلان :

« سلام - جميع الأحجام - ٢٠ ، ٣٠ للعارضة » .

يلي الإعلان سلم ذو ثلاث عوارض ، ولأن الصيف ابتداءً ، فإلى جوار السلم امرأة شقراء بالحجم الطبيعي مصنوعة من « البايير ماشه » أو الشمع ، ممتدة على كرسيّها - لا أدري أبة مادة يستعملون لصناعة « المانيكانات » -

كانت المرأة تلبس نظارات شمسية وتقرأ رواية عنوانها : «استراحة من النفس» ، لم أستطع قراءة اسم المؤلف ، لأنه كان مخفياً وراء لحية عفريت من بلاستك ينحني فوق حوض مائي ، في المخزن ، بين طواحين القهوة ومكاوى الملابس والسلم تتمدد تلك « المانيكان » الشقراء بالحجم الطبيعي ، مضطجعة على كرسى الاستراحة وهي تقرأ رواية «استراحة من النفس» .

لكن اليوم - وحين خروجي - رأيت أن إعلان « سلام كل الأحجام - ٢٠, ٣ لكل عارضة » قد اختفى ، وأن المرأة التي أمضت الصيف كله مضطجعة كل كرسى الاستراحة تقرأ « استراحة من النفس » ، ترتدى الآن بدلة تزحلق زرقاء ، وتقف على زلاّجتين ، يرفرف شعرها في الهواء ، وإلى جانبها هذا الإعلان :

فكّر في رياضة الشتاء !

لم أفكر في رياضة الشتاء ، انعطفت إلى شارع «ملشيور» ، اشترت خمس سجائر من الكشك على يسار مكتب الأبرشية ، وسرت مجتازة البواب في الرواق ، حيّاني البواب ، هو أحد أصدقائي في هذا المكان ، يأتي إلّي أحياناً ويتفقّدي في الطابق الأول ، يدخن غليوناً ويخبرني بآخر الشائعات .
أشرتُ برأسي للبواب ، وحييت عدداً من رجال الدين كانوا حاملين حقائبهم ويسرعون في صعود السلم .

في الطابق الأعلى ، فتحت باب غرفة البدالة ، علقْتُ سترتي وقُبعتي ، وألقيْتُ سيجارتي على المنضدة وأتبعْتُها بقطع «الخردة» أوصَلْتُ الكهرباء بالبدالة ، وجلست .

شملتني السكينة بعد أن قعدت في مكان عملي : هممة خافتة في أذني

تقول : « تبادل » حين اشتعل الضوء الأحمر ، أدار واحد في البناية أرقام هاتفه مرتين ، وتم الاتصال ، حسبت قطع نقودى المرمية على المنضدة - كانت ماركاً وعشرين - اتصل البواب حين أجابنى ، قلت :
« بوكتر يتكلم ، صباح الخير ، هل وصلت الصحيفة؟ » .
قال : « حتى الآن سأصعد بها إليك حالماً تأتى » .

- « إذن إلى اللقاء . . » .

- « إلى اللقاء . . » .

في الثامنة والنصف وصل التقرير الذى يُمليه «مونسينور زمر» مدير الدائرة - عبر الهاتف ، كل واحد يشعر بالاستياء من «زمر» ، حتى القسيس العاملون في البناية ، والذين تحولوا من واجباتهم الرعوية إلى الإدارة ، فهو لايقول لأحد «رجاء» ، ولا يقول «شكراً» ويقشع جسدى كلما أدار أرقام هاتفه وأجبتة ، كل صباح في الثامنة والنصف تماماً يقول :
- « مونسينور زمر » .

وسمعت « برزكن » يدلى بتقريره :

- « خرجوا مرضى : فلديك ، زك ، شابلين ، هوشل ، لم يقبل عذر «شابلين سودن» حتى الآن » .
- « ما قضية سودن ؟ » .
- « لا فكرة يا سيدى » .

وسمعت تحسراً من «زمر» ، هو الحال كلما ورد اسم «سودن» ، كانت تلك نهاية المكالمة .

الساعة قاربت التاسعة ولم ينته ضجيج المخابرات : نداءات آتية ،
نداءات خارجة ، نداءات بعيدة على أن أتسلمها وأدخلها الخط مرة ،
وأخرى أنا أدخل على الخط ، أصغى إلى المكالمات حتى أصل إلى نتيجة أنها لم
تتجاوز المائة والخمسين كلمة ، أكثر الكلمات استعمالاً عند الناس هي :
« انتبه » ، إنها تظهر في الكلام مرة بعد أخرى ، إنها حاضرة في الكلام
العادى .

« الصحافة اليسارية هاجمت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة اليمينية أهملت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة الكنسية امتدحت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« ارتحل سودن بدون عذر ، انتبه » .

« وبولز يواجه جمهوراً في الحادية عشرة ، انتبه » .

« ون ، م مختصر لـ : نيافة المطران » .

قضاة الطلاق يتكلمون اللاتينية حتى في الهاتف حينما يجرى حوارهم عن
المهنة : دائماً أنصت وإن كنت لا أفهم كلمة واحدة ، أصواتهم رزينة ، وإن
بدا غريباً إصغائي لهم وهم يضحكون من نكات في يلقونها باللغة اللاتينية ،
غريبان هذان الرجلان : الأب بتر ، ومونسنيور سيرج ، هما الوحيدان في
المنطقة اللذان يبديان لى ودّاً ، في الحادية عشرة اتصل «زمر» بسكرتير المطران
الشخصى :

- « أقترح معارضة لغوغائية الدوائين - ولكن انتبه ، انتهاك لموكب
المنطقة إن لم يكن استهزاءً به ، انتبه » .

- بعد خمس دقائق ، ردّ السكرتير العام للمطران :
- « نيافته سيشارك فى المعارضة بشكل شخصى ، ابن عم لنيافته هو رئيس اتحاد الدوائيين ، انتبه » .
- « ماهى نتيجة الجمهور مع بولز ؟ » .
- « لا شىء محدد حتى الآن ، لكن أكرّر : انتبه » .
- بعد قليل طلب مونسنيور زمر أن أوصله بمونسنيور فاينر :
- « ستة انتقلوا من الأبرشية المجاورة » .
- « كيف هم ؟ » .
- « اثنان مستقيمان ، ثلاثة ج ناقص ، أحدهما يبدو جيدًا ، هكمان عائلة عريقة » .
- « أعرفهم ، عائلة من الطراز الأول ، كيف كان الحال أمس ؟ » .
- « مرعب ، المعركة مستمرة » .
- « ما هو ؟ » .
- « مستمرة ، المعركة - فى السِّلْطَةِ خَلْ » .
- « وقد حصلت الآن . . . » .
- « اعتمد أشهرًا على الليمون ، لا يستطيع الحصول على خَلٍّ ، تحدّ مطلق » ،
- « من تعتقد وراء ذلك ؟ » .
- « ف ، » قال زمر : « أنا متأكد أنه « ف » أشعر بالانزعاج » .

- « عمل مرعب ، نعود له لاحقاً » .

- « نعم لاحقاً » .

وهكذا أُلقيتُ في معركة خضتها كما يبدو من أجل قطرات نخل .

حوالى الحادية عشرة وخمسين دقيقة ، اتصل « سيرج » مرة أخرى وقال :

- « بوكتر ، كيف تفضل النزول إلى المدينة ؟

- لا أستطيع الابتعاد ، سيدى »

- « معى شخص يريحك ، لمدة نصف ساعة ، إلى المصرف فقط ، وقد

شعرت بأنك تود ذلك . هنالك أوقات يود فيها المرء الابتعاد » .

- « من سيريحنى ؟ » .

- « الأنسة هانكه ، فسكرتيرتى ليست هنا ، والأنسة لا تستطيع الذهاب

بسبب عجيزتها ، ما تقول فى هذا ؟ »

قلت : « حسن » .

- « هذا ما ظننته . سأصعد حالما تصل هانكه » .

وصلت الأنسة « هانكه » حالاً ، دائماً ما أشعر بهزة حين تدخل غرفتى

باهتزاز بدنها الغريب . إنها تحررتى حين أرغب فى الخروج ، لأذهب إلى

طبيب الأسنان أو لأحمل رسائل لسيرج حينما يريدنى أن « أبادل » . . الأنسة

« هانكه » طويلة القامة محنية وسمراء . مشكلة عجيزتها بدأت قبل ثلاث

سنوات ، حين كانت فى العشرين . لم أتعب قط من النظر إلى وجهها :

أنيق ، تظللُهُ لطافة . حلمت لى زهرات أقحوان ، وضعتها فى الأصيص

بجوار النافذة قبل أن تصافحنى .

قالت : « كيف الصغار ؟ »

قلت : « بخير . . إنهم بخير » .

وارتدبت سترتى .

قالت مبتسمة : « بوكتر ، شخص مارآك سكراناً . لتعرف فقط إذا أشاعها زمر » .

قلت : « شكراً » .

- « يجب ألا تشرب » .

- « أعرف » .

وسألتني متهيبة : « وزوجتك ، كيف زوجتك ؟ »

زررت سترتى ، نظرت إليها ، وقلت :

- « أخبريني بكل شيء ، ما الذى يقولونه عن زوجتى ؟ » .

- « يقولون إنها تأمل ثانية ... » .

- « اللعنة عليهم ، زوجتى نفسها لم تعرف إلا أمس » .

- « مروج الإشاعات عرف قبل أن تعرف زوجتك » .

قلت : « آنسة هانكه ، مالذى يجرى ؟ »

تسلمت نداءً ، أوصلت الخط ، نظرت إلى مبتسمة :

- « حقيقة لا شيء ، يقولون إنك تشرب ، إن زوجتك حامل ، مع أنك

منفصل عن زوجتك منذ مدة » .

- « طبعاً » .

- « حسن هانتذا تقول . . أستطيع فقط أن أحذرُ من (زمر) ، من (برسجن) ، من الآنسة (هشت) ، لكن لك أيضاً أصدقاء في الجوار ، لك أصدقاء أكثر مما لك من أعداء » .

- « لا أصدق ذلك »

قالت : « ذلك أمر حقيقي ، وبخاصة بين الكرادلة ، كلهم تقريباً يحبونك ، « ابتسمت ثانية ، « الطيور على أشكالها تقع ، كما تعرف ، ولست الوحيد الذي يشرب . » .

ضحكتُ : « أخبريني بشيء واحد آخر فحسب : من الذي اغتال (زمر) اغتيالاً بطيئاً بقطرات من خل ؟ »

ضحكت مندهشة : « ألا تعرف ! »

- « حقيقة لا أعرف » .

- « يا إلهنا الطيب ! نصف المحيطين بالأبرشية يضحكون من ذلك ، وأنت ، الجالس في مركز كل الشائعات ، لاتدرى ! حسن : إنه « وب » ، سيكون وب ، له أخت مسئولة عن مطبخ في دير وشاح العذراء الأزرق ، هل من حاجة لأن أقول أكثر ؟ »

قلت : « استمرى ، فليس لي ما يدلني » .

- « زمر منع وب من أن يصبح مطران . بدأ القصاص : خمسون فينيكاً لقنينة خل ، أخرجت من زاوية خفية في المطبخ في دير وشاح العذراء الأزرق لحظة ظهر فيها (زمر) لتناول وجبته . لكن أسرع أنت الآن ، سيرج في انتظارك » .

أشرتُ لها برأسى وغادرت المكان . كلما حدثتُ الأنسة هانكه ، امتلأتُ
بسرور غريب . إن لها موهبة جعل الأشياء تفقد ثقلها . وبنظرتها النافذة
تحيل الأمور إلى لعبة صالةٍ تتمنى التمتع بها .

نصبتُ باروكيةً مثبتةً في جدران الممر . هذا الممر المغسول جيداً ، والذي
يقود إلى مكتب سيرج . سيرج جالس في مكتبه ، رأسه على يده . لا يزال
رجلاً شاباً ، أصغر منى ببضع سنوات ، وله أهميته في القانون الشرعى .
قال : « صباح الخير يا سيد بوكنر » .

قلت : « صباح الخير » .

وسرت إليه ، فصافحنى .

وحين رأيته بعد أيام من إقراضى النقود جعلنى أشعر بأنه قد نسى
أمرها . تلك هى مزيته . ولعله نسيها فعلاً . مكتبه واحد من المكاتب
القليلة التى لم تُدمر . وتحفته مدفئة ذات زخرفة باروكية فى زاوية مكتبه . هذه
التحفة يشير لها دليل التُحف الفنية . لم توقد هذه المدفئة لأن الأمير الناخب
قضى الشتاءات الماضية فى قصر آخر أصغر من هذا . سلّمنى سيرج بضعة
شيكاتٍ وظرفاً فيه أوراق نقدية .

قال : « هنالك اثنان وستون ماركاً وثمانية فينيكات . رجائى إيداع
الشيكات والنقد فى حسابنا ، أنت تعرف رقم الحساب » .
- « سأفعل » .

قال : « أنا سعيد بالتخلص منها . ولحسن الحظ سيعود ، فتش بعد غد
وسأعيد له كل هذه العوائد » .

حَدَّقَ فِيَّ بِعَيْنِيهِ الْوَاسِعَتَيْنِ الْهَادِئَتَيْنِ ، وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ مِنِّي الْحَدِيثَ عَنْ زَوَاجِي . صَحِيحٌ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِسْدَاءِ نَهْيِيحَةٍ ، كَمَا هُوَ أَمْرٌ طَبِيعِي أَنْ تَكُونَ لِمَوْضُوعِي عِنْدَهُ أَوْلِيَّاتٌ مِمْتَعَةٌ . أَرَى فِي وَجْهِهِ رَقَّةً وَذِكَاءً ، أَوْدَ الْحَدِيثِ مَعَهُ ، لَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ . أَفْكَرُ أَحْيَانًا ، أَنِّي سَأَتَحَدَّثُ إِلَى قِسِّ رِثِّ الثِّيَابِ ، وَحَتَّى أَنِّي سَأَعْتَرِفُ إِلَيْهِ . لَكِنِّي أَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ لَا لَوْمَ عَلَى أَحَدٍ بِسَبَبِ نِظَافَتِهِ أَوْ حُبِّهِ لِلنِّظَافَةِ ، إِذَنْ فَسِيرَجُ الَّذِي أَعْرِفُ طَبِيعَتَهُ هُوَ آخَرُ شَخْصٍ يُمْكِنُ أَنْ أَلُومَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا ، فَإِنْ بَيَّضَ يَاقَتَهُ النَّاصِعَ ، وَالطَّرِيقَةَ الْمُتَقَنَّةَ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا الْحَافَةُ الْبِنَفْسِجِيَّةَ وَرَاءَ غَفَّارَتِهِ ، ذَلِكَ كُلُّهُ لَمْ يَشْجِعْنِي عَلَى الْحَدِيثِ إِلَيْهِ .

وَضَعْتُ الشَّيْكَاتِ وَالنَّقُودَ فِي جَيْبِ سِتْرَتِي الدَّاخِلِي ، نَظَرْتُ إِلَيْهِ ثَانِيَةً ، وَوَجَدْتُ نَفْسِي أَوَاصِلَ النَّظَرِ فِي الْعَيْنَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ الْهَادِئَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَدَتَا هُمَا أَيْضًا لَا تَغَادِرَانِ وَجْهِي . أَحْسَسْتُ بِهِ وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقْدُمَ لِي عَوْنًا . إِنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ لَنْ يَفْتَحَ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَوْضُوعِ . رَدَدْتُ عَلَى نَظَرَتِهِ حَتَّى رَاحَ يَبْطِئُ يَبْتَسِمُ ، فَسَأَلْتُهُ فَجَاءَ سُؤْلاً بَقِيَتْ سَنَوَاتٌ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ لُقُوسٌ :

- « هَلْ تَعْتَقِدُ يَا سَيِّدِي بِأَنَّ الْمَوْتَى سَيَنْهَضُونَ ثَانِيَةً ؟ »

تَابَعْتُ وَجْهَهُ الْوَسِيمَ النَّظِيفَ بِدَقَّةٍ ، وَظَلْتُ عَيْنَايَ تَلَازِمَانِ وَجْهَهُ بِحَرَصٍ ، فَمَا تَغَيَّرَتْ مَلَامِحُهُ ، وَقَالَ لِي بِهَدْوٍ :

- « أَجَلْ ! » :

- « وَهَلْ تَعْتَقِدُ فِي ذَلِكَ ؟ » .

مَضَيْتُ بِأَسْئَلَتِي ، لَكِنَّهُ قَاطَعَنِي إِذْ رَفَعَ يَدَهُ ، وَقَالَ بِهَدْوٍ :

« أعتقد في كل شيء تريد أن تسألني عنه ، وإلاّ خلعت هذا الجلباب في الحال وطلقت شريعتي ، تاركاً كل هذا الكوم ورائي » .

وأشار إلى حشد من الملفات على مكتبه .

« لكنت أحرقت هذه الملفات ، لأنها عندئذ ستكون لا معنى لها عندي ، ولا عند أولئك الذين يعذبون أنفسهم بسبب ذلك الاعتقاد نفسه »

قلت : « اغفر لي »

« أوه ، من أجل ماذا ؟ » قالها بهدوء وأكمل :

« أعتقد بأن حقك في أن تسألني أكثر من حقى في أن أسألك » .

قلت : « لا تسألني »

قال : « لا أفعل ، ولكنك ستتكلم يوماً ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم ، يوماً ما سأتكلم » .

تناولت الصحيفة من البواب ، حسبت نقودى مرة أخرى خارج المدخل ، وسرت في البلدة مُبْطِئاً ، فكرت في أشياء كثيرة : في الأطفال ، بكيت بما أخبرنى به « سيرج » ، والآنسة « هانكه » . كلهم كانوا على حق ، وأنا المخطيء ، لكن ما عرف أحد منهم ، ولا حتى « كيت » كم كنت مشتاقاً لأطفالى ، ولكيت أيضاً ، وكيف كانت تمر بى لحظات أعتقد فيها بأننى على صواب وكل الآخرين مخطئون ، لأنهم جميعاً يستطيعون التعبير جيداً عن أنفسهم ، وأنا الذى لا أستطيع العثور على الكلمات .

فكرت إن كنتُ أقدر أن أشتري لنفسى كوباً من القهوة وأقرأ صحيفة . ولفنى ضجيج الشارع وإن كنت أمضى باستقامة بين الأصوات - شخص

كان يبيع موزاً ، ينادى عليه . توقفت أمام واجهة بونبرج ، تطلعت إلى المعاطف المعلقة ، إلى وجوه « المانيكانات » التى تفزعنى دائماً . حسبت الشيكات التى فى جيب سترتى الداخلى ، تأكدت من أن الظرف وما يحويه من نقد لا يزال فى مكانه ، وفجأة وقع نظرى على الأركاديا التى تقسم واجهات بونبرج : رأيت امرأة فلامس مرآها قلبى ، وأثارنى .

المرأة لم تعد شابة ، لكنها جميلة ، رأيت ساقىها ، تنورتها الخضراء ، رثاءة « جياكتها » البنى رأيت قبعها الخضراء ، ورأيت فوق كل هذا ، جانب وجهها ، ملامحها الناعمة الحزينة ، ولدقيقة أو أكثر ، لا أدرى كم من الوقت - توقفت قلبى ؛ رأيت ، خلال الزجاج أنها كانت تنظر إلى الملابس ، وهى فى الوقت نفسه تفكر فى شىء آخر .

شعرت بقلبى يخفق ثانية ، ما زلت أرى جانب وجه المرأة ، وفجأة عرفت أنها « كيت » . مرة أخرى بدت غريبة على ، لبضع لحظات أبحرت فى الشك ، شعرت بحرارة تجتاحنى وظننتى سأجنُّ لكنها الآن واصلت مشيتها، تبعثها ببطء ، وحين رأيتها بدون زجاج ، عرفت أنها « كيت » حقيقةً .

لقد كانت « كيت » ، لكنها « كيت » أخرى ، مختلفة تماماً عن تلك التى عرفت وأنا أتابعها طول الشارع ، ما زالت تبدو لى غريبة وقريبة فى آن واحد . هى زوجتى التى أمضيت معها الليل كله ، التى كنت متزوجها لخمس عشرة سنة .

فكرت : « ربما أنا فى طريقى إلى الجنون فعلاً » .

فزعت حين دخلت « كيت » إلى المخزن ، توقفتُ إلى جانب عربة

خضار، أراقب مدخل المخزن ، وبعيداً ورائى ، وكما لو كان ينادينى من منطقة أخرى ، سمعت الرجل الذى يقف ورائى مباشرة يصيح :

- « قربيط ، قربيط ! اثنان ببارك ! » .

وإن كان ذلك غير معقول ، فقد كنت خائفاً من أن « كيت » لن تخرج من المخزن ثانية : راقبت المدخل ، تفرست فى الوجه المكشّر لذلك الجاوىّ المصنوع من كارتون وهو يحمل كوب قهوة إلى أسنانه الساطعة وسمعتُ صوت بائع الخضار كأنه يصل إلى من كهف عميق :

- قربيط ، قربيط ! اثنان ببارك ! .

وفكرت فى أشياء كثيرة جداً لا أعرف الآن ما هى ، ارتعت لرؤية « كيت » وهى تخرج من المخزن . سارت قدماً فى شارع « كرون » مشت مسرعة جداً ، لكنها توقفت بعد ذلك أمام واجهة مخزن دُمى ، كنت أستطيع مراقبتها ، أستطيع رؤية جانب وجهها الحزين ، رأيت قامتها ، تلك التى تمددت إلى جانبي فى الليل سنوات عديدة ، تلك التى رأيت قبل أربع ساعات فحسب ولم أميزها ، حين استدارت ، خطواتٌ بسرعة وراء منصة بائع متجول ، فتمكنتُ من رؤيتها بدون أن ترانى . نظرتُ فى حقيبة تسوقها ، سحبْتُ قطعة ورق ، قرأتها ، إلى جانبي كان الرجل يصيح :

- « إذا توقفتُم عن التفكير ، يامادة ، بِحَلْقٍ لحاكمٌ لمدة خمسين سنة ، نعم خمسين سنة ، فإن بشرتكم ... »

لكن « كيت » واصلت سيرها ، ولم أسمع نهاية كلام البائع الجوّال . . . تبعْتُ زوجتى ، ورأيتها من بُعد خمسين خطوة اجتازت خطوط الترام التى تلتقى فى ميدان « بلدونر » . توفقت « كيت » وعند منصة بيع زهور ، رأيت

يديها ، يدي المرأة التي ارتبطتُ بها ارتباطاً حميماً أكثر من أى إنسانٍ آخر على وجه الأرض ، التي مانمت معها فحسب ، وأكلت وتحدثت أكثر من عشر سنوات مستمرة ، لكن هنالك شيئاً آخر يربطنى بها أكثر من النوم معاً ؛ كان هنالك وقت صليّنا فيه معاً .

اشترت بعض الأزهار الصفراء والبيضاء ، واستمرت بطيئة في سيرها ، جد بطيئة ، هي التي كانت تمشى بسرعة جداً ، أعرفُ فيمَ تفكر . تقول دائماً أشتري الأزهار التي تنبت في المروج ، حيث لا يلعب أولادنا أبداً .

وهكذا سرنا ، الوحيد وراء الآخر ، كلانا يفكر في الأطفال ، وما امتلكتُ تلك الأصوات من حولي . بعيدة واهنة ، صوت مذياع المحطة رتيباً يطن في أذنى وهو يعلن في مكبر الصوت :

- « نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) إلى معرض الدوائيين - نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) ... » .

مضيت وراء « كيت » مثلما أصبح في ماء رمادى ، لم أعد أستطيع حساب دقائق قلبى ، وفزعنت مرة أخرى حين دخلت « كيت » كنيسة الدير وأغلقت وراءها الباب الأسود المبطن بالجلد . إذا ذاك انتبهت إلى أن السيجارة التي أشعلتها حين مررت بالبواب أنا في طريقى من مكتب الأبرشية لا تزال متقدة . رميتها ، فتحت باب الكنيسة ، سمعت أنغام الأورغن ، فتراجعت ، سرتُ عبر الميدان ، جلستُ على مصطبة ، وانتظرت .

انتظرتُ وقتاً طويلاً ، حاولت أن أتخيل ما كان في الصباح ، حينما ركبت « كيت » في الحافلة ، لكن لم أستطع تصوّر شيء - شعرت بالضيق ، هائماً

أطفو على مجرى لانهاية له ، والشئ الوحيد الذى استطعت رؤيته هو الباب الأسود للكنيسة والذى ستخرج منه كيت .

حين جاءت فعلاً ، لم أثبت من أنها هى ، كانت تسير أسرع ، وقد وضعت الأزهار الكبيرة ، طويلة السيقان بين مقبضى حقيبتها ، وكان على الإسراع للحاق بها وهى تمشى منزلة عبر ميدان « بلدونر » عائدة إلى شارع كرون : الأزهار تهتز وفق إيقاع خطواتها ، أحسست بتعرق راحتي ، وبدوار قليل ، فى حين طفح قلبى بخفق كثير موجه .

توقفت أمام واجهة « بونبرج » وتيسر لى وقت لأتسلل بين « الأركاديا » ، فصرت أراها واقفة حيث كنت واقفاً أنا . رأيتها لطيفة ، حزينة الملامح ، تابعت قوامها يعلو على المعاطف الرجالية المعلقة ، وكلما تأرجحت واجهة « بونبرج » الثقيلة ، سمعت مكبرة الصوت من الداخل :

- « ستر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ! فى بونبرج ! لقبعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! » .

استدارت « كيت » وعبرت الشارع ، وقفت عند كشك مرطبات ، ومرة أخرى رأيت يديها الصغيرتين تدفعان نقوداً عبر المنضدة ، تلتقط الباقي وتبعه فى محفظتها حركات صغيرة أعرفها ، تسبب لقلبي الآن ألماً كبيراً سكبت عصير الليمون فى قدح ، شربته ، ومن داخل من المخزن جاء الصوت :

- « ستر ؟ فى بونبرج ! قبّعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ؟ فى بونبرج ! لقبعة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! »
بيطء دفعت القنينة ، وبعدها القدح ، رفعت الأزهار بيدها اليمنى ،

ومرة أخرى رأيته تغادر ، إنها زوجتي التي عانقتها عددًا لا يحصى من
المرات بدون أن أستوعبها .

سارت بسرعة ، بدت على قلقي ، بقيت تُعاود النظر إلى وراء ، وأنا كدت
أعود ، أنحن ، شعرت بوجع حينما اختفت قبعتها لحظة ، وحينما توجهت
إلى موقف الترام (رقم ١٢) في شارع « جيرسن » لُذْتُ أنا في حانة في الجهة
الأخرى من موقف الترام .

قلت لصاحب الحانة ذي الوجه الأحمر المستدير :

- « شنابز »

- « كبير ؟ »

- « نعم » .

وأُتيت على كأس الشنابز الكبير . نظر إلى صاحب الحانة نظرة طويلة ،
وقال :

- « أترغب في واحد آخر ؟ »

- « كلا ، شكرًا ، كم ؟ »

- « ثمانية فينيكات . »

وضعت ماركًا ، وبدأ بطيئًا يعد لي عشرين فينيكًا ، وما زالت عيناه
مسلطتين عليّ . وعلى طول شارع « جيرستن » ، عبر ميدان « موتلكه »
عدت أخطو إلى مكتب الأبرشية ، بدون معرفة لما سأفعله .

اجتزت البواب في الممر الأبيض النظيف مارًا بالتماثيل الباروكية ، طرقتُ
على باب « سيرج » وإذ لم يجبني أحد ، دخلت :

- « حسن يا بوكنر ، لقد عدت سريعاً ! » .

- « سريعاً ؟ » .

أجبتة دون أن ألتفت .

« نعم » .

وضحك : « ما كادت تمر عشرون دقيقة . » .

ثم توقّف قبالتى ونظر إلى ، وكنت أرى من سبيل وجهه ما قد جرى فى ذهنه ، رأيت ذلك كله إنها يقظة عريضة ، ومن وجهه يمكن أن أقول إن أولى أفكاره كانت عن النقود ، فدظن أن شيئاً ما حدث لنقود . رأيت ذلك فى وجهه .

قال لى بهدوء : « بوكنر ، أنت مريض ، أم سكران ؟ » . سحبت الشيكات من جيبى ، الظرف وفيه الأوراق النقدية ، قدمتها لسيرج ، أخذها منى وبدون أن ينظر إليها وضعها على مكتبه .

قال : « بوكنر ، قل لى ماذا حدث ؟ »

قلت : « لا شيء ، لم يحدث شيء » .

- « هل تشعر بمرض ؟ »

- « كلا إنى أفكر فى شيء ، لقد تذكرت الآن شيئاً » .

ورأيت كل شيء وراءت عينى « سيرج » النظيفتين ، رأيت « كيت » زوجتى ، سمعت شخصاً يصيح : « ستر » رأيت « كيت » مرة أخرى ، شارع كرون بطوله ، رأيت رثاة جاكيتها البنى ، سمعت شخصاً ما يعلن عن ترام خاص على الخط (هـ) إلى معرض الدوائين ، رأيت باب الكنيسة

الأسود ، رأيت أزهار المارجريتا طويلة السيقان مهيأة لقبرنى طفلي ،
وشخصاً يصيح : قرنييط ! « رأيت ، سمعت كل شيء مرة أخرى ، رأيت
« كيت » حزينة ناعمة الملمح ، رأيت كل شيء خلال وجه « سيرج » . حين
مضى مبتعداً عني ، رأيت الحائط الأبيض فوق المدفأة المزخرفة التي لم توقد
قط : تمثال من كارتون لجاوى يحمل كوباً من القهوة لأسنانه البيض الساطعة

كان سيرج يتحدث في الهاتف :

- « سيارة ، أرسل سيارة في الحال . »

ثم رأيت وجهه متجهاً إلى مرة أخرى ، وأحسست بنقود في يدي . نظرت
إليها : قطعة فئة خمسة ماركات لامعة .

وقال سيرج :

- « يجب أن تمضي إلى بيتك » .

- « نعم ، بيتي » .



هاينرش بل Heinrich Böll وهذه الرواية :

فى السادس عشر من تموز ١٩٨٥ توفى الكاتب الألمانى هاينرش بل ،
حامل جائزة نوبل لسنة ١٩٧٢ ، وكانت آخر رواية نشرت لهذا الكاتب هى
روايته المعروفة « نساء أمام منظر نهري » .

الحسنة العظيمة لهذا الكتاب ذى الطبع الرقيق والأسى الإنسانى هى أنه
يرسم شخصيات لا تفارق الذاكرة ، وتظل مثل بعض ممن تحبهم أو تريد أن
تُعين فى روايتنا هذه - ولم يقل كلمة - نظل نتذكر « بوكنر » إنساناً بسيطاً
ومُتُحناً ، ونظل نتذكر السيدة - الأم « كيت » . ولا ننسى الشخصيات التى
التقيا بها فى السكن أو فى الطريق ، وشخصياته فى رواياته الكبرى الأخرى :
« بيت بلا حراس » ، أو « بيت دون حراسة » ، و« بليارد فى التاسعة
والنصف » ، و « أين كنت يا آدم ؟ » ، و « صورة جماعية مع سيدة » ،
و« المهرج » ، و « خبز السنوات الأولى » . . . هى شخصيات يذكرها جيداً من
التقى بها فى كتبه . . فكما نتذكر كيت ، وبوكنر ، وسيرج ، وفتاة المطعم
الصغير ، والأبله فى روايتنا التى نقدمها اليوم ، نتذكر جيداً آدم فى أين كنت
يا آدم ؟ ، ولينى فى صورة جماعية مع سيدة ، وشنر فى المهرج ، وهيدفيك فى
خبز السنوات الأولى .

حين انتهيت من قراءة المهرج "The Clown" وهى فى الألمانية " نظرات
مهرج Ensichten eines Clowns " وقرأت " ولم يقل كلمة And Never
Said a word ، وجدتنى أمام محبة خاصة أسعد إذ أجدها فى الكتابة ،
فوجدتنى أمام رقة وخصب إنسانين نحتاج إليهما فى الحياة . لم أجد فى
كتابته كراهة شديدة ، لم أجد ثأراً موجعاً ، لم أجد عبارة قاطعة . . بل
وجدت ابتساماً هادئاً ، وألماً هادئاً ، ورفضاً هادئاً ، ومحبة مديدة هادئة ،
دون أن يفقد صرامة الحكمة أمام الخطأ . . فأى توازن فى شخصية هذا
الكاتب النبيل ! وأية قوة إيمان لا تستدرجها أو تغريها صبغائر الحياة
وموضوعاتها العابرة ! لا يكتب إلا عن شىء يؤمن بجذواه وخيره . إنه واعظ
مثلما هو مبدع ، وإنه « مرجع » كما وُصف حين أريد وصفه .

وُلد « بُل » فى « كولون » فى ١ أيلول عام ١٩١٧ . كان كاثوليكيًا من
« كولون » ، ولكنه كان ينظر للكنيسة من بُعدٍ صافٍ وفهمٍ خاص . وهكذا
ظل حتى مات . ففزعت لموته جماهير ، وأدباء ورجال سياسة ، وأنصار
سلام ، وقُراء ، ورجال دين . . فما كان المبدع الذى توفى كاتب روايات ،
ولا كاتب مقالة ، أو مترجماً يحمل شارة شرف ، ولكنه - كما وصفه فرانز
جوزف كورتز - : إن لم يكن سُلطة فهو ضمير الأمة الذى لا يموت ، وبُعد
أخلاقي ، حتى فى نظر أولئك الذين لا يشاركونه مواقفه السياسية ... » .

وقال عنه الناقد الألمانى فريتس رادتس Fritz Raddatz :

« فى كتب بُل دائماً شىء ينفع الناس . فقد جعل لهم اللغة قابلةً
للسكنى . والتطابق النادر بين هويته المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة
اللسانية الذوقية ، إذ إن أعمال « بُل » حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمله
القارئ من تخيل منظرارى وما يقدمه المبدع ... لقد اعترف لـ « بُل » بدور

الإخبارى الناقد الذى يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بل المعجزة الاقتصادية وإعادة التسليح ، وأخيراً بلد قاعدة « البرشنغ - التى تظاهر ضدها فى مونتلاغن هذا الحامل لجائزة نوبل . . . لقد كان « هاينرش بُل » بلزاك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن ذاك رسم مجتمع الجشع فى مملكة البرجوازية ، فإن « بُل » أخرج لنا الرقصة الهائلة لعمالة التكالب على الإثراء بعد الحرب العالمية الثانية ... » .

« هذا هو المفهوم الأصلى لفن « هاينرش بُل » ، إنه نُحْرَج . إنه لا يَخْتَرع ، بل يجد . إن مادته مركبةٌ مما هو موجود أو مُتَذَكَّر . رواياته تحيا من حافر معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخون ، الزمن : إنه مافعلنا ... » .

هكذا اتضح المشهد الآن . . الإشارة الواضحة هى الرواية الآن ، أو هى وثيقة الإدانة أو الكشف الحزين لما يجرى . بمحبة موجهة يكتب مثل هذا « بُل » .

لقد اخترنا من أعماله مثلاً ، اخترنا هذه الرواية لأنها حميمة ، ولأنها مثُلٌ قريب واضح الخطاب ، ويرسم بشكل جميل ومحدد ما كان يجرى . . ليست استثناء ، فقد تحدث « بُل » فى كل رواياته عن الناس ، تحدث عنهم فى ألمانيا بعد الحرب وتحدث عنهم فى غيرها ، ولم يكن له مكان واحد يُؤثر اختيار نماذجهم منه ، لأنه أصلاً لم يَخْتَر نماذج ، وإنما وجد ناساً وتحدث عنهم وهم يواجهون النتائج الصعبة مثلما يجهدون للخلاص من أسباب نتائج أخرى تستجد . لقد كانوا يعانون من « السباحة فى ماء رمادى » . . كل هذا وإنسانيتهم معهم : يحبون ويشتاقون ويتمنون ، وإذ يضحكون فنادرًا ،

وبخفوت ، وابتساماتهم لا تكاد تظهر حتى تختفى . اللهم في أرواحهم
وعلى الوجوه .

ولا نعلم إن كانت روايات «بُل» ستقرأ في القرن القادم ، ولكن مادام
هنالك أدب ألماني فسَيُذَكَّرُ « هاينرش بُل » بالاحترام والتقدير .

ياسين طه حافظ




مكتبية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام - أرض اللواء المهندسين

تليفون ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٢



Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية



0261305